28.3.2017
@ketab_n
Follow Me

بدر الديب

حديث شخصي

أربع تنويعات

مختارات الكرمة

بدر الديب

حديث شخصي

أربع تنويعات

الكرمة

Twitter: @ketab_n

حديث شخصي

Twitter: @ketab_n

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © بدر الديب ١٩٨٢

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

الديب، بدر.

حديث شخصي / بدر الديب ـ القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.

٢٩٦ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776467170

١ ـ القصص العربية.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٧٧ / ٢٠١٤

١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢

لوحة الغلاف: تفصيلة من لوحة للوسي ماك جيليس، لاكاميرا ١ ٢(الغرفة ٢)، ٢٠٠٤، ألوان زيتية

على قماش، ٤١×٤١سم. مجموعة خاصة

صورة المؤلف: نبيل بطرس

Twitter: @ketab_n

المحتويات

رشدي حمامو ٧
ترتيب الغرف ٣٣
مقابلة صحفية ٦٧
١ ـ برج الحمام ٦٩
٢ ـ المواصلة ٨٦
٣ ـ الطيور البيضاء ٨٩
٤ ـ شريط تسجيل ٩٩
٥ ـ بداية ونهاية ١١٠
أوراق زمردة أيوب ١١٣
الوحدة الجديدة ١١٥
بعيدًا في الصيف ١٣٠
الآنية المسروقة ١٥٦

Twitter: @ketab_n

طقس الاعتراف ١٩٢
آنية الهوان ٢١٧
الأبوكاليبس ٢٥٧
الهوامش ٢٧٧

Twitter: @ketab_n

رشدي حمامو

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كان اسمي الذي التصق بي طوال حياتي هو رشدي حمامو. وليس من شك أن قولي «التصق بي» قد يثير حديثًا أو كلامًا، أو على الأقل تفكيرًا. ولكن هل يثير حقًّا؟ إننا تعودنا أن نقرأ ما يُقال دون اهتمام بما يقال. لقد تعودنا أن نقرأ دائمًا أحاديث لا تعني شيئًا. أو على الأقل لا تمس ـ في كثير أو قليل ـ روح من يكتبها. ولكنني لا أعرف ذلك. وهذا في الحقيقة جانب من المشكلة التي أعرضها الآن، والتي دفعتني إلى كتابة هذا الكلام أو تلك القصة. من المضحك حقيقة أن تكون هذه قصة! فقد سألني، منذ أيام، أحدهم:

ـ ماذا ترى في القصة؟ أو ما رأيك في القصة؟

وقد كدت أن أطرده من مكتبي لأنني وجدت أن السؤال وقح، خصوصًا أنه يريد أن يبحث بحثًا علميًّا.

نعم. فأنا أحترم العلم جدًّا. أحترم الحقيقة، وأحترم الكلام الذي يعبِّر عن الحقيقة. والمصيبة الكبرى في بلدنا، هذه الأيام، أن تقرير مثل هذا القول ليس أمرًا غريبًا فقط، ولكنه أمر غير مفهوم وغير محترم.

Twitter: @ketab_n

المهم، إنني أريد أن أبدأ القصة من جديد وأريد أن أشير مرة أخرى إلى أن الاسم الذي التصق بي هو رشدي حمامو.

والصعوبة الحقيقية في فهم معنى قولي «التصق بي الاسم» أن من الطبيعي أن يكون اسم المرء اسمه، ولكن المشكلة أنني وجدت منذ بداية حياتي أن اسمي قد أصبح مشكلة لا أستطيع حلها؛ لأنها ليست فقط جزءًا من النسيج المعقد لحياتي، بل إنه معنى التعقيد والإشكال في حياتي.

الاسم يلتصق بك. إنك تُعرف باسمك. وبعد ذلك فالاسم اسمك. عليك أن تفرح به وأن تعتز به، أو على أقل تقدير عليك أن تراه أمرًا طبيعيًّا، هو جزء منك. ولكن هذا بالضبط هو ما لم يحدث لي. ولست أدري هل كان هذا سرًّا في الاسم نفسه، أم في الظروف التي عشتها، أم في تفكيري وعقلي الشخصي الذي هو جزء من بدني ومن الكيمياء الخاصة بهذا البدن.

لقد درست العلوم الرياضية. وتخرجت بامتياز فريد في قسم الرياضيات البحتة في كلية العلوم. وخلال ذلك درست الكيمياء والطبيعة وبعضًا من «البيولوجي». ومع التفكير في الرياضة، اضطررت بنفسي أن أدرس الفلسفة، ومع دراستي للفلسفة تكوَّن لي أصدقاء يعملون في الأدب. ومع هذا التاريخ ـ الذي أعرفه جيدًا، والذي لا أظن أنكم في حاجة إلى أن أقصه عليكم ـ وجدت نفسي أخيرًا في درجة وكيل وزارة للتجارة الخارجية في جمهوريتنا.

ولكن ليس منصبي هو المهم. إن كل أهميته أنه قد أوصلني إلى مرحلة أستطيع أن أكتب فيها القصة. أستطيع! لا بالطبع، فأنا مدفوع

Twitter: @ketab_n

ومحتاج لكتابة القصة. وعليكم أن تعرفوا باستمرار أن كل أولئك الذين يكتبون القصص هم في الحقيقة مضطرون على نحو ما إلى كتابتها. غفر الله لهم.

فلنعد إذن إلى اسمي. إن التفكير في أن أبدأ بالحديث عن الاسم في هذه القصة هو نتيجة للخلفية الرياضية التي تلقنتها وتعلمت من خلالها. في الرياضة، عليك دائمًا أن تبدأ من بديهية أو من مصادرة، مهما كانت. عليك أن تقبل شيئًا، قبل أن تقيم عالمًا. وعليك أن تواصل وأن تصر على هذه البديهية؛ لأن بناء العالم لا ينتهي، ولأن سحر التواصل والمواصلة والسير إلى ما يمكن أن تتوصل إليه لا ينتهي. وقد بحثت طويلًا ـ لا، أنا كاذب في ذلك! ـ في كيف أبدأ القصة. نعم، قد فكرت طويلًا وعانيت. واضطربت واختلط عليَّ الأمر، ولكنني لم أبحث بالفعل. فكيف أبحث في شيء مثل هذا؟

كنت أريد أن أجد بداية لهذه القصة، ولم أجد أفضل من أن أبدأ من اسمي. وعندما بدأت في الكتابة أحسست أنني بحثت، وأحسست أنني اخترت بناء على تراث علمي عميق في نفسي. ولكن أليس هذا تبريرًا لا عمق حقيقيًّا له؟ أنا في الحقيقة لا أعرف إلى أيِّ حد أنا كاذب أو صادق فيما أقول، كل ما أستطيع أن أقره الآن، في صدق كامل، أنني في حاجة إلى بداية للقصة، ولست أجد أفضل من البداية بالاسم. لقد تعلمت من الفلسفة احترامًا كبيرًا للاسم وتعلمت من تراث أمتي ومن تراث أمي وأبي احترامًا كبيرًا للاسم، ألم يبدأ الله الحياة والكون بأن ابتدع الاسم وأن أعطاه؟ ومن الرياضة استقر في نفسي دائمًا أن الاسم هو الصياغة الأخيرة لأية مشكلة، وأنه في

Twitter: @ketab_n

الوقت نفسه مصدر كل الأخطاء والعيوب والنقص، وأنه قد يكون اسمًا قادرًا على الإعطاء وعلى مواصلة التكشف في التحليل أو قد يكون جافًّا ناضبًا كالمرأة العقيم أو الغصن اليابس أو أيٍّ تشبيه آخر قد يستطيع أن يجده أصدقائي من الذين يعملون في الأدب.

المهم، وها أنتم تحسون أن كلمة «المهم» هذه تكاد أن تصبح مثل تقرير لاختتام الدائرة، أو كأنها محيط تم للدائرة وأنت تريد أن تخرج عنه لتصنع دائرة أخرى أو لتصنع ـ وهو ما أريد فعلًا ـ طريقًا واضحًا للمعنى لا يتحرك في دوائر ولكن في خط مستقيم.

كم عذبتني هذه المعاني في ليالي الدرس البعيدة! أيهما أفضل فعلًا: الدائرة أم الخط؟ وهل يصح حقيقة أن نستعمل كلمة أفضل وأن نمارس أحكام القيمة بين مثل هذين الوجودَين؟ فإذا كانا وجودَين، فهل هما كذلك فعلًا، أم أنهما وجودان في الذهن فقط ولا يحق للمرء أن يراهما واقعًا يتعامل معه ويتعاطف معه ويحكم عليه؟

إن العلاقة بين هذا كله وبين اسمي قريبة وثيقة في ذهني، ولا أريد للقارئ أن يتعجب منها أو أن ينزعج؛ فأنا أريد فعلًا أن أتعامل معكم بصدق حقيقي. وكيف أتعامل بأي قدر من الصدق دون أن أفرز أمامكم فعلًا كل ما تراكم من دراستي وشخصيتي؟ وهذه الدراسة الطويلة للرياضيات البحتة قد صنعت في روحي فراغًا أبيض غريبًا فيه نور وفيه بداهة، ولكن فيه حيرة وغربة حقيقية عن الواقع اليومي البسيط الذي يعيش فيه الناس. وقد كان هناك خلاف بيني وبين نفسي حول أهمية هذا الفراغ الأبيض المليء بالنور الذي تصنعه الرياضة؛ فمن المفروض، ومن الأمور العلمية المسلمة، أنك مهما ارتفعت في

Twitter: @ketab_n

الرياضة فإنك في نهاية الأمر تريد أن تصل إلى قدر من الانضباط في تقرير الواقع لا يتيسر دونها، ومع ذلك فقد كنت دائمًا ـ عندما يجذبني الواقع إليه ـ أجد أنني أعيش في تفكيري ودراساتي في عالم لا ينتمي إلى الواقع ولا يوصل إليه. وأن هذا الواقع هو حيوان حي متشكل له منطق خاص وله أعضاء وأجهزة خارجية وداخلية تتطلب أنواعًا أخرى من العلوم ومن المعايير والمقاييس لضبطها، بل ولمعرفتها أولًا.

وأنا أرجو ألا يتصور أحد أنني أختفي وراء الرياضة لتقرير معنى أدبي، أو أنني أستخدم كل هذه المقدمة الطويلة حول اسمي كنوع من أنواع خلق التشويق أو التوتر في القصة. فأنا في الحقيقة لست أدري ما الاسم الفني لهذا النوع من الأسلوب ولست مهتمًّا لا بمعرفته ولا بتحقيقه. ولكنني ببساطة أردت أن أكتب هذه القصة لحياتي أو لاسمي لأنني وجدت أنها مفيدة لي، وأنها قد تخرجني من الدائرة المتكررة إلى الخط المستقيم، فهل سيحدث ذلك؟ إنني لا أعلم، ولا أعرف من العلوم ما يجعلني أطمئن إلى مثل هذه النتيجة أو ما يجعلني أعرف الطريق النظري أو التجريبي إليها.

فالإرادة أقرب إلى أن تكون مجالًا لا يمكن معرفة أبعاده ولا تحديد محاوره أو دالته الرياضية ولا تستطيع أن تجتابه فعلًا إلا وأنت تجتابه. وأنا أقصد بهذا أنك لا تستطيع أن ترسم للإرادة رسمًا نظريًّا يمسك بها قبل أن تتحقق، وهي بذلك معنى غير رياضي تمامًا ولا يخضع حتى لحساب الاحتمالات.

فإذا كنتُ قد أردتُ أن أحقق بالقص شيئًا فأنا لا أعرفه تمامًا إلا على أنه إرادة تصبح أحيانًا رغبة وتتصاعد مرة لتكون حُلمًا وتعود

Twitter: @ketab_n

إلى الأرض فتكون أمنية، وفي لحظات من الجفاف الروحي أحاول أن أجعلها فكرة واضحة فلا أستطيع. وكل هذه الصعوبة التي أجدها في تحديد ما أردته بالفعل من كتابة القصة ـ إذا لم تنفع فكرة الخروج من الدائرة ـ هو الذي جعلني أقف عند اسمي وأحاول أن أجد فيه البداية التي لم أصل إليها بعد.

ومن الغريب تمامًا أن تكون البداية شيئًا تصل إليه، فالمفروض أنك تبدأ من البداية لتصل إلى شيء ما أو إلى مكان، أو إلى معنى ما. ولكن يبدو أن القصة غير الحياة وغير الرياضة تمامًا، وأن القصة تنتمي إلى الفن، وبذلك فإن لها أحكامًا ومقتضيات وحسابات أخرى. والغريب كذلك أن أحدًا من أصدقائي الأدباء لم يقُل لي إن هناك فارقًا جوهريًا بين الحياة والفن أو بين الفن والرياضة؛ فقد كنت دائمًا أحسب أن الحياة هي المصدر الأساسي للفن، وأن الفن لا يكاد يصنع جديدًا إلا أن يحاول أن يحاكيها أو أن يفسرها، وفي أحسن الظروف أن يستخرج منها الحكمة والفلسفة. وكنت أحسب دائمًا أن الانضباط والدقة التي تمثلها الرياضة هي حلم لكل فن كما هي هدف كل علم. ولكنني ـ وأقول الحق ـ وجدت أن هذا كله غير صحيح بمجرد أن تجمَّعت لي فجأة تلك الإرادة الحيوية لأن أكتب هذه القصة.

ولقد تجمعت لي فجأة تلك الإرادة الحيوية، أو على وجه أصح، تجمعت فيَّ فجأة، فأنا ما زلت لا أحس حقيقة أنني أمتلكها، أو أنها إرادة من تلك الإرادات التي أمارسها وأنا أصنع بحثًا في النهايات الصغرى والنهايات الكبرى، أو وأنا أضع تقريرًا رسميًّا عن منحنى

Twitter: @ketab_n

التجارة الخارجية وإسقاطات حساباتها في السنوات القادمة، أو حتى وأنا أضع الخطوط الخارجية لخطاب رقيق في المحافل الدولية أو الاجتماعات الرسمية قبل توقيع الاتفاقيات التجارية أو بعدها.

وهي أيضًا ليست إرادة من النوع الذي أستخدمه أو استخدمته في حياتي؛ فقد كادت هذه الحياة أن تقارب نهايتها؛ فأنا فوق الخمسين بسنوات، وإراداتي كانت كثيرة منذ أيام السفر الأولى إلى أمريكا للدراسة، وأيام الزواج، وأيام الصراع الوظيفي في الجامعة وفي الوزارة، مع مصاعب الإدراك لأهمية العلم في بلدنا، أو مع سخافات ودناءات الأصدقاء والزملاء والرؤساء، أو مع حيرة وتخبط الطلبة والمرؤوسين أمام ما يريد منهم العلم أو ما يريد منهم البلد والمصلحة الوطنية.

إن كل إرادة أو لحظة إرادة من تلك اللحظات الخاصة التي تصنع حياتي كما تصنع حياة أي إنسان، هي ـ فيما أعرف ـ ما يهتم به القصاصون وما يصنعون منه القصة بما فيها من حبكة ومفاجأة، ومن تغير للشخصية وصراع للأبطال وما يجري عليهم من هزيمة وألم وانتصار. أليس كذلك؟ إن كل ما يقدَّم لنا من قصص وروايات هي مجرد محاولات لاختلاق حبكة، وبالتالي للتوصل إلى معنى من مجموع لحظات الإرادة في حيوات الأفراد.

وكنت أحس الآن، وأنا أتحدث عن تلك الإرادة الحيوية التي تجمعت لي فجأة ـ أو تجمعت فيَّ كما قلت ـ لأكتب هذه القصة، أن الأمر لا يصح أن يكون كذلك، وأن كتابة القصص يجب أن تكون شيئًا آخر غير ما يحدث الآن؛ فمعظم ـ إن لم يكن كل ـ ما قرأت إلى

Twitter: @ketab_n

الآن من قصص، هي في الحقيقة معادلات رياضية ساذجة، يمكن صياغة كل ما فيها من عواطف ومواقف في رموز بسيطة وعلاقات محددة واضحة بين هذه الرموز. ولكني لا أريد، في الحقيقة، أن أدخل في هذا المبحث النقدي الذي يرد القصص الموجودة عندنا إلى الرياضة. لا، ليس هذا ما أريده أبدًا، وليس هذا ما تجمع لي أو فيَّ من الإرادة الحيوية التي أتحدث عنها. ولكنني لا أستطيع إلا أن أقول، قبل أن أترك هذا الموضع من قصتي، إن معظم القصص التي أقرأها ـ إن لم يكن كلها ـ قد يكفي في الاستعاضة عنها أي بحث سليم في علم النفس أو علم الاجتماع، وإنها ليست من الانضباط بحيث يمكن أن نُخضعها للرياضة. أي أنها في الحقيقة لا تستحق الانضباط الرياضي ولا تكاد أن تكون إلا فتاتًا نفسيًّا أو كسرات صغيرة من معانٍ وحقائق يمكن أن يصنعها وأن يستخرجها بحث اجتماعي أولي.

ولقد بلغني فيما بلغني من أصدقائي الأدباء، ومن بعض ما قرأت، أن هناك اتجاهًا جديدًا في عالم الأدب والقصة يسمى «ضد الفن». وعلى الرغم من أنني أستطيع أن أتصور بعضًا من أهداف هذا الاتجاه وأن أتصور بعضًا من أساليبه، فإنني أعتقد أنه غريب تمامًا عن محاولتي هذه وعن حرصي على أن أسجل ما تمليه عليَّ تلك الإرادة الحيوية التي تجمعت فيَّ.

فهذا العكوف المفاجئ على الورق، استجابة لتلك الإرادة، ينشد فعلًا لا يمكن أن يكون إلا من الفن، ومعرفتي بذلك هي حقًّا معرفة بالسلب كما ترون إلى الآن، ولكنها معرفة متحركة نشطة مع ذلك

Twitter: @ketab_n

وما تزيحه من أمامها يكاد أن يكون سدودًا ضخمة أراها تتساقط وتنهار لأصل إلى لحظة قادمة أعرفها وأنتظرها من نور خاص، ليس من نور الحياة ولا من نور الرياضة ولكنه أيضًا ليس من هذا النور الأغبش الأعشى الذي أجده فيما أقرأ من قصص حولي.

ولقد لاحظت فجأة، وأنا أحاول أن أصل إلى البداية كما قلت، أن من الممكن لي أن أتعثر فجأة في نوع من الكبرياء أو الغرور الذي يعميني تمامًا ويكاد أن يقضي على هذه الحركة الدافعة المفاجئة التي تجمعت لي. وقد عزمت، ولا أقول أردت، أن أقتل هذا الغرور أو الكبرياء المحتملة بأن أخضع مباشرة لما أعرف من شروط القصص وللمواصفات المتفق عليها للاحتفاظ بالقارئ وتسليته. وخطر لي أن الطريق إلى هذا قد يكون بالتوصل إلى شيء آخر غير البداية التي أتصور أنني أبحث عنها. وأعني بذلك التوصل إلى صياغة لحبكة حياتي ولتحديد الظروف المحيطة بي، وبكل القوى والمعاني القائمة في هذه اللحظة من حياتي التي تولدت فيها تلك الإرادة الغريبة عني تمامًا.

إن الظروف التي أحيا فيها الآن هي بالفعل ظروف خاصة، وقد يتصور البعض أنها السبب فيما حدث لي هكذا فجأة. ولكن، حتى لو كانت هي السبب، وهذا كما قلت مبحث نفسي، فإنها ليست في الحقيقة ما أريد أن أتحدث عنه. ولكن هذا التشابك مع الأخلاق، والخشية من الغرور والكبرياء يجعلاني أصر، مع نفسي وأمام القارئ، أن أحدثه عنها.

فليس هناك في الحقيقة ما يمنع من ذلك، على الرغم من أنني

Twitter: @ketab_n

كموظف عام قد تعودت ألا أتحدث عن حياتي كثيرًا أو إذا تحدثت ألا أكتب عنها، أو إذا كتبت ألا أتصور أنها يمكن أن تكون فنًّا أو حتى أن تقترب من أي شيء يشابهه.

فليست ظروفي الحالية بغريبة أو خافية عن أحد؛ فأنا أعيش في بيت في جاردن سيتي، أشبه بتلك البيوت التي يصنعها الوزراء، وهذا مبحث اجتماعي. فالبيت قد حصلت عليه منذ سنوات طويلة، وبعد أن وصلت إلى رئاسة قسم الرياضة في كلية العلوم. ويتكون من خمس غرف واسعة، وإيجاره القديم بالطبع لا يتفق أبدًا مع كل ما هو حادث الآن حولنا في أسعار الشقق. أما الأثاث الذي فيه، فقد صنعته زوجتي باختيارها منذ أيام تزوجنا من أكثر من خمس وعشرين سنة مضت. ولا أجد ـ حقيقة ـ كشفًا جديدًا للقارئ في أن أصف له الأثاث. فكل غرفة قد جرت حولها قصة خاصة، إما عن صناعتها أو عن شرائها من مزاد، ولكنها جميعًا من الخشب النادر ومن صناعة أجنبية، فرنسية أو إيطالية، وأما كل الآلات والأدوات الكهربائية في المنزل فهي من أمريكا.

وأظن ـ في الحقيقة ـ أنه من السهل على أي قارئ أن يتصور أنواع «الاستيل» في الكراسي والمقاعد وفي النجف والأبسطة. فهل هناك جديد في أن أقول إن معظم النجف عندنا تركي أو تشيكوسلوفاكي، وإن بعض ما لدينا من أثاث كان ينتمي إلى قصور الأمراء أو الوزراء قبل الثورة، وإن لدينا تحفًا و«بيبلوهات» من المجر والهند وهونج كونج؟

إنني لا أكتب الآن في غرفة المكتب. فقد أصبحت الغرفة ملكًا كاملًا لوظيفتي وامتلأت بـ«دوسيهات» كثيرة وبتقارير أخفت أهمية

Twitter: @ketab_n

ودلالة المراجع والكتب الرياضية والفلسفية في المكتبة، وإن ظلت هذه الكتب والمراجع بعض ما استخدمته في التأثير فيمن يزورونني من الأعوان في الوزارة أو الأجانب الذين يقتربون مني في العمل، بحيث أجد أن من المهم أن أدعوهم لفنجان شاي أو لكأس في منزلي، أو حتى لعشاء.

هل يكفي هذا إذن لتصوير ظروفي المادية، أم أن القارئ ومواصفات القصة ما زالا يحتاجان إلى مزيد؟

إن تصوري أن هناك بذرة من الغرور والكبرياء، وأن عليَّ أن أقضي عليها، يدفعني إلى أن أنظر إلى هذه المواصفات القصصية نظرة علمية وأن أحللها أمام القارئ حتى لا يعود ينخدع فيها من جديد، وقد أستطيع أنا من ناحية أخرى أن أحقق حريتي في الدفاع عن تلك الإرادة الغريبة التي تدفعني للكتابة.

فلكل شخص، بعد الظروف المادية المحيطة به، أي هذا السكن أو الموطن، كما يقول علماء الحيوان و«البيولوجي»، خطان أو بُعدان رئيسيان آخران، هما: العمل والحب. فكما يعمل الإنسان يكون، وعلى قدر ما يحب يستطيع.. هل هذه حكمة صحيحة؟ لا أدري، ولكني أخضع لمواصفات.

أما عن العمل، فإنني في الحقيقة لا أصنع سياسة، ولكني أولًا أومن بها، وأحاول ثانيًا أن أحققها، ولقد كثرت هذه الأيام الأحاديث عن سياسة الانفتاح وعن دلالتها السياسية والاجتماعية، وليس من شك عندي ـ كعالِم ومنفذ للسياسة ـ أن معظم ما يقال يصدر عن أفكار خاطئة وعن معلومات ناقصة نقصًا فظيعًا؛ بحيث

Twitter: @ketab_n

يصبح الكلام مجرد كلام لا دلالة له ولا فائدة، والدلالة والفائدة هما ما تعودت أن أبحث عنهما دائمًا في كل ما أعمل، وهما كل ما أستهدفه فعلًا من أي تفكير. وهذا ما جعلني دائمًا أعزف عن الكلام في الصحف وعن الإجابات المبتسرة عن أسئلة لم تنضج في أذهان أصحابها.

ولست ممن ينكرون أثر الرأي العام أو أهمية توعيته؛ فأنا بالعكس أعتقد أن هذا بُعد أساسي في أي عمل تنفيذي، ولا يمكن لأي عمل تنفيذي أن يتوصل فعلًا إلى نتائجه التي يريدها إلا بهذا التفاعل الكامل بينه وبين الرأي العام.

ولكنني قد توصلت ـ كما توصل الكثيرون غيري من المنفذين ـ إلى أن تكوُّن الرأي العام في جمهوريتنا مسألة تتعلق بالتاريخ، وأننا يجب أن نعمل وكأننا فرقة إنقاذ أو فرقة إطفاء للحريق، وأن نتحرك بسرعة، وأن نواجه المعارضات والانتقادات على أنها مسألة اضطراب وزحمة تعطل العمل وأن علينا أن نواجهها باللطف أو بالسرعة التي تجعلنا نستطيع أن نواصل عملنا. وقد يكون هذا تصويرًا بسيطًا أو ساذجًا لموقفي من العمل ومن السياسة، ولكنه ـ فيما أعتقد علميًّا ـ هو نتيجة مباشرة لظروفنا التاريخية منذ الثورة، بما في ذلك عجزنا عن إقامة تنظيم سياسي قوي، أو فشلنا إلى الآن في تنظيم توصيل المعلومات كاملة إلى الرأي العام.

ويبقى عليَّ أن أقول عن عملي إنني لا أسرق ولا أرتشي ولا أتصور أن يحدث هذا مني، وإن كنت أعرف أنه يحدث أحيانًا من حولي دون أن أملك قطعًا كاملًا أو قدرة حقيقية على معرفته أو

Twitter: @ketab_n

على منعه. وأكاد أستطيع أن أطمئن، بيني وبين نفسي وعلى أساس من احترامي للعلم ولمناهج البحث، أن الحديث بعد هذا يجب أن يكون عملًا علميًّا من مباحث علم الاجتماع أو علم الاقتصاد اللذين اضطررت إلى التعرف عليهما، وإلى الدخول في مناقشات كثيرة حولهما، على الرغم من أنني كنت أفضل أن أبقى في مباحثي حول الرياضة وحول الأشكال والأرقام. وأنا حريص تمامًا على أن أقرر هذا لأنني لا أريد أن يتصور أحد أنني أخشى شيئًا أو أتحرج في الحديث عن العمل أو عن السياسة أكثر من هذا. فلقد انتهى بي الأمر - في حالتي الاجتماعية والاقتصادية - إلى نوع من الاستقرار يصعب أن يهزه شيء، حتى وإن انتهى دوري في العمل أو طُلب مني أن أغيره أو أن أتوقف عن أدائه. ولا شك أن هذا نفسه هو معنى جديد فيه إضافة وكشف عن طبيعة علاقتي بعملي وعن أثر عملي نفسه على تكويني وعلى حياتي. وما أكثر المباحث العلمية التي يجب أن تتناول كبار المسؤولين عن التنفيذ على المستوى الذي أعمل فيه أو على غيره صعودًا أو هبوطًا.

ولكنني أكثر اطمئنانًا الآن إلى أن الغرور والكبرياء اللذين قد أُتهم بهما، قد أصبحا غمامات بعيدة لا تمسني ولا أقع تحتها، وأن هذا النور المتواضع الذي أشيعه حول نفسي بمحاولة المعرفة لذاتي يحميني منهما.

إنني أجلس الآن، بمفردي. وأمامي هذه الأوراق التي أكتب فيها، وكل المنزل بكل ما فيه من أثاث وذكريات ساكن ثابت، يقع عليه بصري وأعرفه في خيالي دون أن يتغير فيه شيء وكأنما قد مر

Twitter: @ketab_n

الزمان الذي كان يمكن فيه أن يتغير أو أن يُضاف إليه. وتأتي هذه اللحظة التي تتراكم فيها ظروف الحياة كلها لمن يريد أن يراها، دون أن تقدم تبريرًا كافيًا لشيء ودون أن تفتح فيها كوة واحدة لنور على المعنى أو المستقبل. أليست هذه الوحدة التي أحسها الآن كافية لأن تقنع من يريد بأن الظروف المحيطة، مهما تعقدت أو تراكمت، وأن ظروف العمل، مهما دخلنا في تفصيلاتها، لا تكفي؟ نعم، لا تكفي لأن تعطيني القصة التي أريد.

إن البيت كالعمل مليء بتفاصيل أخرى كثيرة. وهناك وهم بأن الطابع العام يقتل الفن، وأن الفن لا يحيا إلا مع التفاصيل. هناك في البيت مواضع مليئة بالأسرار أخفيتها، حتى عن زوجتي، بل وتركتها في أماكن نائية أو أدراج مغلقة حتى أخفيها عن نفسي أيضًا. وهناك قطع، مثل تلك اللوحة التي أعطتها لي عشيقة قديمة وعلقتها في غرفة الجلوس اليومية على أنها عمل فني مهم بعد أن أقنعت زوجتي بذلك. هل هذا خدعة؟ هل يعني هذا كشفًا جديدًا عن نفسي أو عن زوجتي؟ ربما. ولكنه أمر عادي قد عشته وعايشته سنوات طويلة الآن حتى كدت أنا نفسي أعتقد أن اللوحة، التي تختفي وراءها تلك المرأة البعيدة، هي حقًّا عمل فني يستحق الاهتمام. ولقد تكرر الكذب واصطنعت حوله المواقف حتى أصبح حقيقة. وهذا أسلوب عام متكرر في كثير من جوانب حياتي في البيت أو في العمل. وقد يستطيع الفن أن يتابع الكذب حتى يصبح واقعًا متشكلًا بشكل الحقيقة، ولكنه لا يستطيع أن يرده من جديد ليصبح كذبًا حيًّا مليئًا بدم المعاناة والخجل وجرأة الإنسان على صناعته وعلى تخطيه

Twitter: @ketab_n

حتى يستطيع أن يعيش. فهذا من أسرار الحياة التي لا تفض. ولينظر كل فرد منا إلى كل لحظات الكذب التي ماتت وأصبح يحملها معه جافة مغطاة بقشر الواقع، والعادية، والمألوفة.

إن جو العمل مليء أيضًا بهذا النوع من القبول للأكاذيب الميتة. هناك النقص الفاضح في الأدوات والأجهزة ووسائل المواصلات والاتصالات التي نعمل بها. وفي كل يوم نعانيها كأنها واقع وكأنها شيء لا مهرب منه ولا حيلة لنا فيه ولا يجرؤ أحد على أن يقف ليسأل كيف وُضعت هنا تلك الآلات الكاتبة التي لا تكتب والتلفونات التي لا تعمل والتليكس الذي لا يرد، فإذا رد لم يكن هناك أحد بجانبه ليتلقى منه. إن هذا كله هو أكثر من مجرد بيروقراطية أو نقص في الإمكانيات. إنه ألفة بالكذب الميت على النفس. شيء قبلناه في الماضي، وضعناه لنواجه موقفًا، ثم أصبحنا نعيش معه كأنه أمر طبيعي ثابت. إنني لا أفتعل المعنى ولا أقسو عليه. ولكن فلنتساءل: كم من المنفذين يعلمون على وجه القطع أن عددًا كبيرًا من معاونيهم لا يصلح لأن يكون كذلك؟ ليس لديهم تردد في ذلك. ليس هناك تردد في حكمهم على قدراتهم أو على معرفتهم بموضوعهم أو باللغات التي يتعاملون بها أو حتى بأصول التعاقد والتفاوض مع الأجانب أو الإخوة العرب. ولكنك في نهاية الأمر تظل تعاملهم أمام الناس وأمام نفسك وكأنهم معاونون كبار وترى أن عليك أن تشجعهم وأن تطلب لهم حوافز للعمل وأن تظل متصورًا أنه قد يأتي اليوم الذي يتغيرون فيه تمامًا ويصبحون شيئًا مهمًّا كبيرًا كتلك اللوحة التي أحتفظ بها في هذه الغرفة. إنهم في الحقيقة يعنون شيئًا آخر أو كانوا على الأقل

Twitter: @ketab_n

يحملون في لحظة من لحظات الماضي معاني لم تدم ولم تستقر لأننا اضطررنا أن نكذب حولها.

وقد يتصور القصَّاص أن عليه أن يبحث عن تفاصيل حياة الفرد أو الأفراد الذين يكتب عنهم، فإذا ما جهد وعرفها أو تصورها حاول أن يتابعها في حياتهم وأن يعرف أثرها على شخصيتهم... إلى آخر هذه الاهتمامات. ولكنه ينسى، في آخر الأمر، أن كل التفصيلات تبدأ نضرة حية ثم تبهت وتموت وتغير طبيعتها تمامًا، وأن هذا الذي يتجمع منها ويتكون من تراكمها هو شيء آخر غيرها تمامًا؛ لأنها، هي نفسها، قد تغيرت تمامًا مع الزمن ومع ثبوت الشخص وتكونه.

وأرجو أن يكون واضحًا أنني أحاول بكل هذا التفكير الفلسفي في بُعد الزمن في شخصية الإنسان أن أحمي نفسي من العين التي تريد أن تصل إلى تفاصيل حياتي، وأن تفسر هذا الدافع الغريب الذي أعيشه الآن للكتابة بشيء أو آخر منها.

لقد تزوجت بعد حصولي على الدكتوراه مباشرة. وأهم من كل تفاصيل الزواج، أن زوجتي الطبيبة، صاحبة العيادة المشهورة للأطفال في سليمان باشا، قد تركتني وتركت مصر لتعمل بالتدريس والطب في الجزائر. فهل أقول إنني وحيد ومهجور ولذلك أعود إلى نفسي وأحاول أن أقف بمفردي عن طريق التعبير؟ ما أبسط هذا وما أغباه، أو على وجه أدق ما أضحله. إنه من الناحية العلمية تفسير لا يمسك بشيء؛ فلست مهجورًا ولم تتركني الزوجة. ولكننا قد توصلنا معًا إلى هذا القرار في محاولة عملية لمواجهة ارتفاع نفقات المعيشة

Twitter: @ketab_n

ونفقات حياتنا الاجتماعية إلى حد أصبح مزعجًا لنا ومسببًا لأنواع كثيرة من الضيق. فنحن مثلًا في حاجة إلى عربة جديدة؛ لأن العربة القديمة التي استهلكتها زوجتي لم تعد تليق بنا، وأنا ما زلت أتحرج تمامًا أن أزج بعربة الوزارة في مواضع أو مواقف أو أوقات لا تليق.. ونحن قد أصبحنا أيضًا نجد صعوبات في شراء بدل وقمصان لي أو فساتين للسهرة وللخروج ومعاطف لزوجتي. والحقيقة أن عملي العلمي في التأليف والتدريس قد كاد أن يتوقف تمامًا. وأصبح حسابنا في البنك لا يكاد يعتمد إلا على ما تحصل عليه زوجتي فاطمة البوريني من عيادتها.

ولما كنت لم أستطع، بحكم منصبي، أن أغادر البلد بكرامة، فقد كان من الطبيعي أن تدخل زوجتي ضمن هذا التيار المتزايد من الهجرة، الذي صاحب سياسة الانفتاح. وليس من شك في أن لكل واحد من الآلاف العديدة التي خرجت لتعمل ولتعود بقدرة جديدة على مواجهة تكاليف الحياة، قصة خاصة مليئة بالتفاصيل والمشاكل الجزئية، وأن هناك آلافًا مؤلفة من القصص يمكن أن توضع حول أولئك الأفراد من الرجال والنساء. ولكن ماذا لو كتبت فعلًا تلك القصص؟ هل ستكون ثروة قومية ضخمة؟ هل ستكشف جديدًا عن الحركة الاجتماعية وعن الظروف المتعلقة بالحضارة وبالاقتصاد التي يمر بها البلد، أم هل ستكون في آخر الأمر صورة من صور القصص الفنية التي تهتم بالتفاصيل الشخصية والمواقف العاطفية، وكأنما من الممكن أن نستخلص جديدًا عن كل هذا بعد القرون الطويلة التي مر بها الإنسان ومر بها التعبير؟ إن الفن لم يعد

Twitter: @ketab_n

كافيًا أبدًا. وليس أمامنا إلا العلم ليمسك بكل الخيوط التي تحرك هذه الآلاف المؤلفة من الخارجين، وتجعلهم يقفون في صبر ومعاناة، أشبه بالمعجزات، أمام مكاتب الإعارة ومكاتب السفارات ليحصلوا على تصاريح العمل وتأشيرات الخروج... وما أغربها من ألفاظ! «تصريح للعمل»! و«تأشيرة للخروج»!

لم تكن هذه المعاني الكلية شيئًا مما عرفته زوجتي أو صادفته على أي حال. كان أمر سفرها شخصيًّا فعلًا ومفاجئًا لنا معًا. هل كان مفاجأة حقًّا؟ لقد وجدت نفسي أسقط على الفكرة وعلى الاحتمال كما يسقط الصقر أو اللص. لقد أحسست وهي تحدثني، في مساء يوم، عن العرض الذي قُدم إليها، أنني أريد أن أخلص منها، أو على الأقل أريد أن أُخلص نفسي. فهل وجدت البداية الحقيقية لهذه القصة بهذا الاعتراف؟ وهل كنت أريد من كل ما كتبت، ومن تلك اللحظة نفسها التي أوصلتها فيها إلى قرار السفر، إلا أن أجرد نفسي شيئًا فشيئًا من كل شيء حتى أصل إلى اسمي أو حتى لا يبقى إلا هذا الاسم؟

جاءتني ذات مساء، كما قلت، تقص عليَّ العرض الذي قُدم إليها. كان ذلك في التاسعة تقريبًا، وكنت قد عدت متأخرًا من الوزارة وجلست في غرفة المكتب أشعر أنني سأصاب ببرد قادم، فجلست إلى «الفوتيل» المريح بجانب الأباجورة. وأخذت الكتاب الذي كنت أقرأ فيه منذ أيام وبدأت أقرأ ساكنًا وأنظر إلى البيت الساكن الذي ما زال خاليًا منها ومن كل شيء إلا النوبي الشاب الذي يخدمنا. كان الكتاب عزيزًا عليَّ وكأنه سر، وكنت أترك نفسي له، أعيد نتائجه في ذهني وأقيم في عيني المناظر والأحداث التي يصفها. كان الكتاب

Twitter: @ketab_n

من تأليف قس بروتستانتي سميك البدن ثقيل اللحية وكان يتابع حياة قبائل الإسكيمو في لابلاند ويبحث الطقوس والنصوص الخاصة بعبادة الدب الأبيض وعلاقة هذا كله بفكرة الله. كان الكتاب يعطيني من الوحدة ما أريد. ولست أظن أحدًا يريد تفاصيل أكثر للظروف التي أحاطت بهذا الحادث.

كانت الوحدة والسكون إلى نهاية الحياة قد بدأت تصبح لونًا ثابتًا في حياتي النفسية وكأنها ضوء من درجة خاصة. وكان قد مر أكثر من عام على وفاة ابننا.

لماذا تهتز الروح بالذكرى بعد كل هذه السنين؟ ولماذا إذا اهتزت، لا تهتز بعنف وقسوة ولكنها تميل فقط ميلًا خفيفًا في حزن وأسى وكأنها شجرة جرداء لا ورق فيها ولا أغصان فلا تعرف كيف تميل أو تهتز؟ لقد أصبح الحزن الذي يصاحب عودة هذه الذكرى أو الاضطرار إلى تسجيلها، كما فعلت الآن، مجرد اتساع في المساحات الشاسعة الفارغة في الروح وكأنها أرض الجليد التي أقرأ عنها. إنني لم أكن مستعدًّا، في الحقيقة، أن أتحدث عن هذا الفقد الذي حدث في حياتنا، غير أنني أردت أن أسجل التفاصيل كلها ووجدتني أسأل عن مزيد من التفاصيل.

لقد كان من الأولى بي أن تتساقط مني الدموع. ولكنني لا أبكي ولا أذكر أنني بكيت منذ أن صنعت وعيي العلمي وتكونت أستاذيتي الطويلة في الجامعة، وكأنما المعرفة والأستاذية مرض يحرمك من هذا الحق الإنساني في البكاء.

وعندما مات ابننا، كان موته في حادث مخجل فاضح؛ فقد

Twitter: @ketab_n

تهشمت به العربة في الطريق الزراعي بالليل ومعه فتاة من فتيات الليل. ولم تمت هي، ولكنه كان وحده الذي مات ورائحة الخمر واضحة في فمه وعينيه. لكنني لم أره ولم أشمه. ولكنني منذ أن سمعت الخبر اندفعت دون وعي واضح بما أفعل لأتحرك لتغطية الفضيحة وإسكاتها. كما أتحرك لدفنه تمامًا. وقد أكرمتني الصحافة، بناء على طلب خاص من رئاسة الوزراء، كما استطعت بسرعة أن أرتب مدفنًا لائقًا بي وبعائلتي بدلًا من أن نسافر بالجثة إلى البلد في الشرقية. فلم أكن قد سافرت إلى هناك منذ أيام الشباب. ولم تكن بي قدرة على مواجهة كل هذه الجدة في البلد وأنا أحمل جثة ابني وفي مثل هذا الحادث.

ومن غير المعقول أو الإنساني أن يطلب مني أحد ـ حتى باسم مواضعات القصة والفن ـ أن أدخل في مزيد من التفاصيل؛ فقد جرحتني، وما زالت تجرحني، كل تلك الجهود التي بذلتها لكي أخمد تفاصيل الحادث وأخفيها، ولكي أفرغ من دفن البدن الذي تشوه وتحطم كما قالوا لي. وأكثر ما يجرح من هذه الذكريات وكل هذه التفاصيل هو أن حياة هذا الابن، الذي كان قد كبر وبدأ يستعد لأن ينهي دراسته الطبية، قد استحالت فجأة إلى مثل آخر من أمثلة هذا الكذب المألوف الميت.

ولكن هذا الحادث قد استوعبته في آخر الأمر تلك القدرة الغريبة في الروح على التشكل بالكذب وعلى ضمه للرصيد الجامد الذي نحمله في أنفسنا مع السنين ونعيش به وكأنه ترسبات حجرية تتراكم وتمتد صلدة صماء وإن كانت ناعمة ملساء لا تجرح.

Twitter: @ketab_n

كنت قد استطعت أن أستأنس المصيبة، وكانت الأعوام التي مرت ـ وإن كانت مجرد ثلاثة أعوام ـ قد علمتنا، أنا وزوجتي، كيف نتجنب ذكر الحادث، ولكنها في الوقت نفسه قد مدت في أنفسنا تلك المسافات الشاسعة التي تتطلب الوحدة، وتجعلها أمرًا طبيعيًّا لا يحتاج حتى إلى تفاصيل لشرحه أو تبريره. كنا قد وصلنا إلى حد أن نتجنب النظر عينًا لعين أو أن يديم أحدنا النظر في وجه الآخر خشية أن ينفجر شيء أو أن نفسد هذه السكينة التي وصلنا إليها. والغريب أنني عندما كنت أنظر إلى شكل روحي بعد السنوات التي مرت على الحادث، وعلى المجاهدة لإخفائه والعيش معه، كنت أجد هذا الشكل مطابقًا لما حدث للروح من سنوات العمل في الوزارة. ولست أدري هل هي طبيعة روحي التي جعلت هذا التشكل بالكذب المألوف الميت هو الطابع العام لنفسي كما أعرفها، أم أن هناك في العمل، وفي البيت، تطابقًا يفرض هذه الوحدة في السلوك ورد الفعل.

لم يكن إذن أمامي هناك فيما أرى إلا أن أمسك كالصقر، وإن سقط على ضحية ميتة، بما حدثتني به زوجتي ذلك المساء وهي تحكي عن العرض المقدم إليها للسفر إلى الجزائر للتدريس والعمل. أحسست ساعتها أن فلوات الجليد يمكن أن تمتد بلا حاجز ولا حركة تفسدها، وأحسست أن من الممكن لي فجأة أن أصبح دبًّا أبيض كبيرًا يطرق هذا الجليد وحده حاملًا في عينيه، وفي خطوه البطيء الثقيل، كل نعومة الوحدة وراحتها وكل احتمالات اللقاء غير المنظور مع الله أو الموت.

Twitter: @ketab_n

ولم أكن أفهم بوضوح كيف يمكن أن يؤدي الكذب، وأن تؤدي الرغبة الخفية غير المعلنة في التخلص منها، إلى كل هذه الراحة التي تصورت أني سأجدها عندما أصبح وحدي ولا أضطر للحياة مع هذا العنصر الحجري الكاذب إلا في العمل فقط.

وعندما استطعت أن أقنعها في هدوء وأستاذية، ودون أي احتمال لوجيعة أو دموع، بأن السفر فكرة عاقلة عملية وأننا ـ وقد جرؤت على ذكر الحادث ـ نستحق هذا التغيير، عندما توصلت إلى أنها بدأت ترى فكرة السفر غير غريبة أو شاذة أو قاسية، عندما وجدتها تصمت مقتنعة، أحسست أنني قد حصلت على شيء كبير أو أنني عدت إلى نقطة للبداية كنت أبحث عنها باستمرار.

قالت لي وهي تريد أن تفسد محاولتي:

ـ هل ستتعذب بمفردك؟

فقلت لها بسرعة، وأنا أخشى على محاولتي:

ـ سأفتقدك ولكنني لن أتعذب.

وإذا بها تسترد فجأة كل أنوثتها وتتحرك كالنمرة التي تحمي أولادها وتكاد تبكي وهي تقول:

ـ ولكنني أنا... سأتعذب.

وأحسست أن روحي تميل إليها وتحن، وأن قسوتي التي حصلت عليها بوضوح وحسم مهدَّدة بأن تتلاشى وأنا أستعد لأن آخذها في يدي وأن أقبِّلها.

ولكنني قمت فجأة وأدرت لها ظهري وأنا أسير لأضع كتاب الدب الأبيض في مكانه على الرف في المكتبة وأصمت.

Twitter: @ketab_n

وعندما انضمت زوجتي بجسدها وبذكرياتها إلى مفازات الجليد، وأصبحت وحدي تمامًا، اشتعل فجأة هذا النور الغريب الذي دفعني إلى كل هذه الكتابة والوقفة أمام الاسم. وما أوسع الصمت وأطول التساؤل أمام الاسم الثابت المكون من عنصرين، وقد أصبح، في المفازة، نورًا ونقطة بداية لا يتجاوزها حتى الفن.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ترتيب الغرف

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لم أكن أتصور أن حياتي.. أقصد نفسي، ستتغير كل هذا التغيير بعد أن قتلته. ليس هناك حقًّا حياة بعد ذلك، ولكن هناك تلك اللحظات والأيام قبل الإعدام الذي أنتظره.. إنها ملء الحياة، وأيام لا مثيل لها، ولم أعرف من قبل شيئًا يقاربها أبدًا. ولا بد أن يمتلك كل إنسان مثل هذه الأيام ولو مرة واحدة في حياته.. حتى لو كانت قبل إعدامه.

لا بد أن يملك الإنسان هذا الحق في الحديث الشخصي ولو لبضعة أيام، بعدها يصل إلى راحة أخيرة لا تنتهي.

على أبواب الموت، ومع كل هذه الإجراءات والحنان المفاجئ الذي يحيط بي في سجن القناطر، أحس بسعادة غامرة، ولون من النور الأبيض يملأ نفسي ويجعلني أرى في وضوح.. لا.. أنا لا أرى، ولكني أحس أن الأشياء والحقائق تترتب كلها في داخلي كما تترتب غرفة نظيفة مريحة.. أحس أخيرًا وأنا أقترب من الموت ـ الذي أصبح وقوعه مسألة أيام ـ أن حياتي فجأة قد أصبحت مفهومة مرتبة، كل

Twitter: @ketab_n

شيء فيها له بداية ونهاية، وكل شيء فيها واضح وضوحًا كاملًا كأنني كنت أقصده.. وأقصده كما حدث وكما هو بالضبط.

لست أعيش في ذكريات، ولكن هذه الغرفة الضيقة التي أنتظر فيها الموت هي كل الحياة وكل الزمن وكل ما جرى.. لم تعد هناك محاولات ناقصة أو أسئلة ماكرة، أو لف ودوران على القروش وعلى عواطف الناس، ولم تعد هناك إجابات لم تكتمل أو أمانٍ لم تتحقق أو حتى رغبة في الجسد تريد أن تهدأ أو أن تنتهي.. لقد انتهى كل شيء، أو في الحقيقة أصبح كل شيء شيئًا.

لقد أعطوني هذا الورق وقلمًا لأكتب، فما أكرمهم في هذا السجن وما أطيب قلوبهم.

كنت قد بدأت أحس بالسمنة تُداخل جسدي وتبدو في أعلى فخذي وعلى بطني وعلى جانبي الثديين. كانت هذه السمنة ملحوظة محسوسة لي دون مرآة. وكنت أحس أنها ظلال تمتد من الموت القادم وأنها ـ كما سمعت كثيرًا ـ أمر طبيعي يصاحب الأيام الأخيرة للمحكوم عليهم بالإعدام. ولست أدري لمَ تملكتني تلك الرغبة الدافقة الصعبة التي تؤلمني وتوجعني كأنها دماء الطمث، لأمسك هذا الورق والقلم ولأكتب ولأظل أكتب، حتى يحين موعد الموت وتمتد الظلال كلها، ويصبح هذا النور الكبير الواسع الذي لا نهاية له ظلمة أخيرة يقع تحتها كل شيء.. نعم.. كل شيء.. حوادث حياتي كلها منذ أيام أن ولدت هنا في القناطر إلى أن عدت لسجن النساء في القناطر.. نعم، كل شيء.. أبي الشاويش عبد العظيم الذي مات قبل أن أنتهي من سنواتي في الفنون الطرزية، وبيت خالتي في شبرا،

Twitter: @ketab_n

الذي ضمني سنوات طويلة وأنا أدرس وأتعلم الخياطة في بيتها وفي المدرسة، في باب اللوق، وكل الزمن.. والعمل كله بعد ذلك.

إن عليَّ أن أحترس من الأشياء؛ فهي موجعة تجرح وهي تهبط من القلم. وبودي أن أدعها تسقط وتقع كما تقع الظلال في البئر.. أو ربما مثل أطفال السقط الميتة.

إنني أتحرك بهدوء وفي سكينة باردة وكأنني قطة وأريد أن أخرج من هذا الإعداد الطويل لتحقيق رغبتي في الكتابة حتى وإن استخدمت السحر والبخور.. وأين أجده الآن؟ وحتى لو ظللت أبدأ، مع كل دقيقة من نيتي ومن رغبتي، ومن تلك الوحدة القصيرة الطويلة، التي أنتظر ولا أنتظر فيها.

لقد رفضت أن أقابل أمي.. ورفضت وأنا أسمع صوت اثنتين من زبائني، كانتا عزيزتين عليَّ، أن أخرج للقائهما. لقد رفضت أن آكل وإن ظللت أمسُّ الأكل وأضعه في فمي وقد أبتلعه، وأنا لا أدري، وكأنني أفكر لا آكل.

إن شيئًا أهم من الصدق وقول الحق يحركني إلى أن تصبح رغبتي وكل حياتي الباقية هي تلك الكلمات. لقد ظللت أقول الحق والصدق أثناء المحاكمة وأنا أخفي مع ذلك كل شيء وأنا لا أقول شيئًا.. وأريد الآن أن أتجاوز هذا بأن أجعل كل ما حدث يحدث، يوجد وأتركه أشياء في غرفة مرتبة.. مغلقة أو سقطت عليها الظلمة.

أحيانًا تنطلق في رأسي كما ينطلق الأرنب الأبيض صورة القناة الصغيرة في القناطر التي كنت أسير عليها وأنا طفلة وأذكر فجأة كل شيء، وكأنما ثبته نور الشمس بالدبابيس. الخضرة والهواء، وأحيانًا

Twitter: @ketab_n

عطر الفول أو رائحة البرتقال والنارنج. وفي لحظة يخطر أبي في رأسي بخطوه الواثق الثقيل وهو في حلته السوداء الكثيفة عائدًا إلى البيت يحمل لحمة مذبوحة على الجسر وأحيانًا فراخًا أو بطة حية مربوطة الرجلين مدلاة العنق.

وفجأة.. تذهب الصورة والذكرى وكأنها لقمة قد ابتلعتها دون أن أدري.

وأصمت وأتحسس بيدي جسدي وقد علاه العرق الجامد الجاف وإن لم يُفقد بشرتي نعومتها وبياضها الطري.. وعندما أستعيد بأصابعي راحتي وشيئًا من رضائي عن بدني، أحس أن المشكلة كلها هي أنني امرأة وأن حقي في الحب وفي العمل هو شيء غير مضاف إليَّ. شيء ليس في بدني. وأن عليَّ أن أحارب من أجله وأن عليَّ أيضًا أن أقتل.. وإن كنت لم أجد أحدًا يقبل ما حدث.

هل كان عليَّ فعلًا أن أفعل ما فعلت، أن أقتله.. أن أتركه هكذا عاريًا يتفجر منه الدم وقد غاص المقص الكبير في صدره؟ لقد كان أول ما تفجر في رأسي ـ بعد أن سكتَ ولم يتحرك إلا بأن يترك الدم يسيل على الأرض حتى قدميَّ وأنا واقفة ـ أنني قد أصبحت فجأة شوهاء عجوزًا كأمنا الغولة أقف بمفردي على بئر.. ولم يتفجر شيء على الإطلاق في صمتي الكامل إلا تصوري لنفسي وقد ارتديت ثوبًا أسود لأنني قد أصبحت أرملة.

إنني لم أرتدِ هذا الثوب أبدًا.. لقد مات أبي وأنا صغيرة وما زالت أمي في منزلي في باب اللوق وأخي ممدوح الفاسد يواصل حياته الفاسدة في السجن.. وأنا أرملة.. لم ألبس فستانًا أسود.. لماذا يفجر

Twitter: @ketab_n

هذا الشعور الدموع من جديد؟ لماذا تتساقط هكذا سريعة لتنفتح البئر من جديد في نفسي؟ ولماذا لا أستطيع أن أمسكها حتى لأرى ماذا أكتب؟

* * *

هناك فجر في الخارج وأصوات عصافير وبعض شتائم بذيئة وسعال وحركات مسموعة وكلمات من النساء تعودتها وعرفتها وهن يذهبن إلى المرحاض.. هناك خارج غرفتي حركة وحياة وأنا أقوم إلى الورق وكأنما أريد أن أتنفس وأن أسمح لقلبي أن ينبض وأن يدق مع الكلمات.

ليس في الحياة مثل تحرككِ إلى قرارٍ يجعلك تبدئين صفحة جديدة من حياتك.. إنك تصبرين وترددين وتتجمع لك الجرأة أحيانًا. إنك تعيشين بالظروف وبالمعارف، وتحاولين. ثم تهدئين وتنسين وتعودين كما أنت وتسكتين. ويطلع اليوم ويليه اليوم التالي. ثم تجدين نفسك تغضبين وتتشاجرين وتحسين أن أقاربك وأهلك يسرقونك. فيبدأ جهدك من جديد للوصول إلى قرار تبدئين به صفحة جديدة في حياتك.. وأنا لست أدري لماذا أحدِّث النساء وأنا أريد أن أحدث الناس جميعًا.. هل ليس من حق المرأة أن تصل إلى قرار، أن تقلب بإرادتها صفحة جديدة في حياتها، أم عليها أن تظل دائمًا مأخوذة تتناولها الأيدي وترفعها وتضعها كما تريد وكما تشاء؟ لقد ظلت أمي تتحكم فيَّ، وخالتي، وزوجها، وأولادها، وأخي، وكل أحد آخر.

منذ مات أبي وأنا عند خالتي حتى أكملت سنوات الطرزية، وفي المدرسة وفي البيت كنت أعمل دائمًا لهم. أذاكر لهم. وأعرف ما

Twitter: @ketab_n

يلقنونه لنا في المدرسة، لهم. وعندما أعود، أعمل لهم في فساتين الزبونات، كما أطبخ وأغسل وأنتزع القروش لتأخذها أمي أو أخي. إنني أذكر نفسي في المدرسة وقد أعددت شعري ووضعت عطرًا وبودرة خفيفة. وأرى نفسي في الشارع وفي الترام والأتوبيس بين باب اللوق وشبرا وأرى فخذيَّ وقد تعرتا أمام الطشت في الحمام وأنا أغسل وأنفي سائل من البرد وقدميَّ قد وضح فيهما التشقق واختلط جفافهما ببقايا مانيكير في الأصابع.. كنت دائمًا أكثر من واحدة، وكل واحدة لا أملك فيها شيئًا، ولا أكاد أفرقها إلا من المرآة.. لقد ظللت مدفوعة أعمل وأعمل دون أن أجرؤ لحظة على أن أتخذ قرارًا لنفسي إلا أن آكل أو أنام.. وحتى في هذا كانوا يرقبونني وكأنما آخذ شيئًا لا أستحقه.

هل كل البنات والنساء كذلك؟ لقد عرفت الكثيرات والكثيرات جدًّا، عرفتهن جيدًا وعن قرب. سمعت الحكايات والقصص وشهدت أنواعًا من حزنهن وفرحهن، وهذا الدلع الذي تعيشه المرأة وهي سعيدة أو وهي تفترس الرجل. عرفت التضحية التي يقمن بها للأولاد وللآباء وللأزواج. الرعاية للمريض والفلوس للمحتاج والخضوع للرغبة ثم البكاء والبكاء الطويل، وألوان الحيل والأكاذيب التي تصنعها النساء ليخدعن الرجل ليخدمن رجلًا آخر أو ليرضين عشيقًا قاسيًا أو ابنًا لا يرحم. هذا الموكب الطويل من البنات والنساء عرفته وقلبته بيدي وأنا أقيس أبدانهن وأغطي العيوب أو أراهن وهن يحاولن إظهار المفاتن.

كنت أسمعهن وأنا أنظر معهن في المرآة فلا أرى نفسي ولكني

Twitter: @ketab_n

أراهن، واحدة بعد الأخرى، وكل ما لهن من حياة، تتركز لحظات طويلة أو قصيرة في المرآة، ثم تذهب لتأتي امرأة أخرى أو بنت.. ولم يكن الفارق كبيرًا أو الواحدة منهن تفرق كثيرًا عن الأخريات.

ولست أدري هل توصلت إلى القرار في بيت خالتي وقد بلغت الثامنة والعشرين لأنني ظللت أراهنَّ هكذا، واحدة واحدة في المرآة، أم لأنني لم أرَ نفسي وأنا أنظر معهن إلى أبدانهن، أم لأنني ظللت أشتغل وأعمل من ساعات الفجر الأولى حتى آخر الليل كل يوم، دون أن أحقق شيئًا لنفسي، أو أجمع من الفلوس ما هو ملكي وحدي.

إن بدني القليل الصغير حي نشيط له مطالبه، ولكنهم كانوا يضعونني مع أمي وبنتين من بنات خالتي في غرفة واحدة في بيت شبرا الضيق، وكان علينا أن نترك فيه غرفة واسعة للعمل وللزبونات عندما يُحضرن الأقمشة والباترونات ويرتفع فيها صوت خالتي معهن وكأنما ليس في البيت أحد آخر، لا زوج ولا عيال ولا أمي.. أما أنا فمعظم وقتي في هذه الغرفة الواسعة.. أخدِّم على خالتي أو أعمل مستقلة وحيدة، بعد أن يذهبن جميعًا، على الماكينة أو بالإبرة في يدي والكستبان.. فإذا ما تساقطتُ من التعب وامتلأت ملابسي بقصاصات القماش ونتف الخيط وأحسست أن فمي قد التوى من طول النظر إلى خيط الإبرة وتتبع ضبطها ومسارها الدقيق، عدتُ إلى غرفة أمي وابنتَي خالتي لأحشر نفسي في السرير مرة مع أمي ومرة مع واحدة من البنتين.

لم يكن أحد منهم يتصور أنني أفكر أو أنني سأصل إلى قرار. كان زوج خالتي أحيانًا يتحدث عن زواجي وعن احتمالاته، وكأنما

Twitter: @ketab_n

يريد فقط أن يرضيني ما دام لا يستطيع أن يفعل ذلك بأي شيء آخر. أما أمي فلم يكن في رأسها إلا أن يصبح أخي رجلًا وأن يعمل قبل أن أفكر أنا في شيء مثل ما فكرت فيه، أو قبل أن أنفض يدي من القماش والخيط. وفي كل يوم وفي كل سنة لم يكن أخي يفعل شيئًا إلا أن يسقط في مدرسته الزراعية، وأن يجبرني على أن أسلمه من النقود أكثر مما يأخذ من أمي ليصرفها بعد ذلك على جنونه بالتصوير والكاميرات أو بتعلم البوكس أو على بنات ونساء كنت أراهنَّ أحيانًا أمامي في المرآة. ويمن عليَّ بعد ذلك بأنه يجلب لي زبائن.

كانت خبرتي قد فاقت بكثير خبرة خالتي وقدرتها، بعد سنوات المدرسة. وكنت قد أصبحت المفضلة عند الكثيرات لأقص الفستان ولأختار الباترون وأنواع الزراير والدانتيلا والأحزمة. وأصبحت خالتي خبيرة في تغطية عجزها والتمويه على تفضيل الزبونات لي بأنواع من الثناء تكيلها أمامهن عليَّ، دون أن تُشعرني إلا أنها تروِّج بضاعة.. لها.. وقد تدربتُ على المواجهة لهذه اللعبة المتكررة التي تقوم بها خالتي لسرقة جهدي وعملي، وتعلمتُ كيف أربط الزبونة بي، وكيف أجعلها لا تطمئن إلا إلى أحكامي وأعمالي، ثم أخيرًا كيف أحضر الحساب وأقبض الفلوس لأستخدم نفوذ الزبونة ووجودها لأنتزع من الحساب جانبًا لي.. كانت خالتي «تبرطم» كثيرًا بعد كل مرة وتحاول بعد ذلك أن تحاسب أمي أو أخي أو أن تحاسبني أنا في طلبات البيت الصغيرة على المبالغ التي أخذتها. ولكنني كنت دائمًا أسرع بها في الصباح التالي أو قبل الظهر إلى مكتب البريد لأضعها في دفتر التوفير الذي أحفظه دائمًا ـ تقريبًا ـ في صدري.

Twitter: @ketab_n

لم يكن القرار الذي اتخذته غريبًا أو جديدًا على أحد. كم من المرات صرخت وأنا غاضبة أنني «حاطفش»، وكم مرة قلت لأمي علينا أن نخرج من هنا وأن نفتح لنا بيتًا وحدنا. ولكن كانت هذه الكلمات تخرج دائمًا مع الغضب ومع البكاء ومع المعاندة للنفس والتعذيب لها دون أن تصل إلى شيء إلا إلى مزيد من التكرار للأيام ومزيد من الإحساس الدائم بالتربص لهم جميعًا يزداد ويقسو في داخلي. وقد يكون التكرار الممض المؤلم لما تريدين أن تغيريه والتربص المكبوت بمن يفرضونه هما أهم ما يدفعنا إلى القرار وإلى التنفيذ المفاجئ الذي يبلغ حد الخيانة.

إنني لا أستطيع أن أذكر الآن، وقد مر على قراري أكثر من عشر سنوات، كل التفاصيل التي تجمعت لي فجأة عن شقة ثلاث غرف وصالة في باب اللوق، كما تجمعت تلك الجنيهات التي لم تتجاوز المائتين في دفتر التوفير. كنا في بداية الخمسينيات، وكانت القاهرة لم تنفجر بعد عندما أخذتني معها زبونة كانت عزيزة عليَّ، وإن كان يبدو أن لها أطماعًا خاصة فيَّ لم أسمح لها أبدًا أن تُظهرها. وذهبنا إلى شارع فهمي قرب المحطة واستأجرت الشقة باسمي. ولكني ما زلت أذكر تلك الأيام السريعة المتعاقبة التي غيرت حياتي، وأنا أتسلل ساعات من شبرا لأعد غرفة للعمل في الشقة الجديدة، ولأشتري لها بعض ما لا غناء عنه من أدوات العمل والمطبخ، ثم ساعات العمل المتواصل في بيت شبرا، والنبأ الذي أذيعه سرًّا لزبونة بعد أخرى وأنا أفرغ من فساتينها أو من البالطو أو وأنا أصلح لها فستانًا قديمًا. والمرأة مع الفستان القديم تكون أكثر استعدادًا لأن تحكي أسرارها

Twitter: @ketab_n

وأن تسمع وأن تعدك بأشياء كثيرة، بل وتكون أكرم في المعونة إذا سألتها ذلك. وعندما استقرت لي مجموعة من المواعيد والوعود أصبح من الضروري أن أواجههم جميعًا بالخبر، وإن أحسست أنهم قد بدأوا يعرفونه ويحسونه في تحركاتي وغيباتي وطريقة تعاملي مع الزبونات.

إن عليَّ الآن أن أنتظر وأن أتوقف؛ فقد دخلت عليَّ الشاويش تحية تحمل لي مزيدًا من الورق والإبرة والخيط والمقص وستجلس معي وأنا أعمل في إصلاح فساتينها القديمة. وستحدثني وستنتظر مني أن أبكي ولكني أسمعها وأجد راحة كبيرة في أن أعمل لها كراحتي تمامًا وأنا أكتب.. وأصمت لتنداح في داخلي بئر الدم الراكد الأسود وأصمت.

Twitter: @ketab_n

قبَّلتني وانصرفت بعد أن بكت هي عندما تحدثت عن يوم الموت وخسارتها هي؛ لأنها أحبتني وستظل تذكرني. وامتلأت نفسي مرة أخرى بهذا الغرور والكبرياء الذي احتفظت به في داخلي، وجعلني دائمًا أحس أنني أفضل مما يراني الناس وأن معظم النساء حولي لا يفهمن كل ما أستطيعه وما أقدر عليه. كان حزنها وعطفها وأنا أعمل لها وهي تستغلني حتى في أيامي الأخيرة، باسم الحب والعطف والتصدق عليَّ بالورق، هو تصرف قد ألفتُه من الأقارب ومن الزبونات، بل.. وحتى منه.. هو.

وأنا أريد أن أرتب روحي وأن أجعلها لأول مرة واضحة تمامًا مؤكدة في كل تصرف، حتى في جريمتي الأخيرة. ولو أنني بكيت الآن، لو أنني انشغلت بهذا اليوم القادم للإعدام لأصبحَت كل تلك الأيام القليلة الباقية لحظة واحدة يعمى فيها البصر تمامًا عن كل شيء كلحظة وقوفي على البئر تمامًا أو لحظة الموت نفسه. وأنا أريد لمرة

Twitter: @ketab_n

أخيرة أن أصبح مرئية بكل ما فيَّ وأن يكون النور الساقط من الكلمات على الناس والأشياء وليس على عينيَّ وبصري.

كنت أتصور أنني قادرة على أن أتوصل إلى حريتي وإلى نفسي بما توصلت إليه من قرار. كنت أتصور أنني لم أجرؤ في حياتي قبل قراري أن أترك شبرا وأن أستقل في شقتي. إنني أبدأ حياة جديدة كلها ملكي وإنني بنفس القدرة التي أقص بها القماش قد صنعت من حياتي شكلًا جديدًا، وإن كل ما عليَّ بعد ذلك أن أزيِّنه وأحليه وأن أضم خيوطه التي قد تريد أن تنسلت بشريط تنظيف و«سير فيليه».

إن أحدًا منهم في شبرا لم يتحرك حركة عملية كاملة لتعطلني. كنت وحدي التي تحركت، أما هم جميعًا فقد توقفوا قليلًا وشتموني ثم غضبوا وحاولوا خصامي. ولم يمضِ أكثر من يومين حتى كانت أمي تسرق من أختها ما ستأخذه إلى بيتنا الجديد. وحتى بدأ أخي يحلم بأنه سيكون له غرفة مستقلة، بل حاول أن يسترضيني ويتعهد لي بأنه سينجح في العام القادم، وأنه لا بد سينتهي من دراسته ليصنع معي لنا حياة مريحة.. أما خالتي فقد استحالت إلى غولة خطرة وبدأت تمضغ سيرتي أمام الزبونات وتلقي عليَّ أوصافًا قاسية قبيحة وتردد أنني بنت فاجرة وناكرة للجميل، أما هن، فكن يضحكن في سرهن ويزددن قربًا مني وتصميمًا على أن ينتقلن معي بفساتينهن وصديقاتهن إلى باب اللوق.

لم أكن قد ذقت من قبل طعم القرار، أي قرار في حياتي. ولم أكن أعرف، بالفعل، أنني أستطيع أن أشكلها وأن أقصها على هواي

Twitter: @ketab_n

وحسبما أريد. وقد ظل هذا الطعم والشعور بالاستقلال والقدرة على ممارسة الإرادة سنوات طويلة. في كل يوم كنت أزداد معرفة بعملي وبأخلاق النساء وبأسرارهن، وفي كل يوم كانت شقتي تستكمل أدوات العمل والراحة. ومع كل يوم كان حسابي في دفتر التوفير يزداد. ولم أكن أكبر فقط، ولكنني كنت أزداد تملكًا لنفسي وإحساسًا بأنني صاحبة القدرة على الرفض والقبول، وأن على أمي وأخي أن يستأذنا، وأن يعملا حسابًا لما سأقوله أو سأراه.

كان العمل يملأ حياتي من الصباح إلى آخر الليل. وكنت قد تركت لأمي تمامًا المطبخ والغسيل وحرصت على أن أتزين طوال النهار للعمل وكأنني أستعد للخروج إلى الشارع أو... لا، لم يكن هناك رجل في حياتي إلا أخي. كان يعاكسني أحيانًا ويطري فساتيني وزينتي ويقبِّلني بحرارة على خدي وفمي وهو يريد أن يأخذ مزيدًا من النقود. وكنت أعرف وأسعد أحيانًا وأعطيه، وكنت أحيانًا أخرى أعرف وأغضب وأصر على أن أمنع عنه ما يريد من مال.

لقد انقطعت عني خالتي تمامًا وأولادها وزوجها. كلهم سقطوا في بئر غريبة من الصمت والبعد صنعها قراري دون قصد واضح أو إرادة. لم أكن أريدهم فعلًا أن يتغيروا أو أن يتركونا، ولكنهم لم يكونوا وحدهم الشيء الذي تغير. لقد سكن في نفس أمي شيء، وأصبحَت أكثر هدوءًا وصمتًا مما كانت وهي تستعيد شيئًا فشيئًا طريقة معاملتها لأبي وتعاملني بنفس المعاملة والصوت والرضاء، وتنتحي جانبًا في مناقشة خفية لا أسمعها ولا أعرف موضوعها، مع أخي، تمامًا كما كانت تحدثني في الخفاء في بيت شبرا. أما ممدوح، أخي، فقد كان

Twitter: @ketab_n

يكبر فعلًا ويصبح رجلًا وسيمًا مليئًا تكتسب عضلات جسمه فتوة واستدارة من مواصلته للبوكس وممارسته المستمرة له. كان، في الصيف، يفتح باب غرفته فأراه في غرفة العمل. وكنت أرقبه وأنا أعمل وهو يتدرب ليلًا وقد أطفأ الأنوار إلا من نور ضئيل بعيد وأكثر من سيدة وفتاة عندي لا يستطعن أن يمنعن أنفسهن من مشاهدة ظل جسده وقد تعرى إلى نصفه. كان يضرب ظله على الحائط ويكيل ناحيته اللكمات. وكنت أكرر، لمن لا تعرف منهن، كلمة «شادو بوكسنج» التي علمها لي والتي سمعتها أيضًا من أكثر من فتاة وهي تلفت نظري أنها تراه وتهمس لي بالكلمة في لهجة العارف المتذوق لما يفعل. وقد تجرأت إحداهن مرة واقترحت، وهي تضحك وتعاكس الظل على الحائط وتقلده في المرآة، أن أضع هذا الاسم على يافطة مع اسمي على باب الشقة.

كان كل شيء يبدو في هذه الأيام البعيدة وكأنه كامل تمامًا. اسمي على الباب: سميحة عبد العظيم، وأمي في البيت في ثيابها السود تخدمني وتنظر إليَّ في قلق لا يزعجني، وأخي الفاسد لا تضايقني كثيرًا تصرفاته ومطالبه.

كان العمل قد بدأ يتزايد على قدراتي وبدأت أفكر في الاستعانة بفتيات صغيرات لمعاونتي. وبدأ أخي يحاول أن ينظم علاقته معي وأن يجعل من نفسه مفيدًا نافعًا بعد أن تكرر فشله في المدرسة الزراعية.

ولم يستطع أن يتخلى عن البوكس وعن الكاميرات وتصوير الفتيات. وبدأت أراه يقترح عليَّ أن يشتري لي قماشات من بيروت

Twitter: @ketab_n

والسعودية وليبيا. وبدأ فعلًا يحمل لي أنواعًا جميلة ونادرة ويقترح أن نعرضها ونبيعها في الشقة للزبونات الكثيرات. وعلى الرغم من أنني ترددت أول الأمر فإن الزبونات أنفسهن دفعنني إلى القبول وهن يتصايحن حول الأقمشة التي يعرضها عليهن ويتسارعن للاستعداد لشرائها وتقديم النقود له. ولست أدري هل كان هذا قرارًا جديدًا في حياتي أم كان عثرة كبيرة سقطت فيها دون أن أدري. إننا لا نستطيع أن نعلم متى تنفتح فعلًا الأبواب ويمتد أمامنا الطريق، ومتى يكون الذي ينفتح هو بئر وغصة في الروح.

لقد نظَّمت معه مسألة القماش المستورد دون أن أعرف تمامًا من أين يأتي به أو كيف يأتي به؛ فهو يقول إن أصدقاءه كثيرون في النادي وفي محل التصوير الذي يعمل فيه كلما طالت غيبته عن المدرسة أو قرر وأعلن لنا أنه لن يعود إليها. وعلى الرغم من أنني كنت أعرف أن صديقه صاحب محل التصوير هو فهمي عبد الحميد فإنني لم أكن رأيته ولم أكن أتصور أو أعرف أن طريق القماش المستورد سيقودني يومًا ما إلى الجريمة والقتل.

إن دموعًا ثقيلة تتجمع في عينيَّ، وفمي يتحرك بلا إرادة، وشفتاي ترتعشان رعشة لا أستطيع أن أتحكم فيها، وها أنا آكل وآكل من جديد دون أن أدري ماذا أفعل.

ما أكبر هذا الفارق بين الرجل الذي تحبه المرأة ونفس الرجل عندما تقرر أن تقتله! إنني ـ في هذا الفجر الجديد في غرفتي بالسجن ـ أحس أن حل اللغز في حياتي وتحقيق هذا الوضوح الذي أريده قبل أن ينتهي كل شيء، يتوقفان على فهم هذا الفارق .

Twitter: @ketab_n

والإمساك به. إنني أُعمل فكري بقسوة وشدة لأنني أريد فعلًا أن أستريح وأن أفهم. قد يطول بي الأمر، وقد تسبقني الأيام واللحظات الباقية في السجن، وقد تُقدم عليَّ بين الحين والحين الشاويش تحية، فأتوقف، ولكنني ما دمت قادرة لا بد أن أواصل الكتابة وأن أواصل الفهم.

إنني أحس كأنني أبدأ من جديد تمامًا، وأن كل ما كتبته كان مجرد حلم لا أستطيع إلا أن أتذكره وأن أحسه مترسبًا في نفسي دون تحديد ووضوح. أما ما أريده فعلًا فهو هذا القادم الذي يدفعني إليه الإصرار وبقية الكبرياء ـ بل والغرور ـ اللذان أعرفهما في نفسي. ولكن هل من الكبرياء أن تغطي المرأة نفسها بالعقارب والثعابين؟ وهل من الكبرياء أن تقطع المرأة طريق الحب والخيانة مرة أخرى وأن تفعل ذلك وهي تتفحص نفسها في كل خطوة؟ ألم يكن من الأفضل أن يستحيل هذا الجزء من حياتي إلى حلم لا أذكره ولا أعرف خطوطه؟

ولكنني أذكر بالتفصيل كل شيء. أذكر كل معنى وكل خطوة وكل حالة من حالات نفسي منذ أن رأيته أول مرة حتى انتهى الطريق فجأة على جسده العاري إلى نصفه ومقص الخياطة الكبير في صدره والدم يملأ الدنيا سوادًا وفراغًا كفراغ البئر لا رائحة للحمرة أو الدم فيه. إن هذه اللحظة الأخيرة هي دائمًا ما أقاوم السقوط فيه عندما أتذكر بالتفصيل خطوات هذا الطريق.

عندما رأيته أول مرة كنت قد قررت أن أعيد تنظيم الشقة وطلاءها واستخدام قواطيع جديدة في الغرف تسمح بشيء من السعة لعرض الأقمشة وأدوات الزينة التي يحضرها أخي إلى جانب المساحة

Twitter: @ketab_n

الضرورية للعمل والبروفات والمانيكانات والمرآة الكبيرة والماكينة الجديدة التي اشتريتها مع كثرة العمل والطلبات. وكان الوقت صيفًا والساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وكنت قد جلست على الأرض في الصالة على مدخل البيت مباشرة والباب مفتوح، وحولي جرادل البويه وعلب الزيت وقواطيع صغيرة من الخشب وأنا أحاول أن أجمع ما تبعثر من القماش والأدوات وأن أزيل البقع التي تركها عمال الطلاء على الأرض. وكنت على ركبتي وذراعي وأنا شبه عارية، قد تحرر صدري من السوتيان وليس عليَّ إلا سليب أحمر صغير وكومبينيزون أبيض قصير. كنت أيضًا عارية القدمين محلولة الشعر، وكنت أنوي أن آخذ حمامًا بمجرد أن أفرغ من عمليات التنظيف. كنت مطمئنة أنني وحدي تمامًا وأن أحدًا لن يمر بالباب المفتوح في هذه الساعة المتأخرة من الليل وأخي قد تعود التأخير حتى ساعات الصباح الأولى.. بل قد لا يعود ما دام قد تأخر إلى هذا الحد. أما أمي فكانت في فراشها تسعل أحيانًا وتنادي عليَّ ولكنها لا تتحرك من الفراش بعد جهدها طوال النهار. كنت أعمل وحدي وقد عادت لي أحاسيس جلستي وحدي في حمام شبرا أغسل ملابس العائلة، ولكنني كنت أحس بما حققت من حرية وأنعم بما أنا فيه من عري أمام نفسي حتى وإن كنت مثل الغولة منكوشة الشعر أتصبب عرقًا ولزوجة. إنني أذكر بالتفصيل استغراقي في الحلم بنفسي والراحة إليها وأنا أزيل بقعة عصية من على الخشب، حتى إنني لم أسمع بحركة صعودهما هو وأخي على السلم ولا بوقفتهما المتسمرة على الباب، وهما يحملان لفات

Twitter: @ketab_n

من الورق من الواضح أنها لفات طعام. ولست أدري إذا كانت نظراتهما إلى جسدي العاري هي التي جعلتني أنتبه إلى رعشة تمر على ظهري وكأنها أنامل متلصصة أو أنهما قد تحركا فسقط ظلهما على الأرض أمام عيني، ولكني استدرت فجأة وإذا بي أمتلئ بغضب على أخي وكأنه غضب السنين كلها ولا أمسك نفسي عن أن آخذ فرشاة من الجردل وألقيها عليه لتصيبه وأنا أشتمه شتيمة لم أوجهها له من قبل. لم أنتصب واقفة، ولم يتحرك أخي بسرعة ولكنه كان هو الذي تحرك وهو يضمه بذراعه ويدفعه للخروج والاختفاء على السلم وهو يقول:

ـ آسفين خالص يا أفندم.

لم يستغرق الأمر كله ثواني، ولكن المكان الذي وقف فيه تلك الثواني ظل يحمل أثر جسمه وكأنما ينبض بوجوده الفارع الأنيق وأنا أرفع إليه عيني وأنا قاعدة على الأرض لا أملك أن أغطي إحساسي بأنني عارية.

ولم يمضِ نصف ساعة حتى كنت في غرفتي بعد الحمام عندما سمعت أخي يدير مفتاحه في الباب الذي أغلقته ويطرق على الباب ليدخل وهو ما زال غارقًا في البويه محاولًا أن يعتذر بلطف زائد أنه وصديقه قد فكرا أنني لم آكل طوال النهار لانشغالي وأنهما قد يجداني مستعدة للطعام بعد هذا النهار والعمل الطويل. لم يكن مثل هذا اللطف عاديًا من أخي أو مألوفًا، وكنت قد تمالكت نفسي وضحكت من منظره ولم أجد مبررًا أن أترك صديقه ينتظره على عتبة السلم، فقمت من فراشي لأعد لنا جميعًا مكانًا للطعام في

Twitter: @ketab_n

غرفة ممدوح وطلبت منه أن يدعوه وقد ارتديت ملابسي وتأنقت كأنني في الصباح.

إنني ما زِلت أذكر تلك الليلة وقد سهرنا نأكل ونتحدث حتى الرابعة صباحًا تقريبًا، فأنا لم أحب في تلك الليلة، ولكنني عرفت الكثير عنه وعرفت فيه قدرات غريبة تشع من عينيه ومن جسده كله، كتلك القدرات التي تركت أثرًا واضحًا لوجوده على الباب بعد أن هبط مسرعًا مع أخي. إنه لم يتحدث عن نفسه ولم أكد أعرف عنه تلك الليلة أكثر مما كنت أعرف عن اسمه وعن عمله. ولكنني وجدت نفسي أجيب عن استفساراته بحرية غريبة، هو يسألني عن العمل وعن طلباتي من إعداد الشقة ويتطوع بملاحظات سريعة نافذة لتحقيق ما أريد فتصدر منه الملاحظات والاقتراحات كأنها أوامر ناعمة لا يملك أحد أن يعصاها أو يعارضها.

كانت معرفته التفصيلية الدقيقة بأنواع الخشب والزيت، بل والخيط والقماش ومصادر الباترونات الجديدة، قد جعلت حديثنا كله عني وعن عملي، فلم يكن غريبًا أن أجد نفسي آخر الليل أكاد أطلب، وأنتظر، ثم أقبل وعده أن يأتي في الغد لمساعدتي. ومضت عشرة أيام وأنا لا أكاد أفترق عنه وهو معي في الشقة يشرف على العمل، وينزل للسوق ليشتري ما يحتاجه العمل دون أن يستأذنني أو أن أجد فرصة لخلاف معه على حساب للنقود أو حساب لطلباتي ولما أريد. كان فهمي صاحب قدرة غريبة لم أعرفها في أحد قبله، أن يناولك في يدك ما تريدين قبل أن تطلبيه وأن يسبقك حتى إلى معرفة طلبات جسمك. وعلى الرغم من أنني لم أنسَ

Twitter: @ketab_n

أبدًا أنه رآني أول ما رآني شبه عارية فإنه لم تصدر منه خلال تلك الأيام التي أعد لي فيها الشقة من جديد أية كلمة أو حركة موجهة إلى جسدي.

ما أغرب هذا الجسد وما كان فيه من فضيلة. لقد تعودت طوال حياتي أن أخاف وأن أشفق على نفسي من الرغبة احتراسًا من أن أفقد ما سأحصل عليه لو أطعتها. كنت أعرف أن فضيلتي جزء لا ينفصل من محاولتي الوصول إلى نفسي وإلى حرية التصرف فيها. ولم يكن غريبًا عليَّ هذا التقلب في الفراش من قلق البدن، ولكنني لم أعرف هذا الشعور بأنني ألاكم نفسي كما يفعل أخي في «الشادو بوكسنج»، إلا بعد أن انتهت الأيام العشرة واختفى عني وأطبق على اسمه، بيني وبين أخي، في اللحظات القصيرة التي نلتقي فيها، صمت مريب وتجنب.

لقد انفتحت تحت قدمي بئر غريبة في الشقة الجميلة الفريدة التي تركها لي وانصرف. بدأت أحس بالوحدة تتزايد حولي كلما استعملت شيئًا مما تركه أو نظرت إلى زينة صغيرة أو «فاز» وضعه على مائدة أو حتى أزحت الستار لأنزله خلف الزبونات في ركن البروفة الذي أعده. كان قد ترك أثرًا في كل شيء وفي كل موضع وفي كل ساعة من ساعات النهار، تمامًا كذلك الأثر الذي تركه على الباب المفتوح ساعة رأيته لأول مرة.

إنني أذكر الآن بجسمي كله تلك الأيام وكأنها ثياب محبوكة على بدني، وأرتعش مع ذلك الآن وكأنني عارية كما كنت أرتعش قبل أن يعرفه جسمي. وأذكر نفسي وأنا أتودد لأخي دون أن أكلمه خشية

Twitter: @ketab_n

أن ينفذ بعينيه إلى جسدي، فأرقبه أنا وقد امتلأت حدة وخشونة حتى مع الزبونات ومع أمي. ولم يعد يسعدني أو يسليني إلا أن أتلصص وحدي على أخي وقد تعرى نصفه وراح يضرب ظله في النور الخافت في الغرفة المجاورة. كانت الرغبة ـ كما هي الآن ـ قد أصبحت حاجة لا أستطيع أن أتملكها أو أسيطر عليها إلا بأن أتصور الألم والإيذاء لنفسي.

يا ربي.. لماذا يهبط الليل هكذا على المرأة وهي وحيدة مكبلة، لا تملك إلا أن تنتظر أن تمتد لها الأيدي بالأخذ والإيذاء؟!

Twitter: @ketab_n

كيف تحتفظين بتوازنك وأنت لا تعرفين العوم والأمواج تأتي واحدة بعد أخرى بلا توقف مطلقًا ولا هدوء لحظة؟ إن الفجر الذي يطلع الآن ليس لي فيه شيء. إنه رقيق أحمر شفاف وأنا روحي ممزقة كقطعة من القماش القديم «التايك» من فرط ما عانيت طوال الليل من رغبة كالموج المتلاحق لا أستطيع أن أوقفها. لقد بذلت من الجهد المتكرر ما يجعلني أريد أن أموت لأن النوم لم يعد يكفي للراحة. إنني أشتاقه وما زلت أحتاج إليه، حتى إنني لا أستطيع أن أكتب إلا لأتصوره قريبًا، يخطر في حياتي ويروح ويجيء كما فعل دون أن تقف في وجهه أي موانع ودون أن أستطيع أن أقيم أمامه أي دفاع عن نفسي أو عن جسمي.

لقد تزوجني بعد ثلاثة أشهر خاطفة أريد أن أستعيدها لحظة لحظة لأنها آخر ما عرفت من قوة ومن سعادة. ثلاثة أشهر كنت فيها أحاول أن أقاوم حبي له أو أن أتمسك بالفضيلة الكاملة وأنا أراه يتقدم بسرعة وبخطوات واثقة ليتملكني كلي ولأستسلم تمامًا ودفعة واحدة.

Twitter: @ketab_n

أرسل لي في أول هذه الشهور ورقة صغيرة فيها رسالة يحذرني من أخي ويطلب مني أن أوقفه عند حده في عمليات التهريب لأنها تشمل المخدرات وأنها ستؤدي إلى القبض عليه. وكم أتمنى الآن أن أكون في غرفتي لأستخرج الأوراق التي كتبتها في تلك الأيام ولأمد يدي إلى حيث هذه الورقة في مظروفها الأزرق لأرى خطه من جديد. إنني ما زلت لا أدري إلى الآن هل أرسل هذه الورقة لأنه يعرف ما كنت أمر به وكان يعرف أن رؤيتي له مرة أخرى ستضعني على بداية هذا الطريق الذي انتهى بسقوطي، أم كان صادقًا فعلًا في تحذيري من أخي. لم تمر ثلاثة أيام على تسلمي للورقة واعتزامي أن أذهب إليه في محله لأراه ولأحدثه بعد أن حدثت أمي، حتى كان أخي مقبوضًا عليه فعلًا. وعندما حدث ما حدث لم يكن هناك ما يدعوني أن أذهب لأنه كان هو الذي جاء.

فتحت له الباب وعلى فمي كلمات الاعتذار التي أعددتها لزبوناتي بأنني سأذهب إلى الإسكندرية أسبوعًا للراحة وأنني أستعد للسفر فعلًا. فلما رأيته كان من الصعب عليَّ تمامًا أن أمنع نفسي من السقوط في ذراعيه. وقفت مبهوتة ساكنة في عينيَّ دموع، ويده الممدودة لا تنتظر شيئًا لم تحصل عليه فعلًا. ودخل على أمي ليحدثها وفي خطواته ثقة غريبة بأنني وراءه وأنني كنت أنتظره.

وليس هناك مثل تذكر الأخطاء لاستعادة التوازن. وعندما تعرفين بالتفصيل كيف سقطتِ يضيع الدوار وتموت الرغبة التي تدفعك للموت. ولكن المرأة تبيع حياتها بفرحتها أن ترى رجلها يقوم عنها بالعمل الذي عليها أن تقوم به وبالمشاوير التي عليها أن تؤديها

Twitter: @ketab_n

وبالمقابلات مع الناس ومع المشاكل. وعندما استولى فهمي على ترتيب قضية أخي كما استولى على ترتيب شقتي كنت قد أصبحت ملكًا له فعلًا.

لقد استسلمت لشفتيه في أول قبلة تحت تمثال بوذا في الحديقة اليابانية بعد أن زرنا أخي في السجن الاحتياطي. ويوم ذهبنا إلى المحامي كنت أنتظره في الخارج وهو يتفق في الداخل ويتناقش، ثم عدنا إلى البيت لنتعشى واحتملنا فراش في ليلة لم تنته حتى طلع الصباح. إن رأسي الآن يغلي من جديد لكل ما فعلت ضد نفسي وضد كل الحياة الطويلة التي أقمتها في داخلي منذ تعلمت أن أتخذ قرارًا. إن تفاصيل الاستسلام ومتعته تزول الآن مني، ولا أستطيع أن أجد المتعة التي كنت أجدها في التذكر؛ لأنني أرى بوضوح ما فعلت.

كان يأكل كل ليلة جزءًا من قدرتي على العمل وعلى أن أريد أو أن أعمل بمفردي. كنت أنعكس على نفسي فلا أجد إلا صورته وكان جسدي مع كل يوم يمتلئ به يتعلم لذة جديدة في أن يتنازل عن جديد من حياتي ومن نفسي ومما يحيط بي من عمل وأشياء. ولم أعد أدري، في البئر التي سقطت فيها، هل أنا أصبح أكثر وأكثر امرأة، أم أنني في كل يوم أتآكل كما تآكلت أمي، وأتعرى من كل قدرة على أن أريد أو أن أعرف نفسي.

كانت قصة الإغواء التي مررت بها بسيطة، ولم تكن إلا كلامًا. في البداية حذرني من نفسه وقال إن حبي له يجب ألا يتجاوز حدود الصداقة. وعندما أحسست أن كلماته تدفعني إليه أكثر بدأ يمتدح قدرتي على العمل وعلى تحمل المسؤولية وعلى الاستقلال بالبيت

Twitter: @ketab_n

وتفردي بين من عرف من نساء يعملن. وعندما شعرت من كلماته أنني أزداد جمالًا وأن شيئًا في جسدي يتفتق، وأن شعري وصدري قد أصبح لهما وجود جديد، بدأ يحدثني عن تضحياتي الكثيرة لأخي ولأمي وعدم تفكيري في نفسي بالقدر الكافي. وعندما قلت له إنني لم أكن أعرف ماذا أعمل من دونه قبَّلني في الحديقة اليابانية وحملني إلى الفراش بعد ليلة المحامي. وعندما أصبح لا يغادر البيت بالنهار أو الليل تزوجني وبدأ يساعدني في العمل.

كيف سمحت له بذلك وأنا أعرف ما فعلته بخالتي؟ ما هذا السحر في الرجل الذي يدفعني إلى أن أهتم بأن أطبخ له وأن أرتب ملابسه وأن أعود لأغسلها بيدي؟ إن الحب، وهو يتكرر، كان كل ما آخذه، أما هو فكان يتقدم في حياتي ليعيد قصها على هواه.

في الأشهر التسعة الأولى لحملي بابننا تعلم كيف يقص الفستان وكيف يستعمل الإبرة والمقص وهو يقبِّلني ويبقيني راقدة إلى جواره. وفي الأشهر التالية للولادة ومرض ابننا ممدوح كان يعقد سحره مع الزبونات ويأخذ المقاس ويتحدث حديثه الدافئ المتباعد. وعندما أصبح قادرًا على أن يجعل المرأة تلبس الفستان الذي صنعه لها وتخرج من غرفة البروفة لتقف إلى جواره أمام المرآة كانت سيطرته قد اكتملت على البيت وعلى الفلوس وعلى أمي.

كان فهمي قادرًا على أن يفهم منابع الغيرة في نفسي وأن يتحكم في مفاتيحها قبل أن تنطلق، ولكنه لم يكن يعرف حدودها أو أن هذه الغيرة قد تكون من شيء آخر غير المرأة. وفي كل ليلة كان يحرز فيها نجاحًا في المرآة كنت أحصل على ليلة طويلة من الحب بعد أن يفرغ

Twitter: @ketab_n

طابور الزبونات، ولم تعرف شقتي من قبل مثل هذه الزحمة ولا هذا النجاح، ولم أعرف أنا من قبل مثل هذا الخضوع والطواعية أو مثل هذه الغيرة بأن أحدًا غيري يعمل.

كم قلت له ولأمي إنني لا أريد ممدوح آخر، ولكنهما أصرا على تسمية ابني باسم أخي. فلما مات بعد سنة من ولادته بدأت أفيق من الدوار وبدأت أعرف ماذا يعني أن تسقط المرأة حتى بعد أن تتزوج وتصبح أمًّا. إنها لا تكاد تستطيع أن تملك شيئًا من الماضي أو المستقبل. في الماضي البعيد كان أبي يقول لي: «إن الرصاصة إذا دخلت الصدر فقد يكون من الأفضل أن تستبقيها ولا تنزعيها». وعندما كبرت في بيت شبرا كانت أمي ترى أن مذلتي ضرورة لأن نعيش، وعندما تزوجت أصبحت شيئًا ثانويًّا في العمل الذي بنيته بكل ما فيَّ من عزم ومن إرادة على الوجود.. ولكني في السنة الثالثة قتلته.

هل أموت اليوم أم أقبل هذا الكرم المتهافت للأحياء، والشاويش تحية تطلب مني أن أنشغل ـ لأن هذا أفضل لي ـ بالفراغ من فساتينها وجلابيب أولادها؟

* * *

Twitter: @ketab_n

اليوم، آخر ما أملك في ترتيب الغرف. لقد تجاوز عقلي حدوده وأصبحتِ أقرب إلى شجرة جافة بلا غصون ولا سيال أخضر. إن دمه هو كل ما يملك عقلي ولا أستطيع أن أعرف كيف قتلته. إن هذا فوق التذكر وفوق القدرة المريرة على الرؤية. ومع ذلك فكل واحد يعرف الآن لماذا قتلته، إن القصة مكتوبة في محاضر وأقوال ولا معنى عندي لتكرارها. فهي ليست حبًّا وليست شيئًا خاصًّا بي. إنني لم أقتله في الفراش ولم أقتله في حضني. بل إنني لا أستطيع الآن حتى أن أذكر اسمها بالتحديد. كل ما أعرفه أنها جاءتنا زبونة وأنها تفتح الآن «بوتيك» في الزمالك وأنها زوجة صحفي مشهور، وأن شعرها أصفر وأنها مثل أخي تعمل في التهريب. لقد وقفت هي أمامه في المرآة فماذا رأى؟ نفسه، أم هي، أم أنا وأنا أقتله؟ لقد سار بإرادته إلى المرآة ووقف ونام بجانبها، وأنا سرت بقراري كي أزيحه عنها فلم أعد أرى فيها شيئًا.

كان العميق الغائر في نفسي هو القرار، أما كل حياتي وكل

Twitter: @ketab_n

ما حدث فقطع مكسورة من المرآة.. لقد حملت قضاتي على أن يفهموا وأن يحكموا أنني لم أختلف معه ولم أتشاجر. لم أثُر ولم أعارض ولم أغَر، ولكنني في تلك الليلة تشاجرت واختلفت وكان قراري أسبق.

في السنوات البعيدة في بيتنا في القناطر لم يكن في بيتنا مرآة إلا في دولاب أمي. وفي حجرتها بالليل كانت تجلس أمام المرآة لتحكي لي كي أنام ولتصعد إلى جانب أبي على الفراش. وأمام المرآة كانت أمي تحكي حكاية الغولة ونوعين من البنات: بنت تأتي راضية بالزيف فتأكل السمسم وتنزع القمل من رأس الغولة المنكوش الشعر لتخلع عليها الأم البشعة الجواهر والعقود الكثيرة، وبنت أخرى رديئة تأبى وتتجمد فتغطيها الغولة باللعنة وتلبسها من البئر العقارب والثعابين.

إن كل ما أذكره الآن من تلك الليلة أنه قال لي إن زواجنا كان خطأ، وإنه يريد أن يبني مستقبله بعد أن هدمته له، وبعد أن جعلته يتركه، وإن شقتي قد أصبحت تخنقه، وإنه يحب، وإن جسدي لم يعد يرضيه.. ولم يكن يقول شيئًا جديدًا. كنت أراه في كل يوم في المرآة.

كان الليل مطبقًا علينا وحدنا، وكانت أمي قد صعدت إلى فراشها الفارغ، وكان يريد أن يفتعل شجارًا لأنني أردت أن أعرف حساب الإيراد خلال الأسبوع. ولكن الوقت لم يحن بعد. قدمت له العشاء، لم يرضَ. ولم يكن الوقت قد حان. دعوته إلى النوم إلى فراشي فجاء

Twitter: @ketab_n

متأففًا وأراح نفسه في داخلي وأصبح جسدي كله قرارًا يطلب الوقت. وعندما تركني في الفراش بعد أن استراح أراد أن يعاود الشجار من جديد، ثم قرر أن ينام بمفرده نصف عارٍ أمام المرآة على الأرض في غرفة العمل.

ظللت ممددة على الفراش أضغط على أسناني صاحية أرقب في الظلمة من الباب الجانبي غرفة أخي. كانت فارغة لم نشغلها إلا بابني وقد مات.. وليس في قدرتي أن أشغل به فراشي. وتحرك أمامي هناك في غرفة أخي خيال كخياله وهو يلاكم نفسه، وكان قراري قد أصبح مجرد إرادة، إرادة لا أعرف لها فعلًا. قمت أتحرك لأفعل ما أردت وذهبت إلى غرفة العمل. فشتمني بشتيمة لم يوجهها لي من قبل وأصر على أن أتركه لأنه يريد أن ينام.

تركته وقد تغير جسدي كله ولم أعد أعرف أطرافي، وجلست على مقعد إلى جانبه صامتة تمامًا وأنا أرى جسده نصف العاري أمام المرآة، وأحس أنني شوهاء قبيحة عجوز كأمنا الغولة أو أنني مثل أمي ألبس السواد على أبي الذي مات من زمان. وعندما نام كان الوقت قد حان.

ماذا يدور في نفس أمنا الغولة وهي تقرقش العظم وتشرب الدم؟ ماذا تحمل في نفسها من البئر التي تخرج منها الجواهر والحلي والأساور وكل أحلام العرائس؟ ماذا ترى المرأة في المرآة وهي ترى رجلها نصف عارٍ قد نام ليحلم بشعر أصفر وحياة لا تملك منها شيئًا؟ ماذا فعلت إلا ما قلته في المحاضر وفي المحكمة؟

Twitter: @ketab_n

هذا الدم السائل طريق أصبح بئرًا، والمقص الكبير في صدره قرارًا وعودة.. إلى ماذا؟

ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟

يا بير.. يا بير.. لبسها عقارب وتعابين كتير.

Twitter: @ketab_n

«إنه في يوم الثلاثاء الموافق... من عام... توجهت اللجنة المشكلة من... إلى زنزانة السجينة سميحة عبد العظيم رقم ٣٣٣...».

ولم تكمل اللجنة تقريرها لأن الإبرة والمقص كانا في صدر سميحة، وقد انكفأت وتكومت على نفسها كالطفل أو الجنين الساقط.

وبدأ التحقيق من جديد مع الشاويش تحية ومع أوراق سميحة لكي تحاول أن تعرف لماذا يكون طريق المرأة هو طريق الخطيئة ولماذا يكون الطريق مرصوفًا بأعلى الفضائل والواجبات.

١٦ أكتوبر ١٩٧٥ ـ القاهرة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مقابلة صحفية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

برج الحمام

ليس في السماء خط ولا كتابة، ولكني أنظر إليها وأترك عينيَّ تتشبثان بقطع السحاب وكأنما أريد أن أقرأها أو كأنما أريد أن أستنزل من تجاور السحب ما أستطيع أن أضعه على الورق أمامي لأستريح وأطمئن. نعم، أنا أريد أن أطمئن، أن أهدأ، أن أعبر تلك اللحظات القاسية المريرة التي سحبت مني روحي وعمري وأنا أودع ابنتي الصغيرة مع زوجها الكبير وأقف مع مودعيهما الكثيرين، لا يكاد يهتم بي أحد ولا يكاد يعرفني أو يكلمني أحد. إنهم يعرفونني جميعًا ويعرفون أنها ابنتي، ولكن زواجها منه شيء أهم من أبوتي. بل هو الشيء الوحيد الذي وقفوا عنده واهتموا به وجاءوا من أجله يودعونهما.

إن الأشياء والأحداث تتحقق دائمًا وتوجد عندما نصطدم بها مباشرة أو عندما نقوم بفعل. ولكن شيئًا لا يحدث إلا الخيال والحلم عندما تنظر إلى السحاب وتحاول أن تقرأ ما لم يُكتب بعد.

Twitter: @ketab_n

إنني في الوقت الذي أحس فيه أن وجودي كله قد فرغ وأنه لم يعد لي شيء أعمله أو أحققه في الحياة. في نفس الوقت، أحس أنني لم أوجد بعد، وأن شيئًا قد يوجد وقد يمتلئ إذا ما ثابرت على الكتابة وصبرت كي أحيل ما أراه في السماء إلى كلمات بهذه الحروف العربية التي تتجمع أمامي وأنا أكتب في الغروب وكأنها نتف صغيرة من السحاب.

في مسرحية «هاملت» التي لم أقرأها إلا بالعربية ـ فأنا لا أقرأ بغيرها ـ في المسرحية الشهيرة حديث يسوقه البطل في سخرية وادعاء للجنون عما يراه في السحاب من حيوانات وأحداث، والوزير العجوز يحايله ويماشيه ليعرف مراده ودخيلة أمره. وأنا لا أدعي الجنون، ولكني أحس بضيعة العقل والتوتر للنفس وأنا أنظر في السحاب من موضعي هذا في كازينو «جليم»، أريد أن أجد كلمات أكتبها لتعبُر بي ما أحس به، فلا أرى في السحاب إلا صورة الابنة الصغيرة، لم تكد تتجاوز الثالثة والعشرين، وزوجها الذي بلغ الستين في نفس العام، يقفان معًا على سياج الباخرة التي تحملهما في شهر العسل إلى مدينة كوبنهاجن، على غير بعيد من مدينة «هاملت».

وكل أولئك الذين جاءوا إلى الميناء، يودعونهما، جاءوا له، حتى صديقات ابنتي الصغيرات، قدمن للفرجة عليه. وأنا وحدي جئت مرغمًا لأودعها، لأراها قبل أن تذهب. وكلي إحساس أنها ذهبت، ذهبت ولن تعود، ككل عمري الذي مضى، وككل ما كنت أكتنزه من معرفة ومن صلة بالعمل وبالحياة.

إنهم يقولون في الكتب ـ أي كتب؟ لا أدري، ولكن القول وراءه

Twitter: @ketab_n

فيما أحس هذا السند المكتوب ـ إن الكتابة عمل خلقي. وأنا لم أعد أعرف ما هو عمل خلقي وما هو عمل غير خلقي، كما أنني أحس أنه ليس هناك فارق كبير بين العمل الخلقي والعمل الديني. ولكنني ـ وهو ما أريد أن أسجله الآن ـ لم أستطع، ولم أعد أستطيع الآن، بأي نوع من أنواع العمل أن أستعيد ابنتي. ولم تعد أمامي إلا الكتابة كي أحتمل بها هذا الفقد أو على الأقل كي أفهمه.

إنهما ما يزالان أمامي الآن في السحاب كلما رفعت عينيَّ وثبتهما في قطعه الصغيرة التي تتغير باستمرار، وتذوب بعضها في البعض الآخر وتتلقى من الغروب ألوانًا فريدة ومتغايرة تضعها في داخلها وتذيبها بلا منطق ولا حساب. إنهما ما يزالان أمامي الآن على سور السفينة «كونكردياسن»، سفينة غير كبيرة تحمل البضائع في البحر الأبيض وتفرد عددًا لا يتجاوز اثنتي عشرة غرفة لركاب يصنعون الرحلة للراحة والفرجة والمتعة، فتقدم لهم ـ كما سمعت ـ كل مظاهر الراحة الأرستقراطية والصحبة المنتقاة الضيقة. كم أحسست بضآلة ملابسي وحذائي وأنا أراه إلى جانبها في قميص مشجر وجاكيت اسبور أحمر غامق وبنطلون من الصوف الثقيل الفريد اللون حتى لا أستطيع أن أسميه. كان يلوح بيديه وكل وجهه ابتسامة وشباب وشعره الأسود المصبوغ يلمع تحت شعاع الشمس كما تلمع في يديه الخواتم الذهبية ذات الفصوص النادرة. أما هي.. فإلى جانبه، قد أصبحت غريبة عليَّ تمامًا، إلا من ملامحها الحلوة وشعرها الأسود الطويل وقد ارتدت ثوب العرس الأبيض الطويل بعد أن خلعت طرحتها وإن لم تخلع التواليت الثقيل المصنوع على الخدين وعلى العينين.

Twitter: @ketab_n

إن صورتهما تظهر وتختفي في السحب، ولا أستطيع أن أمسك بها تمامًا فأنزل عينيَّ عنهما لأرقب الطيور البيضاء عند أطراف الكازينو تصعد وتحوم في الفضاء، مجموعة نادرة من معاني التفرد والوداع والغربة كتلك التي تسبح في داخلي. كانت الطيور البيضاء تتحرك في مجموعات صغيرة تدور فوق الماء وتذهب إلى الأفق البعيد ثم تعود قريبة كما كانت. وكنت أحاول بعيني أن أمسك بحركاتها كي أضم إلى روحي ما تمثله من معانٍ في الجو وما تخطه بطيرانها من كتابة.

للطيور البيضاء في أجنحتها الفسيحة الطويلة قطعة صغيرة في الطرف الأخير كأنها أُنملة أو كأنها عضلة صغيرة تحرِّك بها الهواء أو تستخدمها لتغمس بها أجنحتها فيه فتكتسب قوة وقدرة على الاتجاه والتوجيه. وللطيور البيضاء في أجنحتها قدرة على أن تغرز نفسها في بدن الطائر نفسه، فترتبط بهذا البدن الصغير ارتباطًا حادًّا وكأنها تصمم على أن تحمله وأن تتحرك به دون أي جهد منه. حركة الجناح هي عقل الطائر وروحه، وهي حركة كلها فعل مريد فاعل، يكاد أن يكون عارفًا أيضًا. وأنا أرقب المجموعة ينضم بعضها إلى البعض الآخر، ثم تفسح مساحات بين كل واحد منها، وتصعد إلى أعلى قليلًا، وتهبط دفعة واحدة أو تتقدم مندفعة تشق الهواء وكأنه ماء، وتذهب وكأنها لن تعود، وإذا بها تعود أو يعود غيرها في نفس مكانها وبنفس حركتها. إنني أسلم نفسي للطيور البيضاء كي لا أرفع عينيَّ إلى السماء، وأمتلئ بتلك الحركة المستمرة في الموج وفي صوته المتكرر، وأحس أن عزمي وإصراري على

Twitter: @ketab_n

الكتابة فيهما شيء من حركة الطيور البيضاء، ومن حركة الموج، وأن ما أطلبه من شفاء وراحة هو في هذه المدينة التي كانت آخر مكان شاهدت فيه ابنتي.

إن النفس تعرف كيف تتغلب على الفقد حتى قبل أن تحقق ذلك تمامًا. لقد كنت أعرف وأنا قادم إلى الإسكندرية أن عليَّ أن أقوم بفعل، أن عليَّ أن أكتب. لقد صاحبني اضطراب الضيعة والفقدان وقتًا طويلًا، وكان ما يتحرك في روحي هو شيء غريب لا أفهمه تمامًا، ولا أعرفه مقدمًا، ولكنني أعرف أنه يتجه لكي أسترد ما أضعت، ولكي أفهم ما أصبحت غير قادر على أن أفهمه. ولهذا حرصت أن أحمل معي في حقيبتي، وأنا قادم لأودعها، ما يكفيني من ملابس عدة أيام قد تطول أو تقصر. وحملت في حقيبتي مصادري وتسجيلات تجربتي دون أن أعرف تمامًا ماذا أريد أن أفعل بها. حملت أوراقًا كتبتها من قبل، وتسجيلات لأحاديثي معه، وكأنما أريد أن أحمل معي دائمًا أدلة لتبرئة نفسي أو للدفاع عنها، أو أن أحمل معي دائمًا ما أدينه وأدينها به؛ كي أبرر لنفسي أنني لم أقدم لها هدية زواج أو هدية سفر، وأنني لم أفعل إلا أن أقف مع كل الواقفين له على رصيف الميناء خجلًا، أكتم في نفسي كلمات لا أعرف ما هي، ولا أتحرك حتى لأرفع يدي ملوحًا.

وها أنا تتحرك في داخلي الكلمات المكتومة وتتضح شيئًا فشيئًا بعد ساعات من رحيلها. وها أنا أجلس إلى عزمي الذي كان غائمًا كقطع السحاب المتشكلة، وأراه يتجسد ويتحرك كما تتحرك الطيور البيضاء، أو كما يتحرك الموج المتلاحق. وها هي الصور المتشكلة في

Twitter: @ketab_n

السحاب تغيب تمامًا مع تسرب الليل وامتداده في السماء، وتختفي الطيور إلا من لحظات سريعة خاطفة تظهر فيها كأنها ثبج الموج، ولا يعود هناك إلا صوت البحر بأمواجه المتلاحقة تتعاقب في نفسي كأنها الكتابة التي أريدها وأتوجه لها وأنا أحمل نفسي إلى الفندق القريب لكي أواصل الفعل.

* * *

لست أدري تمامًا لماذا سماني أبي «نصر». إنني لم أعرف في حياتي نصرًا كبيرًا واحدًا، ولم يرتبط ميلادي بأي نصر كبير. لقد ولدت في نهاية الربع الأول من القرن، بعد أن انتهت ثورة ١٩١٩، أو على وجه التدقيق عام ١٩٢٥. إنني أصغر عنه الآن بعشر سنوات. وليس لي أن أتطلع في أي من السنوات المقبلة إلى إنجاز كبير، أو إلى أي عمل آخر قد يجعلني أعوض بعض ما لم أحققه، أو أن أكسب شيئًا يقربني منه ومن انتصاراته ومن أمجاده التي كان آخرها ذهابه بالأمس بابنتي عروسًا طيعة متنكرة لأبيها ولعائلتها ومع ذلك سعيدة مطمئنة.

اسمي الذي أستخدمه في الكتابة في عملي الصحفي هو نصر الشربيني. أما اسمي الكامل الطويل فهو نصر عطية محمود خليل الشربيني، وقد يكون النصر الذي تمثله أبي هو كسبه لقضية مع أعمامه وأولاد أعمامه حول عدد من الفدادين القليلة التي ما زلت أملكها إلى الآن في كفر سعد ـ شرقية، أو أن الاسم جاء من أمي التي ما زالت تعيش معي ومع عائلتي في بيتي، بشارع معروف، لأنني جئت ولدًا على عدد من البنات، وكان أبي يهددها بزواج جديد إن لم تنجب له من يرث الأرض ويفلحها.

Twitter: @ketab_n

وقد تكون الأرض هي مصدر هزائمي، إذا كان هناك حقًّا هزائم.
إنني أنظر إلى الحياة كلها من تلك اللحظة التي شاهدت فيها ابنتي وعريسها الغريب يقفان على المركب، استعدادًا للذهاب إلى حيث لا أعرف ولا أستطيع أن أعرف إلا على نحو غامض مبتسر. إنهما الآن صورة بعيدة ثابتة، وكأنما قد مضى على سفرهما عهد طويل، بعد هذا النوم الطويل الذي شملني ليلة أمس، وجعلني أستيقظ على هذا الإحساس بأن الماضي، الماضي البعيد، هو الطريق الذي عليَّ أن أقطعه مرة أخرى، على الرغم من أنني قد فقدت قدرتي على أن أتشبث بأي جزء منه. وما أقسى هذا الشعور بأنك لا تملك من المستقبل شيئًا، وأنك لا تريد أن تملك من الماضي شيئًا!

إنني لم أتعلم. أقصد لم أكمل تعليمي. لقد تركت الأرض، وأبي حي، إلى القاهرة لأنني لم أستطِع أن أرتبط بها وأن أقبل أن يصنع مني فلاحًا إلى جانبه. كنت منشغلًا دائمًا وأنا صغير بتربية الحمام الأبيض في الأبراج. ولا يكاد يكون في حياتي أسعد من هذه اللحظات القديمة التي كنت أقف فيها بجلبابي المخطط، وأنا صغير قصير، إلى جانب البرج العالي أرقب الحمام وهو يخرج ليطير في ضوء الشمس، وتختفي رؤوسه وأجنحته في الفضاء ولا يعود يظهر منه إلا الجناح الأبيض المتكرر الخافق وكأنما يدعونني لأن أذهب معه بعيدًا. وليس في طفولتي كلها، بكل ما أحاطتني به أمي من حب وإعزاز لشعري الأصفر الذي أصبح الآن أصلع تمامًا، ولبشرتي الحمراء التي تشبه بشرة الخواجات، وقد اسمرت تمامًا الآن ـ ليس في طفولتي كلها من ذكريات أحلى وأبقى من ذكريات تفحُّصي

Twitter: @ketab_n

للبرج وصعودي عليه بالسلم الخشبي وانشغالي الدائم بالبيض والحمائم الصغار، والتحايل على الثعابين والحيات والخفافيش والقطط لإخراجها بالنار الصغيرة والحريق المصنوع. لم أتعلم على المحراث ولا على النورج، ولم أحتمل السهر إلى جانب الساقية، ولم أفرح بخبيز أمي أو باللبن والعسل على العيش السخن. ولم يستطع أحد ـ لا أبي، ولا أمي، ولا أخواتي البنات ـ أن يجعلني أنتظم في الكُتَّاب حتى لأحفظ الأجزاء الخمسة الأولى من القرآن. لقد ذهبت الطيور البيضاء بروحي وهمِّي، وأصبحت لا أعرف غيرها مهما كثرت وتكاثرت وتعددت الأسماء التي كنت أعطيها لها، حتى إن كانت أسماء غير منطوقة أو معروفة، بل مجرد إشارات غامضة من التعرف عليها تومض في نفسي مع أجنحتها وتحركها في الهواء. كنت آكل عند البرج، وتوصلني أي مهمة أو مشوار أكلف بهما إليه، وأكاد أنام عند قاعدته الكبيرة لولا أن تسحبني أمي أو إحدى أخواتي سحبًا إلى البيت.

إن الدموع الخفية، التي كانت تتجمع في عينيَّ كلما أبعدوني عن برجي وعن طيوري البيضاء، ما زالت تتجمع إلى الآن وأنا أذكر بداية هذا الطريق الذي مضى بعيدًا عنها. لقد قرر أبي أن يرسل بي إلى الأزهر في القاهرة كي أتعلم ما أستطيع من القرآن والدين، وكي أعود إلى الأرض وإلى الفدادين الخمسة محترَمًا موقرًا أستطيع أن أديرها وأن أزرعها بغيري ما دمت لم أقبل أن أعيش عليها وأن أزرعها بيدي. ولكنني لم أعد، وعادت الأرض إلى أيدي أولاد عمي من الفلاحين، بعد أن مات أبي، وظلوا يرسلون لي جزءًا من الإيجار

Twitter: @ketab_n

وأجزاء من المحصول يأكل منها بيتي في شارع معروف. ولكن البرج ما زال هناك في كفر سعد، بداية لطريق تغطيه عن نظري الآن سنون كثيرة من الهزيمة، ولكنني أعرف ـ عن يقين ـ أنه الطريق الذي انتهى بي إلى تلك الطيور على البحر وهي تطير بأجنحتها القوية العارفة حول صورة ابنتي الذاهبة مع زوجها المنتصر عليَّ.

Twitter: @ketab_n

أي السنين تطير بها هذه الطيور البيضاء التي لا تكف عن الحركة أمامي وليس بيني وبينها إلا هذا الحاجز الخشبي الصغير في شرفة كازينو «جليم»؟ أوراقي أمامي يتساقط عليها ظل الأجنحة من شمس الخريف التي تظهر وتختفي في السحب كما تبزغ وتغيب ذكريات الطريق. على هذا الجناح وُلدَت انتصار في الأيام الأولى من ثورة ٢٣ يوليو، وكان عليَّ بكل ما أستطيع من فرح ومشاركة أن أسميها «انتصار»، ولكن هذا الذكر القوي يعود للخلف دفعة واحدة، ويجذب طيوره معه وكأنما يلوي عنقي إلى أيام الدرب الأحمر وغرفة الدراسة والمعيشة طوال سنوات الأزهر التي لم تتم. هذا النورس السمين البض، إنه أنثى، وعنقها المليء الأبيض ينتفخ وهي تصعد كأنها مركب ثمين يشق الماء. وفي الطريق من الضوء الباهت الذي تتركه على العين خلفها، تتقلب كل النساء اللاتي عرفتهن في الظلمة، حتى أم انتصار. لقد كبرت حميدة الآن في بيت معروف، بعد انتصار وجمال وحسنين وفاطمة، وبعد سنوات من

Twitter: @ketab_n

الخدمة لأمي العجوز التي انعقصت أصابعها وقدماها بالروماتيزم في الفراش.

إن الطيور تسقط كلها، دفعة واحدة، وتكاد تلمس بصدورها جميعًا ماء البحر فيسقط قلبي قبلها في داخلي، وأحس بحرج المكاتب في الصحف وأنا أسلم الأخبار التي أجمعها من الوزارات وأتلقى الأجر البسيط المتزايد المتقطع، حتى أستقر مع المراجعة والتحقيقات في يد الباشا جلاد. لقد تشكل مصيري وعقلي وتحدد طعامي ووضعي هناك. لماذا لم أتعلم كما تعلم هذا الطائر العجوز الذي اختطف انتصار؟ ولماذا لم أتخصص في أي موضوع حتى ولو في هذه الطيور البيضاء؟ لقد تسلمت في يوم من الأيام ميدالية ذهبية عن تحقيقاتي عن الكوليرا قبل الثورة، وفي يوم من الأيام وقف الضابط الكبير في بهو رئاسة الوزراء وأيدني وهو يقول:

ـ إلا نصر الشربيني، اسمه ليس في كشوف المصروفات السرية.

هل كان أبي يريد أن يعرف هذا التوقير المتباعد الذي أجده في النقابة من كل الأسماء الكبيرة في الصحافة اليوم؟ إنني أعرفهم جميعًا ويعرفونني منذ أيام جلاد و«ليتا» ونقولا الصراف، ولكنني لا أزرع أرضًا كما يزرعون ولا أعرف ما يعرفون من قيمة ونفوذ.

لماذا تتركني الطيور هكذا دفعة واحدة، ودفعة واحدة تمضي جميعًا إلى الأفق بعيدًا عن الكازينو وعني؟ ماذا حدث لها؟ وماذا حدث لي؟ ولماذا يحدث كل شيء هكذا دفعة واحدة؟ لماذا تسافر انتصار مرة واحدة وتختفي؟ ولماذا تأتيني المعرفة والحكمة والوعي بكل ما حدث، هكذا دفعة واحدة؟ لماذا لا تحس بالهزيمة على

Twitter: @ketab_n

دفعات ولكنك تدركها لأول مرة وكأنها لم تأتِ، ولكنها تذهب بك إلى مكان آخر؟ ولماذا تأتي المعرفة فلا تحس أنها زيادة أو درجات تصعدها، ولكنها تصبح فجأة أرضًا واسعة مفرودة مثل البحر ومثل السماء ومثل هذا الفراغ في داخلي؟

لقد ثرت وامتلأت غضبًا عليها وعلى أمها وعلى أخويها، جمال وحسنين، طلبت منهما ألا يذهبا للتدريب في مكتبه للأعمال الهندسية والإنشاءات. وقالت لي انتصار:

- إنك أنت الذي أخذتني إليه وأنت الذي طلبت منه أن يقبلني لأعمل سكرتيرة عنده.

قلت لها:

- كيف يمكن أن يحدث في سنة واحدة، سنة فقط، مثل هذا الاتفاق بينك وبينه على الزواج؟ كيف تقبلين على نفسك أن تتزوجي رجلًا في سن أبيك؟

وقلت هذا وأنا أعرف، وأضغط على نفسي كي لا أقول: «رجلًا أكبر من أبيك». ضحكت وابتسمت وحاولَتْ أن تقبِّلني فغضبتُ وبصقتُ في وجهها. وعندئذ صمتَت وخرجَت من الغرفة وكأن لديها عزمًا وإصرارًا فظيعًا، كأنما تريد أن ترد إهانتي.

ذهبتُ إليها في غرفتها التي تشغلها مع أختها الصغيرة فاطمة، وجلست إلى جوارها في الفراش. وأحسست بدموع غريبة تتساقط من عينيَّ، وأنني أريد، دون أن أستطيع، أن أخفي هذا الاختلاج والتشنج اللذين أحسهما في جسدي؛ لأنها ظلت صامتة لا تريد أن تنطق. وعندما شاهدت دموعي، ولم تكن تعرفها أبدًا، وقفت وبدت

Twitter: @ketab_n

جميلة طويلة في الغرفة التي أغلقتها علينا أمها. ودفعت بشعرها في كبرياء إلى الخلف واتجهت ناحية الباب المغلق وهي تقول لي:

ـ من الأفضل أن تقوم لتراه.

لم تكن تستطيع أن توجِّه إليَّ إهانة أوضح وأقصر من ذلك. لقد أحسست بالإهانة تشلني تمامًا وتغلي في داخلي كأنها بخار يريد أن ينفجر دون أن أستطيع له شيئًا. لم يكن من الممكن أن أقوم لأضربها أو لأمسك بها، وكان ذهابي إليه بالطبع أمرًا مستبعدًا تمامًا. لقد سمعتها تغلق باب الشقة الخارجي وتخرج، وأحسست أن إهانتي الداخلية قد أمسكتني بالفراش الجالس عليه، وأنها قد بدأت طريقًا لن أراها فيه، ولن أستطيع بعد ذلك أن أتابعها.

لقد مر على هذا الحادث أكثر من ثلاثة شهور لم أرَها فيها مرة واحدة، ولكنني تلقيت تذكرة الدعوة لقرانها في فندق فلسطين. وعلى الرغم من أن اسمي كان على الدعوة فإنني كنت قد قررت ألا أراها أو أحدثها، حتى صباح أمس، صباح يوم الزفاف الذي سافرت فيه.

Twitter: @ketab_n

لقد ران صمت ثقيل على بيتي في شارع معروف منذ أن خرجت. وفي كل يوم، من أيام الأشهر الثلاثة حتى سافرت، كنا جميعًا، أنا وزوجتي والأولاد وأمي، نتعثر في هذا الصمت وكأنه حبال خفية ممدودة في كل مكان بالبيت، نصطدم بها وفي أقدامنا وأيدينا. كنت أدخل البيت، فلا أحس أنني حملت الصمت أو فرضته، ولكنني أحس أنني أغرق وأنضم إلى تلك المجموعة الحائرة التائهة في البيت تبحث عن كلمة عزاء أو رضا أو حتى مجرد كلمة بلا معنى تكسر الصمت. لا شك أنهم كانوا يتكلمون جميعًا عن انتصار كثيرًا وأنا غير موجود؛ فجمال وحسنين يعملان في المكتب عنده ويريانه كل يوم. وهما ولا شك يحملان لأمهما أخبارها، وفي كل يوم لا بد أنها كانت تعرف جديدًا عنها. أين وضعها؟ أين جعلها تنتظر؟ متى يتزوجان؟ متى يسافران؟ كل هذه الأسئلة التي كانت تأكلني أكلًا وتنحت في روحي وفي كرامتي، كانت كلها مطروحة معروفة لديهم جميعًا، ولم يكن لديَّ أو لديهم قدرة على تبادل الأسئلة والأجوبة.

Twitter: @ketab_n

وأقصى ما استطاعت أمي أن تقوله لي، وهي تدعوني إلى فراشها الملازمة له:

ـ مش حاتشوف البت يا ابني؟

وكانت أمها أحيانًا تعدل صورة لها في غرفتي لتبدأ حديثًا، ثم تتوقف تمامًا بعد أن تديم النظر في الصورة ولا ترفع عينيها لي. أما الأولاد الثلاثة فقد تجنبوني تمامًا وكونوا اتفاقًا صامتًا على أن يقوموا بمجرد أن أجلس، أو أن يتدافعوا إلى حجَرهم إذا جلستُ على مائدة الطعام، أو جلست في الصالة على الكنب الإسلامبولي أشرب القهوة.

كان البيت قد أصبح مستحيلًا بهذه المعرفة التفصيلية التي أحسها لديهم جميعًا، وبهذا الجهل الكامل الذي أعيش فيه والذي فرضته على نفسي. وكان عليَّ أن أعرف لماذا حدث هذا.. هل هم يعرفون أيضًا ما أعرفه عنه؟ هل يعرفون كل علاقتنا معًا؟ إنني لم أتحدث عنه معهم، ولكنهم جميعًا يعرفون أنني أعرفه معرفة وثيقة، وأنه يعزني ويحبني، وأنه أراد، واستطاع، أن يجعلهم جميعًا يعملون عنده: جمال وحسنين ثم انتصار، وليس هناك ما يمنع من أن يجد لفاطمة عملًا خارج الحكومة بمجرد أن تنتهي من كلية الإعلام.

كان المؤلم في صمت البيت من حولي أنني أحس في صمتهم نوعًا من الرضا عن تصرف انتصار، ونوعًا من تحميلي للمسؤولية عما يغضبني. كنت أحس أنهم يقولون لي جميعًا في صمتهم: «لماذا أنت غاضب وأنت الذي فعلت هذا كله؟». ولكن كان ما يغضبني أكثر من اتهامهم لي هو رضاهم وصمتهم عن أي احتجاج، وكأن ما حدث لا يدعو لذلك، بل لقد قالت لي فاطمة مرة:

Twitter: @ketab_n

ـ إحنا حقنا نفرح لها.

وكدت أغضب نفس الغضبة التي غضبتها يوم خرجت انتصار من البيت، لولا أنها اختفت بسرعة عن ناظريَّ وأنها قالت كلمتها في براءة وبساطة لم أستطع أن أقاومهما. وفي يوم من الأيام، بعد حوالي عشرة أيام فيما أتذكر من اختفاء انتصار، كدت أصفع حميدة وأمسكت يدي وأنا أعض شفتي وهي تقول:

ـ انتصار جالها خاتم سوليتير بالشيء الفلاني.

وفي نهاية الأشهر الثلاثة، جاءت دعوة القران. وضعها أحد الأولاد على مكتبي، وفتحتها وقرأت اسمه، «كمال مجدي»، واسمي، «نصر الشربيني»، على البطاقة العريضة الأرستقراطية... «على كريمة الثاني»... وقد ترددت يومها وأنا وحدي أمام مكتبي، هل أصمت ولا أتبادل مع أحد حديثًا عن موعد الفرح أو الدعوة، أم هل أجمعهم جميعًا وأقطعها أمامهم؟ ولكن الغضب وألمًا مفاجئًا في الصدر عند القلب جعلاني أدخل على أمي وأدعوهم جميعًا وأنا أطلب كوبًا من الماء، وبحركة مسرحية مضحكة قطعت الدعوة أمامهم إلى قطع صغيرة ونثرتها على الأرض. ومع معرفتي أن أحدًا منهم لم يشاركني الغضب، بل ولم يجد في نفسه قدرة على أن يشاركني الألم أو أن يقدم لي عطفًا أو حبًّا، تحجرت الدموع في عينيَّ وأنا أتذكر نفسي طفلًا أُجذب بالقوة بعيدًا عن برج الحمام، وطيوري البيضاء تطير بمفردها دون أن أتابعها أو أسميها. وعندما رفعت عينيَّ عن الأرض بعد أن تسرب الأولاد واحدًا وراء الآخر، ورأيت الدموع في عيني حميدة، أصبحت أكثر سيطرة على نفسي

Twitter: @ketab_n

وأنا أرفع صوتي معلنًا لهم أنني أمنع أن يذهب أحدهم أو أن يراها حتى أموت.

لقد تساقطت أكثر من فراشة على النور الذي أكتب عليه في الغرفة الصامتة في الفندق. ومع كل هذه الأوراق، ما زلت لم أصل إلى ما جئت من أجله هنا، إلى هذا الفعل الخلقي الذي أريده. وما زلت أستشعر الفقد دون أن أعرف سببه أو أن أعلنه لنفسي حتى يزول هذا الوجع المتزايد في الصدر الذي أحسه مع ليل الإسكندرية البارد.

Twitter: @ketab_n

٢

المواصلة

قررت في الصباح ألا أذهب لطيوري البيضاء على البحر، وأن أبقى في الفندق لأواصل الكتابة، وما اعتقدت بيني وبين نفسي أنه عمل عليَّ أن أؤديه. لقد استقر في نفسي من كل ما كتبت إلى الآن، ومن هذه الليلة القاسية في برد الإسكندرية، أن المواصلة هي البداية الحقيقية لأي شيء. قد تنتهي الحياة ويتوقف القلب، فإذا حدث ذلك لا تعرف أبدًا ما الذي انتهى مما بدأت، ولكنك تعرف على وجه اليقين أنك لا تستطيع أن تبدأ شيئًا. ولقد خُيل لي، وأنا نائم، أنني لو ذهبت إلى الطيور في الصباح فإنني سأتبدد على أجنحتها وأنها جميعًا ستذهب ومع كل منها جزء مني حتى لا يعود هناك شيء باقٍ. هل كان هذا حلمًا أم عزمًا جديدًا، أم هو في الحقيقة رغبة في الاعتراف والكشف أريح بها نفسي وأبعد عنها كل هذه الهالات التي لا تضيء، بل وتخفي فعلًا ما حدث ولا تمسك إلا بغضبي وشعوري بالضياع بعد خروج ابنتي وسفرها؟

Twitter: @ketab_n

إنني ما زلت غير قادر على أن أحكي ماذا حدث بيني وبين هذا الإنسان الغريب، كمال مجدي، خلال السنتين اللتين عرفته فيهما. ما زلت لا أستطيع أن أقول لنفسي إنني أحببته كما لم أحب أحدًا من قبل، وتعلمت منه كما لم أتعلم أبدًا في حياتي، وإن هناك قصة أخفيها وراء كل ما كتبت.

إنني ما زلت غير قادر على أن أقترب من المعنى الذي أريده. وما زلت في حاجة إلى المواصلة؛ فأن تتهم الآخر قد يقربك من الحقيقة، ولكن أليس هناك حقيقة قائمة مستقلة دون اتهام ودون آخر؟ إن عائلتي جميعها تتهمني بأنني غضبت دون داعٍ، وأن الذي حدث هو شيء كان علينا أن نفرح به؛ فالرجل مكسب كبير في الزواج، واسمه، وسمعته، عريضةٌ واسعة، وهو إلى جانب ذلك كله يحبني أنا ويعزني، وقد قربني ونفعني بما فيه الكفاية، ومد ظله على أولادي جميعًا. وهذا الاتهام الذي يوجهونه لي شيء لا أستطيع أن أرد عليه أو أن أنفيه. ولكنني أريد أن أتهمه هو؛ فهذا خلاصي.

أريد أن أتهمه بأنه جعلني أفقد الإيمان بكل قيمة إلا بما يضعه هو في الأشياء والمعاني من قيمة. أريد أن أتهمه أنه بعد أن مد تحت قدميَّ أرضًا ثابتة وجدت أنها لا تقودني إلا إلى هاوية عميقة أتخبط فيها دون أن أعرف نفسي ومَن أكون، ودون أن أكون قادرًا على أن أسيطر على شيء أو على أحد من عائلتي.

أريد أن أتهمه أنني أحببته، ولكن حبه علمني أنني لم أحب أبدًا من قبل. وأريد أن أتهمه أنه عندما خطف ابنتي وسار، فقد اعتمد ـ في لون من الخديعة القاتلة ـ على ما امتلكه من قبل مني، لقد أكلني

Twitter: @ketab_n

قبل أن يأكلها، وقد ابتلعني وأسقطني في الضيعة قبل أن يجعلني أعرفها على هذا النحو الذي أحسه الآن بعد أن سافرت انتصار معه، وتجمعت تلك الصور المجنونة في السحابات من حولها.

لماذا أريد أن أستمر في الاتهام بدلًا من أن أواصل الفعل؟ إنني أتوقف كثيرًا لأتهم، ولا أسلم نفسي للعزم الذي أريده. ولكنني أجد نفسي أتبدد وأقع فيما أخاف منه لو كانت هنا طيوري البيضاء.

لقد انتهت سجائري وتجمعت أعمدتها القصيرة في المنفضة أمامي وكأنها مقبرة مزدحمة بالشواهد، وأحس أنني في حاجة إلى كوب جديد من القهوة لأبعد عن نفسي صوته على قطعة من التسجيلات التي أحملها يقول لي:

- عن «هيجل»... عن «جوته» أنه قال: «على كل من يريد شيئًا عظيمًا أن يتعلم كيف يحدد نفسه».

وأنا لا أريد شيئًا عظيمًا ولكني أريد أن أحدد نفسي فلا أستطيع. فهل أتهمه لأن الحقيقة التي أبحث عنها هي حقيقتي أنا، وهي هذا الطريق الذي قطعته حتى عرفته وحتى فقدت انتصار؟

روحي تهرب إلى البحر وإلى ما يحدث بين الطيور هناك وما زلت عاجزًا أو خائفًا من المواصلة.

Twitter: @ketab_n

٣

الطيور البيضاء

لست أدري لماذا تصعب كتابة هذه القصة: هل لأنها قد أصابتني فعلًا، ومن الصعب بعد المصيبة أن تقص كيف حدثت لأنك ما زلت تحيا فيها، أو ما زالت حياتك ليست إلا امتدادًا لها، أم لأن ما حدث فعلًا يصعب قصه لأنه أحداث متفرقة لا تربطها صلة واحدة إلا تأثيرها في نفسي، أم أخيرًا لأن القصة هي أنني تأثرت بالرجل إلى أبعد حد ولم أستطع أن أسيطر على نفسي بعد ذلك وبعد أن فعل ما فعل؟

لقد تعرفت عليه بعد معارك أكتوبر التي ملأتنا كأُمة فخرًا وعزة، ولكنها جعلتنا كأفراد نعايش بوضوح وحِدَّة مشاكل إعادة البناء، وكثرة الصعوبات التي تواجهنا من كل جانب من جوانب الحياة، نتيجة لسنوات طويلة من الحرب والتخبط وعدم الوضوح في العمل الوطني. إنني بالطبع أحاول أن أربط قِصتي بموضوع عام حتى أجعلها أكثر يسرًا وقربًا وحتى أتمكن من حكايتها دون قسوة شديدة على نفسي.

Twitter: @ketab_n

كنا في الجريدة التي أعمل بها نبحث عن موضوعات جديدة نطرقها، تتلاءم مع مناخ الديمقراطية والانفتاح الذي نريد أن نصنعه. وكانت قصص الطيور المهاجرة من العلماء ورجال الأعمال تملأ الجو. وتكونت لدينا فكرة في الجريدة أن نبحث عن قصص النجاح في الداخل، وعن أولئك الذين بقوا واستطاعوا مع ذلك أن يكوِّنوا نجاحًا وأن يصنعوا تحقيقًا كبيرًا. ولست أريد بالطبع أن أتكلم عن الصحافة وكيف تصنع مثل هذه الموضوعات أو عن الصعوبات التي وجدناها في اختيار الموضوعات والأشخاص، ولكنني أعتقد أنه من المهم أن أقرر مع نفسي، كبداية للخط الذي أريد أن أتابعه، صعوبة التوصل إلى هذه الموضوعات؛ ذلك لأننا وجدنا أن معظم الشخصيات التي فكَرنا فيها أو تحادثنا معها كان وراء نجاحها قصص مشينة أو أعمال لا يصح أن تكون موضع افتخار أو أن تدخل في دائرة الإنجازات. فلم تكن قصص العلماء الكبار أو الكُتاب الكبار أو القواد العظام، خاصة أولئك الذين عملوا بالحياة العامة واتصلوا بها اتصالًا وثيقًا، إلا قصصًا مليئة بالتضحية والعذاب، يحكي أصحابها عن تضحياتهم وعن صعوبات الحياة في مجتمعنا أكثر مما يحكون عن إحساسهم بأنهم قد وصلوا إلى شيء أو حققوا أعمالًا كبيرة. وعندما وصلنا في بحثنا إلى العصاميين من رجال المال والجاه، بعد أن كتبنا عن تجار السمك وعن تجار الأعلاف ومربِّي الدجاج ولم نرضَ عنهم تمامًا، وصلنا، أو وصلت أنا، إلى التعرف على الأستاذ الكبير الدكتور كمال مجدي، الأستاذ غير المتفرغ الآن للعمارة في كلية الهندسة وتاريخ العمارة في كلية الفنون ورئيس

Twitter: @ketab_n

مجلس إدارة «شركة المنشآت العربية المتحدة» وأكثر من شركة أخرى جديدة للمقاولات والأعمال الهندسية، ثم هو أخيرًا عضو مجلس من مجالسنا القومية.

ولم تكن قصة حياته في خطوطها الخارجية خافية؛ فقد نشأ في عائلة تركية من أصحاب الأرض في الصعيد، ولكنه سافر إلى ألمانيا وتعلم هناك سنوات طويلة قبل الحرب، وقد اشتهر اسمه واسم شركته التي كونها في أوائل الأربعينيات باسم «الشركة المصرية للمباني الجديدة». ويبدو أنه ظل بعيدًا عن السياسة وعن الأحزاب، فلم تمسه كثيرًا الإجراءات الاستثنائية للثورة إلا في أرض عائلته في الصعيد واستطاع أن يركز أعماله في شراء الأراضي وبناء العمارات وبيوت الأثرياء، إلى جانب عمله العلمي في كلية الهندسة الذي حققه بنجاح كبير حتى تخرج على يديه مجموعة كبيرة من المهندسين الذين أصبحوا يكونون مدرسة حوله. وهو إلى جانب ذلك كله مؤلف غزير التأليف في تاريخ العمارة وتاريخ الفن الهندسي عمومًا، وقد أصدر مجموعة كبيرة من المؤلفات باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية، وكلها باهظة الثمن متعددة في مجلداتها تحتفظ بها المكتبات والكليات كمراجع ولا يتيسر للأفراد الحصول عليها إلا بصعوبة كبيرة؛ لأن معظمها مطبوع في الخارج. ولقد عرفت وأنا أراجع اسمه في نقابة المهندسين أن له رحلات وسنوات من العمل في الكونغو أو الكاميرون أو واحدة أخرى من بلاد أفريقيا التي تختلط عليَّ، مع بعض الشركات الألمانية والهولندية التي عملت في أفريقيا.

Twitter: @ketab_n

كانت هذه تقريبًا هي كل ما استطعت أن أجمع من معلومات عنه قبل أن أذهب لأراه، على موعد، في بيته في المعادي الذي بناه على شكل محارة من محارات البحر. وكان لا بد لي من سنتين من المعرفة المتصلة به والجلوس إليه لليالٍ طويلة حتى أحس بسخافة عملنا الصحفي، وبقلة ما نجمع من معلومات عن أي موضوع، وحتى أتعلم كيف أصمت ولا أكتب ما أعرفه بعد أن تكشفت لي حياته ومعانيها وقيمها، بل وأرقامها الصحيحة المتعلقة بثروته.

ولست أدري، ولا أظن أنني سأدري أبدًا، لماذا اختارني لهذه التجربة ولماذا حرص على أن يقدم لي ما قدم من معرفة وحب دون بقية من عرف من الناس أو من تعرض له من الصحفيين في حياته الطويلة. أو لعله قد فعل ذلك أكثر من مرة وقد كان دوري قد حان على نحو ما. إن الأمر يبدو لي وكأنه لعنة خاصة قد أصابتني في أخريات حياتي أو أنني قد صادفته في لحظة كان يبحث فيها عن فرصة ليمارس فيها قدراته وإمكانياته العقلية والروحية، وليثبت لنفسه أنه قادر على أن يأسر الآخرين وأن يغير حياتهم، بل وأن يتملكهم إذا أراد، وأنه ما زال شابًّا قويًّا يمتلك المستقبل كله. أليس هذا هو ما حدث فعلًا، أم ليس هذا معنى ما أحسسته من قبل وأنا أقول إنه قد تملكني قبل أن يمتلك انتصار؟

عندما دخلت عليه في بيته في المعادي لأول مرة، كانت الظلمة قد سقطت، ولم يكن البيت واضحًا لي تمامًا. فلما دخلت إلى قاعة مكتبه حيث كان ينتظرني، كانت الغرفة الواسعة، وكأنها بهو، مليئة

Twitter: @ketab_n

حتى أعلى حوائطها بالكتب الأجنبية المجلدة، وكانت المسافة التي عليَّ أن أقطعها لأصل إلى حيث يقف ينتظرني، طويلة. وكانت الأنوار في الغرفة موزعة توزيعًا غريبًا لم أستطع أن أفهمه، إلا أنني كنت أحس أنني أسير في الظلمة، ومع ذلك فلا أرفع عينيَّ على شيء، بما في ذلك الأستاذ الدكتور نفسه، إلا ورأيته غارقًا في نور قوي غامر يضطرني أن أخفض من بصري من جديد.

لقد ألفتُ الغرفة بعد ذلك تمامًا وعرفت الكثير من جنباتها وتنقلت معه حول رفوف الكتب وهو يستخرجها لي ويترجم لي منها، ووقفت معه في أركان متعددة منها: عند البار، أو عند الرفوف السحرية المختفية التي يخفي فيها أسطوانات الموسيقى ولوحات الصور الفنية الغربية النادرة. بل وقد تجاوزتها إلى قاعتين على جانبها قد صنع منهما ما هو أشبه ما يكون بمتحف لنماذج العمارة وأساليبها المختلفة وملأهما باللوحات العتيقة البنية اللون التي تصور عددًا كبيرًا من المباني والكنائس والكاتدرائيات والأحياء في المدن الأوروبية المختلفة، وأحاطها كلها بنماذج من الحيوان والطيور المصبرة والزهور والنباتات الخضراء الحية. لقد جُست خلال ذلك كله على مر السنين وتعلمت الكثير مما كنت لا أعرف، وسجلت له أحاديث طويلة عن هذه الموضوعات، كما سجلت أحاديثه وهو ينقب في حياتي ليعريني أمام نفسي أو ليحكي لي من حياته أجزاء أو معاني كان يقررها أمامي وكأنها قيم عليَّ أن أتشربها وأن أتلقاها وقد تجردتُ تمامًا من القدرة على النقاش والجدل.

لقد حدث هذا كله على مر السنتين اللتين جعلني فيهما أواظب

Twitter: @ketab_n

على زيارته، ولكنني ما زلت أذكر بشيء كثير من الرعب والرعدة ذلك اللقاء الأول الذي تم بيننا، وتملأني الذكرى بنفس شعور الغربة والضؤولة اللتين أحسستهما وأنا أراه على سياج الباخرة وإلى جانبه انتصار.

* * *

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي وأنا أجر قدميَّ إلى الكازينو لأرى الطيور وقد عاودتني نوبة الألم في الصدر: «هل تستطيع أن تؤجل شيئًا حقًّا؟ هل تستطيع أن تنهض وأن تقف أمام ما هو قادم عليك؟ إن نضوج الابنة واستقلال إرادتها لا يفترقان أبدًا عن نضوب روحك وانكسارها في زاوية من الإقرار بالهزيمة والجهل». وقلت لنفسي وأنا أرى نور الظهيرة وضوء الشمس يتراقص على ثبج الموج: «إن شيئًا في الحاضر يستوعب الماضي ويغيبه حتى لا يفترق عن المستقبل».

وتساءلت في حيرة ـ قد لا تحلها إلا الطيور: أي الأمرين أولى أن يسلم إليه المرء نفسه؟ هل يسلم نفسه إلى هذا القادم بالضرورة، أم هل ينظر حوله ويرضى بضرورة ما هو قائم؟ إن كل فعل قلق يختار ويحملنا من المسؤولية والإدانة ما لا قبَل لنا باحتماله، إلا إذا كنا أبطالًا نادرين أو مجرمين جُفاة في الحس. والطيور وحدها تعيش حياتها في فعل خالص بلا قلق ولا اختيار في هذه الرقصة الدائمة بين الهواء والماء، لحظة دائبة لا زمن لها إلا أنها هناك.

Twitter: @ketab_n

لقد عادت إليَّ الطيور وأنا فرح كأنني طفل. أجنحة بيضاء تتحرك بلا تردد في مساحات محسوبة مقدمًا، لا يتعدى فيها طير على آخر، ولا يمس فيها أي جناح أي جناح، وقلبي المتوجع يتوثب خلفها كأنه أعرج يجري خلف بنات أبكار. أين ذهبت يا انتصار؟!

أليس من الغريب أنني لم أحذره وقد حذرني بوضوح وحسم؟ ولكنني كنت أحسب أننا قد أصبحنا معًا بعد معرفتنا الحميمة طيرين يتحركان في مساحات محسوبة. لم أكن أتصور أنه عندما قال لي: «لا تؤاخذني... لقد عرفت الحب ومارسته تمامًا. لقد عرفت كل العواطف والمشاعر، بل إنني أعتبر نفسي متخصصًا فيها...».. لم أتصور وهو يقول لي ذلك، بهذا اللفظ الذي ما زلت أذكره بحروفه، لم أكن أتصور إلا أنه قد امتلك معي حريته وأنه يتحدث أمامي كما يطير الطائر بجناحيه الكبيرين في حرية وراحة وأنني أرقبه باستسلام كامل يعرفه هو تمامًا، وبفرح كفرح الطفل وانجذابه.

كان كل ما حولي من محبة وجدة يدفعني إلى أن آخذ حديثه على أنه مجرد تفتح نفس عريضة قوية قد منحتني الحق أن أدخل إلى كنوزها ومفاخرها، ولم يكن بداخلي أي توجس أو خوف بقدر ما كان فيه من انبهار وذهول. كان قد مر حوالي ثلاثة أشهر على لقائي الذي أصبح يوميًا تقريبًا معه، وكنت قد بدأت أفقد أي احتمال بأنني سأكتب موضوعًا عنه، أو سأكتب أي شيء بعد ما تكشفته في نفسي من فقر في المعرفة وعجز عن الإحاطة بشخص مثله؛ فعلى قدر ما استمرأت ما كنت أتلقاه من معرفة وهو يحدثني عن المعمار وتاريخه، أو عن الفكر الألماني وشخصياته، أو عن الاقتصاد

Twitter: @ketab_n

العالمي وصعوبات وإمكانيات المستقبل في مصر في عهدنا الجديد، كنت أزداد وعيًا بضؤولة ما نمتلك وما نقدم من معلومات في عملنا الصحفي. وكان نقده اللاذع وسخريته الشديدة بما يُنشر في صحفنا من أخبار مبتسرة ومعلومات مقلوبة ـ كما يقول ـ قد أصبحا لا يزيدانني إلا الإحساس بضيعة ما أمضيت من عمر أتتبع فيه الأخبار، منبهرًا بما فيها من بريق زائف، أو أدبج الموضوعات وأراجعها، وهي لا تمت إلى المعرفة ولا إلى الموضوع الذي تعالجه إلا بخيوط واهية مصنوعة، وأصبحت أحس معه أن الطريق الذي قطعته منذ أن تركت الأزهر وتفرغت للعمل الصحفي قد جعلني أعيش في وهم الحياة في قلب الأحداث، وأنا في الحقيقة على هامشها تمامًا، لا صلة لي بصناعتها ولا يكاد فهمي يصل فعلًا إلى معانيها وأبعادها الحقيقية.

ولكنني أذكر بوضوح أنه في هذه الليلة التي بدأ فيها الدكتور كمال مجدي يحدثني عن خبرته وتخصصه في العواطف والحب، كان رئيس التحرير المسؤول في الجريدة قد استدعاني في الصباح، وهنأني على الانطباع الذي تركته عند الدكتور كمال. وأحسست يومها أن الترقية والمكافأة التشجيعية السخية اللتين حصلت عليهما، كانتا على نحو ما بفضل نفوذه وصلاته المباشرة مع المسؤولين عن عملي. وقد أردت ليلتها أن أشكره، وأنا أقص عليه خبر الحديث بيني وبين رئيس التحرير وخبر المكافأة والترقية، ووضعت في كلماتي تساؤلًا غير صريح عما فعلته لأستحق هذا التطوع الذي بذله من أجلي بالحديث، وهذه المحبة التي عبر عنها، فإذا به يفاجئني بجملة

Twitter: @ketab_n

ما زلت إلى الآن لم أفهمها تمامًا وإن بقيت في ذهني ورددتها لنفسي وما زلت إلى الآن أفعل.

قال لي:

ـ اسمع... يقول «جوته»: «إذا كنت أحبك فما شأنك أنت في هذا؟».

وعلى الرغم من أنني قد سجلت حديثه تلك الليلة بالكامل على شريط التسجيل وأعدت سماعه أكثر من مرة، فإنني ما زلت لا أجد فيما قاله لي حينئذ، أو فيما قلته له، ما أستحق أن أُدان من أجله لأنني لم أتيقظ ولم أحذر، بل إنني ما زلت أعتقد أن قبولي ليلتها لطلبه، أن يضم انتصار ابنتي إلى مكتبه للعمل في سكرتاريته، كما ضم من قبل ابنيَّ الموشكين على التخرج في كلية الهندسة إلى مكتبه للتدريب، كان تعبيرًا عن احترامي وتوقيري له، ولم يكن تطلبًا للمعونة أو استغلالًا لمحبته. فلم أجد وقتها في قبولي لطلبه إلا امتدادًا لما فهمت من قدرته على الإعطاء ومن حرصه على أن ينعم بتلك القدرة والحرية على أن يكون المعطي القادر أن يصنع الأفراد والقدرات. كيف كان من الممكن لي ساعتها أن أتصور أن حديثه عن «زواجاته» فيه تمهيد أو تحذير بالزواج من انتصار؟! وكيف كان من الممكن لي أن أفهم أعماق العطاء وأسرار ما في المعونة من خيانة؟!

انتصار! يا انتصار! إن كل الطيور من حولي لن تعيدك إليَّ، فهل يعيد صوته إليَّ الوعي والتبصر؟ ما أشد الألم في الصدر، إذا كان ما أريده هو سماع صوته!

Twitter: @ketab_n

٤

شريط تسجيل

ليس هناك أكبر ولا أوجع من الشعور بالإثم أو الخطأ، عندما يكون مرتبطًا بالوعي أو بالفهم. لقد أخطأت وأثمت في حياتي كثيرًا، ولكن الأخطاء كانت مرتبطة بالأخلاق، وبمألوف المجتمع، فكانت تمر وتُنسى مع الزمن، وكان من الممكن أن يرجعها المرء للحظة ضعف في البدن توَلد في الروح نهمًا مفاجئًا وظلمة فتدفع إلى الإثم. وتمر اللحظة، ويصبح عليك أن تمسح نتائج الأخطاء أو أن تغطيها.. فإذا استطعت، وفي أغلب ما عرفت من آثام كنت أستطيع... عبرت الخطأ أو الإثم واستعدت توازنك.

ولكن خطئي مع كمال مجدي كان من نوع آخر؛ إنني لم أفهمه، أو أخطأت في فهمه. لقد غرتني شخصيته وطرقاتها الغريبة الغنية، وكأنما وجدت نفسي أمام كل أوروبا وكل حضارتها وثقافتها وأنا لا أملك إلا أحلامي الصغيرة الراقدة إلى جوار برج الحمام في كفر سعد. وعندما مسني الخطأ لم يكن من الممكن أن أتجاوزه أو أن أخفيه؛ لأنه سلب مني نفسي وسلب مني انتصار.

Twitter: @ketab_n

في تلك الليلة حدثني عن «زواجاته»، كانت معرفتنا قد تقدمت كثيرًا. ولعل من الأفضل لي أن أكتب هذه الليلة مستعينًا بالتسجيلات التي معي، قبل أن أصل إلى اللقاء الأول معه الذي أعتقد أنه كان بداية الخطأ أو الإثم.

لم تبدأ تلك الليلة من الحديث عن «الزواجات» بحديث شخصي على الإطلاق، أو على الأقل بما نطلق عليه حديثًا شخصيًّا لأنه يمس خصوصيات الحياة، ولكنها بدأت بقصة اشتغاله بالهندسة وتعلمه تاريخ المعمار في ألمانيا على يد بقايا المدرسة الألمانية التي عرَّفني بتاريخها بالتفصيل، والتي أقامها «والتر جروبيوس» وسماها «باوهاوس». لقد عرفت في تلك الليلة الكثير عن المدرسة، منذ بدايتها حتى نهايتها على يد «هتلر» وهجرة أساتذتها الكبار إلى أمريكا بعد ذلك. ولست أدري ماذا كان يعني وهو يقول إنه أيضًا مثلهم هاجر إلى مصر يحمل هذه الدعوة لـ«المنشأة العظيمة» أو لـ«البيت الكبير» الذي هو جماع الفنون. كانت مبادئ المدرسة، كما فهمتها منه، مبادئ تتقبلها الروح بسهولة وبإعجاب، وكان حديثه عن نظريتها الأولى، وعما سماه «خطأ أساسيًّا وخطيرًا»، يورطك في نوع من الإحساس بالتكامل المستحيل الذي يجعلك تسمع وأنت خاضع:

ـ إنه خطأ أساسي وخطير أن نفصل بين المعمار وما يسمى الفنون الجميلة والفنون التطبيقية.. فكل هذه المجالات أوجه مختلفة لقدرة الإنسان على الخلق.. وقدرة الإنسان على الخلق يجب أن يكون هدفها الأخير هو العمل الفني المركب الذي لا تنفصل أجزاؤه، وهو البناء الكبير...

Twitter: @ketab_n

كان على هذا النحو يتحدث، وهذا هو صوته. ولست أريد أن أنقل الآن كل الحديث عن برنامجه التربوي الذي يقترحه للشباب، وعن وسائل ربط الصناعة بالفن، وعن التدريب اليدوي والعقلي للمهندس، وعن ضرورة انفتاح البرنامج التعليمي على التأثيرات الدولية من أنحاء العالم لفهم احتياجات العصر وتياراته. كنت وقتها أسجل كل هذا على أمل أنني سأستخلص منه أنواعًا جديدة من التحقيقات الصحفية تتناسب مع احتياجاتنا الحاضرة، ولست أدري الآن ماذا كنت أرى وقتها في كل ذلك مما قد ينفعنا. ولكنني لن أدخل في هذا الآن لأنني أريد أن أتصور في ذهني تسلسل الحديث في ذهنه حتى وصل إلى هذا الجانب الشخصي الذي تلقيته وقتها بخفة وعدم وعي.

بدأ بعد ذلك يحدثني عن رسالته الأولى للدكتوراه، وبدأ حديثًا فريدًا لا صبر لي الآن على أن أتابعه، عن النقلة من العصور الوسطى إلى عصر النهضة في أوروبا، وعن الشخصيات الفنية والفكرية التي حققت هذا العبور. وكان حديثه متركزًا على المعماري الذي اختاره موضوعًا للدراسة. وهو اسم لم أكن قد سمعته من قبل، ولا أظن أن أحدًا من قراء صحيفتي قد سمع عنه، وهو «أرنولفو دي كامبيو»، وها أنا أوقف الشريط لكي لا أخطئ في اسمه أو في تواريخه كما قالها لي: ولد ١٢٤٠ وتوفي ١٣١١. وفي الشريط حديث طويل عن دلالة معمار هذا المهندس على الروح الجمهورية في فلورنسا وتخلصها من تأثير نبلاء الإقطاع، وكلام من هذا النوع عن اصطراع أساليب المعمار القوطية واللومباردية والتوسكانية في إيطاليا، قبل ظهور أسلوب عصر النهضة.

Twitter: @ketab_n

ولما كنت عاجزًا، وما زلت بالطبع، عن أن أتابعه إلا بالتسجيل في هذا الحديث، فقد أراد وقتها أن يساعدني باللوحات والصور، وأن ينقلني إلى جوانب أدبية وتاريخية، قد تكون أيسر على استيعابي. أخذني إلى الغرفة الواسعة المجاورة للمكتبة وحملت التسجيل في يدي وهو يقول:

- لا أكاد أعرف معماريًّا في إيطاليا أو غيرها، في مطالع النهضة أو في أي عصر آخر، يستطيع أن يفخر مثل «أرنولفو» بأنه قد ترك يومًا ما طابعه الشخصي على مدينته العزيزة لديه.. فلورنسا.. انظر.. على هذه الخريطة للمدينة في عصره.. هذا تل «سامينياتو».. إذا وقفت عليه فكل ملامح المدينة التي تبدو عند قدميك هي من صنع الرجل...

ومرة أخرى أوقف التسجيل لأنني لا أرى معنى لأن أكتب أسماء تلك المباني والكنائس التي لم أرها ولن أراها، ولا أعرف حتى إن كانت ما تزال قائمة أم لا. ولكنه يقول لي وهو يعود إلى غرفة المكتبة وقد أحس بجهدي في متابعته:

- حتى تلك الجدران التي كانت تسوِّر مدينة الزهور، كانت من صنعه ولكنها لم يعد لها أثر باقٍ الآن.. إن من الضروري أن يتعرف المرء على تلك الخصائص المعمارية، التي يبدو أنها أتعبتك، لكي نتحدث عن عصر النهضة، أو عن أية نهضة فيها صراع بين الماضي والحاضر لتكوين المستقبل.. ولكنك، فيما أعتقد، مثلك مثل الكثير من المثقفين المصريين. فهم لا يحتملون التفاصيل ومسؤولية معرفتها، ويحبون أن يستريحوا إلى مجموعة من الأحكام العامة يتلقونها كأنها حقائق.

Twitter: @ketab_n

ولما بدأت أتعثر في كلمات أحاول بها أن أدافع عن نفسي وقلت إن الموضوع ليس من تخصصي على الإطلاق، أظن أنني أحسست وقتها بنفس الغصة في الروح، التي أحسها الآن، وأنا أتساءل عما تخصصت فيه، وعما أستطيع أن أواجه به هذا المد الزاخر من المعلومات الذي يُغرقني فيه، لو غيرنا موضوع الحديث. إنه لم يدعني على أية حال أصوغ دفاعي على أي نحو، ومضى يقول:

- اسمع، قد يستبقي اسم «أرنولفو» في ذهنك أن أقرأ لك جزءًا من وثيقة، يعرفها بُحاث العصر، تكشف عن جانب من الروح الجمهورية لأهل فلورنسا وعلاقته بالبناء والتعمير.. وهي الوثيقة التي كلفوا بها هذا المهندس العظيم بناء كنيستهم التي تسمى «سانتا ماريا ذات الزهور».

ولم تكن الكنيسة، أو حديثه عنها، هو ما أعاد لي نشاطي على المتابعة، ولكني نشطت للكلمات المألوفة عن روح الجمهورية، وعن البناء والتعمير، وكأنما مسَّت شيئًا مما نسميه الإحساس الصحفي.

وأكاد أذكر، وأنا أستمع إليه الآن، خطواته القاصدة إلى كتاب ضخم، يستخرجه من رف قريب ويفر أوراقه بأصابعه التي تلمع فيها خواتم ثمينة، ليصل إلى ما يريد بثقة وليترجم لي مباشرة وهو يقول:

- يكفيك هذا الجزء من الوثيقة التي كُتبت في يوم من أيام عام ١٢٩٤:

Twitter: @ketab_n

> لما كانت أعلى سمات الفطنة في شعب نبيل، هي أن يمضوا في تدبير أمورهم بحيث تبرز عظمتهم وحكمتهم في أعمالهم الظاهرة، فإننا قد أمرنا كبير البنائين في «كوميونتنا» (وأنت تعرف معنى هذه الكلمة بالطبع) أن يضع تصميمًا لتجديد «سانتا ريباراتا» على نحو من الروعة لا تتجاوزه مهارة الإنسان أو قدرته، وعلى نحو يتوافق مع رأي العديد من حكماء هذه المدينة والدولة، الذين يرون أن «الكوميونة» لا يجدر بها أن تقدم على مشروع إلا إذا كان مقصدها منه أن تكون نتيجته ملتقية مع مشاعر أنبل القلوب، والذي هو جماع الإرادة المتحدة للكثير من المواطنين...

وها أنا أوقف الشريط مرة أخرى؛ لأنني أحسست من جديد ما أحسسته حينذاك، بأن شيئًا ما يتحداني ويحرجني في نفسي وفي تراثي نفسه. لقد خطر لي حينذاك، كما يخطر لي الآن، أن أدبنا العربي وتاريخنا الإسلامي، لا بد أن يحملا مثل هذه الوثائق في مثل هذه المواقف، وتزاحمت في نفسي ذكريات بعيدة مما ورد في «ابن الخطيب» عن تاريخ بغداد من إشارات إلى المباني، أو ما ورد في «ابن خلكان» عن المباني العامة والجوامع في مدينة الري.. ولست أدري لماذا هذان الكتابان وحدهما، ولكنهما كانا ما ذكرتُ، وأنا أحاول رد التحدي، وليس أمامي شيء متاح أرجع إليه، وليس لديَّ من المعرفة ما يجعلني مستعدًّا للحديث دون نصوص، بل إنني لا أعرف في الحقيقة هل هناك مقابل لمثل هذه الوثيقة أو لغيرها. ولكنني أقيس على ما يقوله، وأتصور ضرورة

Twitter: @ketab_n

وجود المشابهات في حضارة مثل حضارتنا. ولكنني أصمت في خجل، وأتركه يتكلم وأنا أتحسر غضبًا على كل أولئك الذين قد يعرفون أو يستطيعون أن يعرفوا، ومع ذلك لم يضعوا في أيدينا شيئًا نقصه أو نفخر به، أو حتى نعرفه عن أنفسنا لنرد به شيئًا من هذا التحدي. إنني أستطيع الآن أن أردَّ بحره الزاخر أن يغرقني.. ولكنني لا أفعل ذلك إلا بأن أغلق شريط التسجيل.

ولكن ماذا أفعل بكل ما كتبت الليلة من حديث تلك الليلة؟ إنني أبحث عما يدينه فإذا بي لا أبحث فعلًا إلا عما يبررني. لقد تركني حديثه مجردًا من كل ما أملك من معرفة ومن تراث، ولم أجد في حياتي ما أتشبث به من قيم وأنا أستمع إليه، وهو يقودني في آخر الليل إلى مقعد في ناحية من الغرفة ليستخرج البار من مكمنه وليخرج لي فجأة من جانب المقعد منضدة صغيرة ويدعوني لأن أشاركه في كأس من «المارتيني».

وقد لا أكون مبررًا فعلًا في ضعفي أمامه وعدم تقديري لكلماته الأخيرة أو في تقديري لحقيقة قدرتي على الرد والانتباه إلى ما سيقوله. ولكن هذا هو ما حدث، وكان الإثم، أو الخطأ، الذي ارتبط ـ كما أؤكد لنفسي الآن ـ بالوعي والفهم، هو أشد أنواع الشعور بالخطأ إيلامًا.

هل شربت معه ليلتها؟ إنني لا أذكر بالتفصيل ماذا حدث تمامًا، ولكنني أذكر أنني أغلقت شريط التسجيل استعدادًا لختام ليلتنا كما تعودت أن أفعل عندما يدعوني إلى كأس من الشراب قبل أن أنصرف. وإذا به يجلس على مقعده ويمد رجليه مستريحًا ثم

Twitter: @ketab_n

يتكلم من جديد، فأضع الشريط على وجهه الآخر وأستمع كما أفعل الآن تمامًا:

ـ لـ«هيجل» كلمة كبيرة.. أحبك أن تذكرها وأن تفكر فيها.. كان الرجل يقول: «لا بد أن يُبنى البيت أولًا قبل أن توضع فيه صورة الإله أو قبل أن يقام فيه تمثال له أو توضع رسومه على الحائط في الموزايك».. نعم البيت دائمًا أولًا.. وأنت قد حاولت أن تكتب عني وأن تعرفني.. وكان عليك أولًا أن تبني البيت الذي ستضع فيه ما ستعرف.. فأنت لا تستطيع أن تعرف، ولا تستطيع أن تعبد... بل ولا حتى تستطيع أن تحب إلا إذا أقمت البناء أولًا وتحملت مسؤوليته... فليس البناء هو مجرد الحجر والحديد ولكنه تجسيد لكل ما في الجهد الإنساني من قدرة وإرادة وسيطرة.. ومعرفة مستوية بالتفاصيل والقوانين في وقت واحد.. لقد مرض مجتمعنا الحديث في مصر وأصبح لا يتجه إلا إلى جانب واحد فقط.. فهو إما مشغول بالتفاصيل دون أن يجمعها في إطار أو بناء، وإما مشغول بفكر مجرد لا يرتبط بالواقع وبالتفاصيل.. وليس أمامنا إلا الإعادة الكاملة للتعليم.. إعادة التعليم.. أتفهم؟ ولكن دعنا لا نبدأ مثل هذا الحديث الآن وقد تأخر الوقت.

ووقعت لحظة صمت طويلة سجل فيها الشريط صوت الثلج وهو يقع في الكوب، والماء وهو يصب، ثم تلك الصلصلة التي يُحدثها اصطدام عصا التقليب الصغيرة في الكأس وهو يجدد شرابه. لقد كان ممكنًا أن أنتبه كما أنتبه الآن، وأن أحدد هذا الموضع من الحديث

Twitter: @ketab_n

بقدر آخر من الحرص والفهم. ولكن ألا يَحسن بي ألا أكرر نفسي الآن وأصمت لأسجل هذا القادم من حديثه ولأُخرج تلك القصة البسيطة الساذجة من صدري؟

ـ لا تؤاخذني إذا قلت إنك لا تستطيع أيضًا أن تحب... لا تؤاخذني.. لقد عرفت الحب ومارسته تمامًا.. لقد عرفت كل العواطف والمشاعر، بل إنني أعتبر نفسي متخصصًا فيها.. إنك لا تعرف أنني قد تزوجت ثلاث مرات وأحس الآن أنني أستعد لزواج جديد.. لا بد أنك قد عرفت شيئًا من هذا، ولكنك لم تعرف التفاصيل.. كان زواجي دائمًا مرتبطًا بالبيت الذي أبنيه.. وهذا البيت الذي نعمل فيه الآن ـ ألسنا نعمل؟ ـ بنيته للفرنسية التي ساعدتني على أن أرتبط بالعالم وبالعديد من أصدقائي المهندسين ورجال الأعمال في عواصم أوروبا.. لقد بنيته ـ كما تعرف ـ على شكل محارة.. سطوحه كلها واحدة.. الحائط والسقف مساحة واحدة متصلة.. كان هذا بعضًا من تأثير أعمال «فردريك كيزلر».. هذا لا يهم الآن.. وكانت هي زوجتي الثانية.. أما الأولى فكانت من الصعيد، وكان زواجي عائليًّا؛ فهي قريبتي.. وقدَّمَت لي جزءًا كبيرًا من المال الذي بدأتُ به حياتي في سنوات شركاتي الأولى.. كنا نسكن في الحلمية الجديدة، في بيت من بيوت زمان.. إنه الآن عمارة ضخمة ولها شقة كبيرة فيها.. أما الثالثة فقد طلقتها منذ سنتين فقط.. كانت أستاذة في الجامعة في كلية الآداب. وقد تزوجنا في «بنتهاوس» في الزمالك على النيل.. في تلك العمارة الكبيرة

Twitter: @ketab_n

التي تعرفها على الكورنيش... وكنت وقتها حريصًا على أن أتصل بالمثقفين المصريين وأن أشارك في الحياة العامة وأن أنشر بعض مؤلفاتي بالعربية.. كان لكل منهن إطار.. وكان لكل منهن بيت.

ـ يا كمال بك.. إنكِ مثل «دوريان جراي».

ماذا دفعني إلى النطق بهذه الملاحظة؟ لماذا لم أسكت؟ لقد قرأت الرواية في ترجمتها العربية منذ سنين، ولا يكاد يتبقى في ذهني منها إلا تلك الإشارة إلى الصورتين المتغايرتين المتناقضتين. وكنتِ في الحقيقة أريد أن أعبر عن حريتي أمامه أكثر مما كنت أريد أن أشتمه أو أنتقده. ولكن ها هو الشريط يذكرني الآن بضحكته العالية المتكررة وكأنما قدمت أمامه حركة بهلوانية. ويمسك بورقة بيضاء أمامه وقلم ويخرج صوته من ضحكته بطيئًا محسوبًا.. وهو يرسم في الورق:

ـ إنك تنطق «دوريان جراي» نطقًا فريدًا.. على هذا النحو.. ولكني أقبل ذكاءك.. «دو ري ان جرا.. ي».. شيء لا يمكن أن يمسك به الخط العربي.. إن صوتك لم يخلص من قدرة الطين المصري على أن يغير الحروف وأن يصنع ما يريد بالمعنى.. «دوريان جراي».. لا علاقة لها بالاسم على الإطلاق.. الدال.. ضاد.. والراء الأولى مشددة.. وكأنما بعدها ألف.. وبعد الجيم ياء.. والألف بعد الراء الثانية مضخمة مليئة.. كأنك تأكل حلاوة طحينية.

وعاد الضحك إلى الشريط مرة أخرى، وخرج صوته هذه المرة

Twitter: @ketab_n

من ضحكته هادئًا ساكنًا، وكأنما يريد أن يُسقط ما حدث تمامًا من حسابه وهو يقول:

ـ لا.. لا.. لم يكن هناك خفاء في الزواج.. كان هناك دائمًا بيت.. وكان المجتمع دائمًا يقبل، ما دمت قادرًا على أن تقدم الإخفاء الاقتصادي.. أثناء الزواج.. وبعده.. ولا بد لك أن تتعلم المرأة كما تتعلم أي شيء آخر؛ فالمرأة الأوروبية أسرع إلى الشيخوخة مما تتصور.. وبمجرد أن تصيب جسدها السن تتغير نفسيتها تمامًا؛ لأنها تصر على أن تظل امرأة.. وهذا زيف وكذب، وليس زواجًا أو حبًّا.. أما المصرية فبمجرد أن تشيخ، تتخلى وتنتظر العطف.. فهل تحيل زواجك إلى هذا؟ وأنت مع المثقفة، في صراع غير متساوٍ معها منذ البداية.. هي تريد أن تنتصر.. فإذا انهزمتَ لها لم تفهم، وإذا هزمتها.. لم تستطع أن تقبل.. ولقد وصلت الآن إلى حكمة أن السكرتيرات هن الزوجات المثاليات لمن كانوا في مثل حالتي المالية.. والفكرية.. وأيضًا في السن.

وأوقفت الشريط الذي لا أريد أن أسمعه مرة أخرى. فما فائدة كل هذا التسجيل، إذا كنت لم أسجل ليلتها قبولي لطلبه، وهو يودعني على باب البيت، أن تعمل انتصار عنده سكرتيرة، بعد أن رآها منذ أيام وهي تزور أخويها، وعرف أنها قد انتهت من دراستها، وأنه مستعد أن يقدم لها عقدًا بتاريخ سابق حتى تخلص من سنة الخدمة العامة التي يفرضها القانون الجديد؟!

Twitter: @ketab_n

٥

بداية ونهاية

هل انتهيت؟ لا بالطبع. لقد تكاثرت عليَّ المعاني والحقائق ولم أستطع أن أحدد لنفسي طريقًا بينها. لقد كانت انتصار هي التي اختارت الطريق وقبلته، وماذا أستطيع أن أفعل إلا أن أقبل كل هذا الذي لم أفهمه جيدًا ولم أسيطر عليه، ولم أستطع أن أبني منه بيتًا؟

لقد قال لي منذ لقائنا الأول:

ـ إن هذا الأمر سيكلفك كثيرًا.

ولم أفهم منذ البداية، كما لم أفهم في النهاية. إنني أحس أن ظلمة الليل تشتد ولم يعد يبددها المصباح الذي أكتب على ضوئه.. وأحس أن روحي تجاهد أن تنطلق للطيور البيضاء فلا تستطيع. وأحاول أن أتذكر برج الحمام في كفر سعد فلا أتذكر إلا صوته وهو يصف لي غرفة في غابة من أفريقيا.. صنعوها للعلم ومدوا فيها أوتارًا عديدة من أوتار البيانو. ثم أطلقوا فيها عددًا ضخمًا من الخفافيش.. نعم كانت هذه هي الصورة.. وهو مع أصحابه العلماء

Twitter: @ketab_n

يدرسون كيف ينطلق الخفاش في الظلمة دون أن يمس وترًا أو يُحدث في الغرفة صوتًا.

لقد انتهيت.. انتهيت لأنه لم يكن ممكنًا أن أدرس الحمام في كفر سعد.

* * *

في اليوم التالي، نشرت جريدة... خبرًا بصورة على عمود في الصفحة الأولى تنعي الصحفي الكبير نصر الشربيني إثر إصابته بسكتة قلبية في فندق بشاطئ «جليم»، وأشار الخبر إلى أن الزميل الذي أمضى حياته في خدمة صاحبة الجلالة كان يعمل حتى آخر دقيقة من عمره، وجاء في الخبر، بعد كلمة «ومما يذكر»، أن ابنته كانت قد تزوجت منذ أيام من الدكتور كمال مجدي، وكانت هذه أول مرة يُنشر فيها الخبر في الجريدة التي يعمل بها نصر الشربيني.

١١ مساء - ٢٧ ديسمبر ١٩٧٥

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أوراق زمردة أيوب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الوحدة الجديدة

دميرة، في طوبة ١٦٩٣

لا بد إذن أن أكتب. لا بد أن نصنع هذا الأفق بأنفسنا؛ لأن الرب قد أراد أن تنغلق الأرض وأن يضيق الزمن وأن أبقى بمفردي أمام القلب النابض في الجسم بالألم. لا بد إذن أن أكتب؛ لأن الألم يبدد الحقيقة مني ويكاد أن يجعلني أستسلم لحياة لا عمل فيها ولا حساب. لا بد.. فهل أستطيع؟

كيف تصنع الكتابة الأفق؟ إن الفارق كبير بين الكتابة والصلاة، وهناك هذا الوهم الدائم لدى من يكتبون أنهم قد يستطيعون الصلاة بالكلمات. إن الصلاة فعل وليست تعبيرًا، وهي قدرة وإنجاز وليست تطلعًا، وكل إخلاص وصدق في الكتابة لا يتجاوزان حدود الداخل والنفس الممزقة والجسد المتألم. إن كريات الدم، التي تجري في داخل جسدي، تجري دون تحكم مني ودون أن أعرفها، ولكنها هكذا، دون أن تعلنني أو أن تسأل عني، قد أصابها المرض. قد أصبحت تتهاوى في داخلي بمفردها على نحو لا أدركه ولا أستطيع أن أوقفه.

Twitter: @ketab_n

إن كل طبيب، وهذه الصغيرة بالذات التي تعالجني، يعرف عن دمي أضعاف ما أعرف أنا. أما أنا فلا أعرف إلا الألم الذي ينشب فجأة وكأنه أظافر صغيرة أو مخالب حيوان غير مرئي ثم ينتشر وتتعدد خطواته وبصماته في البدن كله. في الرقبة وسلسلة الظهر وفي الصدر وفي الركبة وفي القدم والساق.. وإذا به بعد ذلك يصبح هو الموجود الوحيد منفصلًا عن كل قدرة لي على أن أوجد. هناك حد أو حدود لا يصبح فيها الألم تهديدًا بموت فقط ولكنه يصبح نوعًا فريدًا من الحياة المتروكة الملقاة التي لا تحس باقتراب النهاية بقدر ما تحس بأنها ديمومة من وجع لا ينتهي دون أن يمتد أو يتغير. ما هذا النوع من الحياة عندما ينشب هذا النوع من الألم؟

لا بد إذن أن أكتب. وكم قد كتبت في حياتي. لقد كتبت بالعربية واختفيت وفكرت بالإنجليزية ولكني كنت دائمًا وأنا أكتب إما أحب وإما أتفوق. كانت الكتابة حينذاك ممارسة للحظات الحياة وخوضًا لمياهها الضحلة والعميقة. كانت الكتابة فعلًا ومسيرًا بنفس القدر الذي كانت فيه تعبيرًا. وليست هي الكتابة التي أحاولها اليوم. إنني أريد أن أتنفس. أريد أن أكسر ديمومة الألم. أريد أن أقول لنفسي إن هناك شيئًا أستطيع أن أصنعه أو إنني ـ على الأقل ـ أستطيع حتى الآن أن أتمثله.

عندما تبلغ المرأة الخمسين، وبيني وبينها أيام، تتغير المرآة كما تتغير الحياة. وكانت الأعوام تكفيني ولكنني أرى المرض أيضًا في تلك الصفحة المصقولة التي تعكس وجهي. إن المرض لم يغير في سُمرتي التي أحببتها وافتخرت بها طوال عمري، ولكنه جعلها

Twitter: @ketab_n

كالنيل الذي لا يفيض لا غرين فيه. لماذا فعلوا هذا بالنيل، وهو لا يعرف كيف يغضب أو يحقد؟ هل استطاعوا ذلك لأنه لا يعرف كيف يكتب، أم أن هناك معنى آخر وأفقًا لم يعرفه أحد في ذلك كله؟ لقد تغيرت الحضارة كما تغيرت المرأة «الأنا» وأصاب كلتيهما المرض. وهل يلومني أحد إذا كنت لا أرى إلا «اللوكيميا» في كل ما أرى؟!

لو أن من أحببت كان ما زال في أفقي هنا لاعتمدت، أو لو أن ابني هنا لما كنت في حاجة أن أصنع أفقًا. إنني لا أستطيع حتى أن أسميهما وكل دمي يصرخ لدانيال أن يعود. دانيال، دانيال إن اليد الكاتبة على الحائط المكلس تحرمني من الصلاة كما حرمتني أنت منك. والديمومة ليست حلمًا أو رؤية ولكنها محض ألم. لماذا لا تصنع أنت الأفق يا دانيال؟

* * *

لقد وعدتهما معًا ألا أذكر اسميهما. الأول وعدته هو؛ لأنه طلب مني ذلك، وقد كان حبيبي. أما الثاني فقد استخلص مني هذا الوعد لأنه اختفى وحرمني من أي احتمال لأن أراه أو أن أعرف أين هو. ومع ذلك فهو ابني.

لقد وعدت كليهما وتعهدت لنفسي ألا أتحدث عنهما وألا أسميهما ولكنني قد وصلت الآن إلى مرحلة المصارحة الأخيرة والمواجهة التي لا بد منها والتي ليس وراءها مواجهة أخرى. إنها مواجهة لا تنتمي إليهما ولا تتعلق بهما، ولكنها مع ذلك مواجهة.

هناك شقوق كثيرة في الأرض الجافة المحروثة أمامي الآن وأنا

Twitter: @ketab_n

أكتب. وما زالوا ـ كل أولئك الذين يعملون في أرضي ـ لم يضعوا فيها البذور ولم يطلقوا عليها المياه. والشقوق في الأرض المستعدة تحت شمس الشتاء خشنة غليظة كجسد المرأة أيام الحيض كلها حساسية وكلها توتر، ولكنها مع ذلك أرض لا تتحرك فيها الحياة.. فما هذا الذي أنظر إليه الآن وأريد أن أراه واضحًا محددًا؟ إنه ليس الماضي وليس التاريخ المتلاحق لتلك الحياة والسنوات الخمسين. وهو أيضًا ليس كل ما حدث. ألست مثل كل إنسان، في كل لحظة من العمر، أريد أن أحصل على الدلالة وأريد بالتالي أن أصنع من حياتي حبكة لها معنى وقيمة؟ ما أبعد هذا المعنى وهذه الشقوق في الأرض المحروثة عن أن تعطيني ما أريد! ولكنها هي ما أملك الآن، أو على الأقل ما أرى.

أنا أجلس الآن في شرفتي في أرض دميرة. والشرفة والبيت هما كل ما أملك الآن فعلًا. أما الأرض فقد أخذها المستأجرون. لقد أصبحت عاجزة ـ كما قال المحامي ـ أن أغير شيئًا في أوضاعها وعليَّ أن أقبل أني أملك ولا أملك وأنني قد ورثت بعد كل تلك السنوات ميراثًا مغلوطًا أتجه أنا إليه ولا ينتمي هو لي. فكيف أستطيع أن أملك القدرة على أن أملك وأنا لا أملك؟ ألا أستطيع حتى وَأنا أكتب الآن أن أقول إن هذا هو خاصية حياتي؟ ألم تكن كل تلك الحياة تراثًا وإرثًا لا أستطيع أن أملكه ولا أقدر أن أجعله لي؟

يا رب، ما هذا المعنى الثقيل الذي أصل إليه في هذا الصباح وقد جئت لأستريح هنا؟ لقد تركت بيت الزيتون لأن الطبيبة قالت لي إننا سنستريح أيامًا من الحقن وإنني أستطيع أن أنتظم بمفردي في تناول

Twitter: @ketab_n

الدواء حتى تراني.. بعد عيد ميلادي.. إنها تعرف، فقد أخبرتها أنني بعد أيام سأصل الخمسين وأريد أن أحتفل بذلك وحدي في تلك الأرض التي ولدت فيها. إنني أعرف أنني سأموت ولكني لا أعرف ذلك كما يعرفه كل الناس. أعرفه تلك المعرفة الخاصة التي تجعلني مضطرة أن أتفجر بهذا الحديث الشخصي وأن أحاول هذه المواجهة مع نفسي ومع من كان حبيبي ومع من لا يزال ابني، ومع كل هذه السنوات التي تشدني إلى مصر وإلى أمريكا، ومع كل هذه المشاعر التي تشدني إلى تلك الأماكن الغريبة التي قد يكون فيها دانيال الآن، وتلك الأماكن القريبة التي أعرف أن كريم ـ نعم كريم عبد القادر ـ يعيش فيها الآن.

ما أقرب هذا المجهول وذلك القريب.. وما أبعدهما أيضًا!

لقد آن الأوان لأتحدث.. لمن؟ لأفهم؟ لماذا؟ لقد آن الأوان لأصل.. أين؟ إلى تلك اللحظة التي ينطوي فيها الوعي والإرادة.. والألم.. هل في تلك اللحظة يظل هناك هذا الصوت الذي أسمعه الآن في قلبي؟ هذه الدقات المتصلة العمياء.. إنها مستمرة وطويلة.. وكأنها تريد أن تصل إلى بداية.. أليس كل ما يريده كل إنسان أن يصل دائمًا إلى بداية؟

إننا لا نعرف كيف نختم شيئًا أبدًا.. لا نعرف أن ننتهي ونريد دائمًا أن نبدأ. مهما مر من زمن ومهما عملنا، فنحن دائمًا نريد أن نبدأ.. نريد أن نبدأ عندما نتكلم.. وعندما نكتب.. وعندما نحب.. فلماذا لا أبدأ أيضًا.. عندما أريد أن أموت؟!

لقد تحققت في هذا الصباح من معنى الإرث الذي لم أرثه،

Twitter: @ketab_n

وها أنا أتحقق مع الظهيرة من معنى البدء حتى ولو كان ذلك للنهاية.. لقد قلت اسميهما. سميتهما على الورق.. فهل أستطيع أن أبدأ؟ لقد آن الآن والساعة القديمة تدق الثانية عشرة أن أتناول الحبوب والشراب.. أن أتمسك بكل لحظة لكي أبدأ.. وما زال الطريق إلى البداية طويلًا.

* * *

لا، لم يكن قلبي هو الذي يدق. كان وابور المياه يرسل هذه النبضات المتصلة وكأنه يستعد لشيء طويل لا ينتهي. عن قريب يرسلون المياه إلى الأرض ولكني لا أذكر الآن إلا وابور الطحين القديم وهو يدق بنفس هذه الدقات في الظهيرة مع صوت اليمام. أين اليمام الآن؟ هل ذهب هو الآخر؟ ما أندر ما أراه الآن وما أسمعه. ولكن ها هو يعود، هنا في دميرة. وها هو يرسل هذا الشجو البني الغريب الذي لا يصدر إلا منه، وكأنه حلم لا يتحقق أو نداء إلى طريق لا يقدم فيه أحد.. علمني المسلمون أنه يقول: «وحدوا ربكم».. وأنا أحس الآن كما كنت أحس وأنا طفلة أن هذا النداء لي.. وأن الرب يدعوني لشيء لا أفهمه ولا أستطيع أن ألبيه.

لماذا عدت يا يمام؟ وابور المياه.. وابور الطحين.. وقلبي.. وأنا لا أعرف كيف أبدأ ولكني أعرف في الظهيرة الساطعة، وفي هذا الألم الذي بدأ يتصاعد في ظهري ورقبتي وأسفل بطني.. وأريد أن أصبر وأن أحتمل وأن أسمع للنداء.

للرب طرق عديدة يدعو فيها البشر، وأشد هذه الطرق رعبًا ورعدة تلك التي يخلقها في نفس الإنسان فجأة وفي لحظة غير

Twitter: @ketab_n

مفهومة أو مرتبة ليرى فيما حوله معنى لم يكن يراه، أو ليدرك في يقين مخيف أن الجو المحيط به ينذر بشيء وأن هناك أمرًا ما سيقع إن لم ينفذ الدعاء.. إن لم يسمع هذا النداء. هل ما زلت أستطيع أن أمسك بشيء؟ هل ما زلت رغم الألم قادرة على أن أذكر وأتذكر وأن أسمع هذا الصوت في داخلي الذي يتصاعد فجأة ويروغ مني ويختفي ويترك كل شيء كما هو: نور الظهيرة.. والألم.. ومن بعيد صوت اليمامة؟

قالت لي أمي في يوم من الأيام التي لا أذكرها، لا.. كان ذلك في ظهيرة ـ كظهيرة اليوم ـ وهي في المطبخ تعد ليوم الغطاس:

ـ افرحي يا براكسية. مع لونية وفومية.

كانت تلقنني بعض كلمات التمجيد التي سننشدها في الكنيسة عندما نذهب بعد أيام، يوم ١٣ طوبة، لأجل شهادة قديستي دميانة. وبعد أيام ومع عيد ميلادي سيأتي هذا اليوم مرة أخرى ويحل عيد استشهادها. وقد جئت لأكون قريبة منها.. فكم سنة مرت.. وأنا قريبة من دميرة.. وكم سنة مرت وأنا بعيدة عن دميرة وأنا أسمع النداء وأريد أن أذهب مرة أخرى إلى بلقاس لأحضر القداس في يوم تمجيدها.. وكم مرة كنت أذكر خلال السنة وأنا بعيدة عن يوم مولدي.. برودة طوبة وتاريخ استشهادها.. أو جو بشنس وتلك الكلمات الدقيقة في الكتاب المقدس في منتصف صفحة العائلة، من عام ١٩٢٨، هذا الخط الأنيق الدقيق لأبي وهو يكتب: «في الصباح ذهبنا إلى الكنيسة ونبهنا على وكيل الدير بإعداد المعمودية للطفلة».. هذه الطفلة المسطورة في تلك الكلمات التي ما زالت هناك في الزيتون.. لماذا

Twitter: @ketab_n

لم أحضرها معي؟! هذه الطفلة المسطورة زمردة أيوب عبد الملاك.. «هذه هي الصبورة.. العفيفة دميانة».

ألا ينتهي هذا السحر والنداء في صوت اليمامة؟ لقد ظننت اليمام قد اختفى من أرض النيل.. كما اختفت كنوز عزيزة أخرى كثيرة. ولكنه يدعو ويدعو وهذا النذير في داخلي يوجع وجعًا متصلًا.. لا أستطيع معه أن أواصل الكتابة.. كم تضيق أنفاسي.. وبدايتي.

* * *

على فراشي.. خلايا دمي أيضًا تتغير. ما أغرب «المورفولوجي»! لقد سميت الوجع «ديمومة» ولكنه تغير. ديمومتي هي تغيُّر متصل نحو الموت. ولكن أليس هذا هو الحال لكل حياة؟ لماذا أعاتب القدير.. وأنا أنتظر يوم مولدي؟ لماذا أقول إنه يمتحنني وأنا ما زلت حية وأكتب؟ لماذا أقول إنه يذوبني؟ وليته يفعل.. إن كل ما صنع هو «مورفولوجي» تتغير.. ألم أتعلم ذلك الآن عن «اللوكيميا»؟ دمي بكرياته البيضاء شكل يتحور و«يضمحل ويزول» مثل السحاب. «السحاب يضمحل ويزول»، والحياة تضمحل وتزول، والحب يضمحل ويزول، والوعي، هل يضمحل ويزول؟ إن ما أدركه.. يا إلهي.. يبقى، ولذلك أكتب.. حتى على الفراش أكتب لأنني ما زلت أريد أن أصنع الأفق أو أن يصنعني الأفق. فعندما نغلق الأفق لا ندرك وقد لا نموت، ولكن عندما نعلق الأفق بشيء، بشخص، بمعنى.. فنحن نحاول أن نتجاوز الحياة والحب والخلق لنصنع الديمومة. فإذا ما صنعنا الديمومة ـ كما فعلت ـ وجدناها في جوهرها تتغير.. يا رب هل هذا تجديف؟

Twitter: @ketab_n

ماذا إذن هذا الدم الأبيض الذي يسري في جسدي وتتكسر خلاياه ويتغير شكلها؟ هل هو سر الوجود والعدم معًا؟ هل هو المجموع الذي لا ينقص ولا يطرح منه شيء؟ الكل فيه.. الموت والحياة، الحب والعدوان بالكره، الأمل الذي لا ينفد وساقية الوديان التي هي «عكرة بالبرد ويختفي فيها الجليد. إذا جرت انقطعت. إذا حميت جفت من مكانها».

لماذا أذكر أيوب وأقرأ لا أكتب؟ «أبحر أنا أم تنين حتى جعلت عليَّ حارسًا؟ إن قلتُ فراشي يعزيني، مضجعي ينزع كربتي.. تريعني الأحلام، وترهبني برؤى».

* * *

الساعة القديمة تدق التاسعة. لقد توغلت في الليل ولا أدري ماذا فعلوا بي.. ماذا فعلت تفيدة قبل أن توقظني لتعطيني الدواء مرة أخرى؟ هل أكلت أو شربت قبل ذلك؟ ماذا حدث في البيت من الصباح؟ ليتني أستطيع أن أقوم إلى غرفتي القديمة على الشرفة الداخلية للمنزل وأجلس مرة أخرى على الكرسي الهزاز بمخدته الملونة تحت شباك دميانة الزجاجي الملون وحولها الأتراب الأربعون.. لقد جئت لهذا.. ولكنني ما زلت لا أستطيع. قالت تفيدة قبل أن تذهب إن أبانا حضر ولم يوقظني وإنه قال إنه سيأتي ليأخذني إلى الكنيسة في يوم الست دميانة. لماذا لم يوقظني؟ وهل سأبقى حتى هذا اليوم.. اليوم وغدًا وبعد غد؟ إنني لا أفكر في عيد ميلادي قدر ما أفكر في الكتابة.. في الطريقين اللذين عليَّ أن أتخذ: طريق الموت أو طريق الخطية. كلاهما تذكر. الموت صمت والكتابة صوت الخطية. كلاهما ما زال مفتوحًا

Twitter: @ketab_n

أمامي. ولكن الموت تخلُّص وليس خلاصًا. إنني أبتسم لنفسي وكأنما أعود صبية وأنا أكتب.. أما طريق الخطية فهو طريق الخلاص. هو طريق الإخلاص والشجاعة وتحمل العدل.

أليست هذه كلمات أبي؟ نعم «تحمل العدل»، هذه كلمته. لقد قالها لي وهو يريدني أن أتزوج من حكيم غالي. كنت ما زلت في السابعة عشرة وكانت دميانة قد امتلكت روحي. وكنت أحلم بهذا القصر المنيع الذي تعيش فيه مع أترابها بعيدًا عن كل رجل، عروسًا للرب. وكان أبي حينذاك في قلب قضيته التي لم أفهمها وما زلت إلى الآن. كان قد دخل في صراع غريب مع بعض الرهبان الذين أخذوا دون وجه حق أرض الكنيسة وسجلوها لأنفسهم ولعائلاتهم. وكان يحاربهم في المجلة وبالكتابة، وكان البطريرك يحبه، ولكنهم استطاعوا أن يحرموه من عمله في تفتيش الأمير عمر طوسون.. فهل كان من العدل أن أحتمل الزواج، من أجله، من حكيم غالي وهو يكبرني بأكثر من أربعين سنة؟

هل كان من العدل أن يغريني بهذا الشباك الزجاجي الذي صنعه لي على نفقة العريس في بيت العريس؛ قديستي الحبيبة وفي يدها سعف النخل وحولها أربعون من أترابها؟

هل كان من العدل أن أبقى هكذا في البيت عروسًا غير عروس وأن أحمل، على الرغم مني، دانيال وأن أذوق موت أبيه دون أن أحبه أو أعرفه؟ لقد تركني أبي وتركتني أمي وعادا للقاهرة ليستقرا في الزيتون ويتركاني وحدي هنا قبل أن يموت حكيم، وبعد أن يموت ودانيال في يدي. كل هذه الأرض التي ورثها

Twitter: @ketab_n

حكيم عن عائلته وأرضه هو التي اشتراها وأضافها إلى أملاكه، كل هذه أصبحت لي، ولدانيال، ولكني لم أكن أملك شيئًا إلا هذا الاختفاء الغريب الذي أراه في قديستي وهي تتمسك بالزجاج ولا تخرج منه أبدًا.

وأنا صغيرة كان أبي يحكي لي - وأمي أيضًا - عن «قبة الظهور»، قبة في الكنيسة القديمة التي لم أرَها. وكانوا يحكون أن جلاليب الزوار الملونة في المولد تنعكس على جدرانها فيصرخون جميعًا: «السلامة لك يا جميانة.. السلامة لك يا جميانة.. السلامة لك يا جميانة».. ويتوقعون القديسين.. منذ ذلك الحين لم أكن ألبس فستانًا ملونًا إلا وأذكر قبة الظهور. هذه الحقيقة غير الحقيقة. هذا الأمل في النفس الذي يخلقه ما يصنعه الإنسان بجسمه وما يعطيه له من لون.. هل كان الناس يعرفون أيضًا أن القديسين الذين يتوقعونهم هم مجرد خيالات ولكنهم كانوا لا يهتمون.. ولا يهتمون إلا بقبة الظهور؟ لو أن أبي هنا ليحكي لي هذه القصة من جديد.. ولكنه الآن مع أمي خيالات كخيالات القديسين المتوقَّعة.. وأنا وحدي من جديد في البيت.. بلا قبة للظهور وليس هناك إلا الشباك القديم الملون تختفي فيه دميانة وأترابها الأربعون. وجميعهن صامتات. كل واحدة منهن في لوحة ولكل منهن مكان وكلهن حولها في المكان، بلا تلاحق ولا زمن. لقد تلاشى العذاب من وجوههن واختفين جميعًا في الزجاج صامتات. فهل هذا ما يفعله العذاب؟ هل يحاول المرء أن يختفي عندما يتعذب حتى يصبح صورة على زجاج؟ وهل لذلك يرسمون القديسين على الزجاج الملون؟ مزيج

Twitter: @ketab_n

من قبة الظهور الموهوم ومن جهد الفرد الإنسان أن يختفي حتى لا ينفذ فيه أحد. فهل أصمت وأنتظر الزجاج؟

* * *

عندما ظلت الساعة تدق اثنتي عشرة مرة، واحدة بعد أخرى، بعد أخرى.. كنت قد اتكأت على الوسادة وأخرجت قلمي الذي يحمل بطارية صغيرة، هدية من دانيال ونحن في أمريكا لم تغادرني أبدًا. وحرصت دائمًا على أن يكون لديَّ مخزون من بطارية فلا تنتهي، ولكن ها أنا أنتهي بها الآن.. أخرجت القلم وكراستي الصغيرة.. الجديدة للطريق الضيق الذي اخترته.. وأردت أن أكتب فقط.. ماذا أنتظر؟ لماذا لا أضيء النور؟ ولماذا أطل في المرآة على تسريحتي في الغرفة فأجدني ضخمة سمينة كأمي ولست كذلك أبدًا؟ لماذا أحس أنني سمينة هكذا أو ثقيلة؟ إنني لا أرى خطوط جسمي في المرآة، لا أرى هذه «العصفورة الصغيرة» كما كان يسميني، ولا «ليتل موم» كما كان يقول دانيال. لا أرى إلا هذا الجسد الضخم المترهل لأمي وقد عجزت عن الحركة في أواخر أيامها من الضغط والروماتيزم وبدأت تموت سمنة.. كانت سمنتها تتزايد بسرعة وكأنها ستنفجر.. ولم تبقَ طويلًا بعد حكيم.. أليس كذلك؟ لماذا أريد أن أعد السنوات التي عاشتها قبل أن تلحق بزوجي الذي أرغمتني هي وأبي عليه وعلى فراشه؟ كان أبي يذوي هو الآخر، ولكنه كان يذوي ضؤولة وعصبية، وكان جسده يزداد كل يوم هزالًا وحدَّة وكأنه أسلاك صدئة.. نعم، هي ماتت بعد حكيم بسنتين وهو مات بعدها بثلاث سنوات أخرى.. ولقد كتب

Twitter: @ketab_n

أبي مولد دانيال ووفاة حكيم ثم وفاة أمي في ظهر الصفحة التي كتب فيها مولدي.. ولم أكتب وفاته فلم أستطع، ولن أكتب وفاتي، وهل سيكتبها أحد؟ صفحة العائلة انقطعت بعد خمس سنوات من زواجي. لماذا أنشغل بهذا الحساب؟ أنا أريد أن أعود إلى جسمي في المرآة، لا أريد أن أختفي في ظلمتها.. لا.. ليس بعد.. هل أضيء النور، أم يكفيني هذا النور الخافت الذي يذكرني بدانيال وكأنما أستطيع أن أنساه؟

يا ربي.. لماذا دفعتني إلى هذه الوحدة التي كانت طريق الخطية؟ ولماذا بعد أن حدث كل ما حدث تجعلني أعود مرة أخرى إلى نوع آخر من الوحدة أمام المرآة المظلمة؟ هل ستدفعني إلى شيء جديد؟ هذه السنوات الخمس والعشرون التي مضت منذ سافرت إلى أمريكا ودانيال معي في سنواته الخمس.. هذه السنوات هي ما أريد أن أجتاب وأن أواجه، هذه السنوات هي التي أوصلتني إلى «اللوكيميا». هذه السنوات هي التي جعلتني أجلس كما أجلس الآن في نصف الليل لا أرى نفسي إلا ظلمة في المرآة وأوهم نفسي أنني سأراهم جميعًا مرة أخرى.. في نفس المرآة المظلمة.

النوم وحده سيريني كل هذه السنوات الخمس والعشرين. في النور لا الظلمة يجب أن أكتب. ويجب أن أكتب وألا أبحث عن قبة الظهور. لقد تحطمت واختفت من سنوات وكل هؤلاء ليسوا إلا ذكرى بعيدة وكأنما كانوا يصنعونني فقط لأسير بمفردي ولأظل بمفردي ولأصل إلى «اللوكيميا» بمفردي.. ولأقف وحدي الآن أمام الرب بمفردي.. بمفردي.. في هذه الوحدة الجديدة ودموعي

Twitter: @ketab_n

في عينيَّ تخفي حتى هذا النور الضئيل في القلم، لتستبد بي رعدة طوبة التي في داخلي والتي لا يجدي معها بطاطين أو مدفأة.. حتى القِربة عند قدميَّ قد بردت.. وأسناني تصطك.

* * *

نور الفجر يوقظني وأصوات العصافير الصغيرة تنقر الظلمة وكأنها حبوب تجمعها قطعة قطعة وبنشاط متصل.. وبعد قليل يملأ الدنيا نور جديد.. وسوف يحدث هذا في كل صباح. بعد أن أرحل، كل يوم.. كل يوم.. كل يوم. وفي كل يوم لن أكون موجودة. ألا يجعلني هذا أحتمل الألم وأتحرك لأكتب؟ إن روحي تقوم فيها رغبة للصلاة وتتصاعد فيها الرغبة كما يتصاعد نور الفجر، ولكن رغبتي في الصلاة غائمة أيضًا وما زالت قاتمة كبقايا الليل. وأنا في عتبة الصلاة أحس أن إصراري على الكتابة أوضح وأكثر إلحاحًا، وتمتزج الرغبتان ـ الصلاة والكتابة ـ وأجد نفسي من جديد في الألم، في يدي القلم المطفأ والكراسة الصغيرة وكلماتي تتحرك مع تزايد النور.

ولكنني أريد أن أصلي وأريد أن أصلي بألمي المتزايد. هل في الألم تبرير؟ هل في الألم عقاب والعقاب جزاء وتكفير؟ هل بهذا تغلق الدائرة.. دائرة الخطية؟ إنني أحس خطيتي. وأحس وعيي وأحس حقي في الصلاة أكبر من أن أغلق الدائرة. إن دائرتي ستظل مفتوحة كأنها جرح لا يندمل أو كأنها هذا التفتُّت المستمر في كريات الدم بداخلي.

إنني يا رب لا أحسب التبرير بالعذاب ولكن التبرير بالوعي. ولكن

Twitter: @ketab_n

الوعي لا يحمل تبريرًا للذنب، بل يصنع مزيدًا من الشعور به. وكلما ازداد الوعي ازداد الشعور، فهل لا تبرير؟

يا رب.. إن رغبتي في الصلاة ورغبتي في الكتابة هما معًا التبرير الفيَّاض القائم في داخلي. ولكني لا أعرف على أي أرض من الوعي أو الغفران أنا قادمة. إنني أحس أنني في أعلى سلم، ومع ذلك عليَّ أن أصعد.. فإلى أين؟

الألم الذي أنا فيه هو غير الألم الذي أنا فيه.. فالألم الذي أصاب الوعي والشعور والإرادة هو ألم تم بغير وعي أو بغير شعور أو إرادة. والألم الذي أنا فيه هو فزع السلم الذي انتهت درجاته، وهو فزع الوعي الذي قد أُكمل.

يا يسوع.. أعطني القدرة على أن أعبر هذا البرزخ المستحيل بين التبرير والتكفير. إنك تعذبت وأنت تعرف. ولكنك تعذبت دون مبرر. عرفت العذاب كله من قطرة الخل إلى صرخة الهوة المخيفة وأنت تقول: «إلوي، إلوي، لِمَ شبقتني؟». ولكنك وحدك القادر على أن تحيل اللحظة وفاجعة الآن إلى تاريخ. وأنت وحدك القادر على أن تحول مكان الفتك والعدوان إلى طريق لبشرية جديدة.. أنت وحدك قادر.. أما نحن.. فأوانٍ هشة وقوارير لا نستطيع مهما فعلنا أن نحمل صليبك.. نحن أوانٍ هشة وقوارير كتلك التي على تسريحتي. ونحن أمام المرآة لا نستطيع بأي عذاب وبكل عذاب، أن نتبرر. ولا نستطيع أمام المرآة بأي وعي وبكل وعي إلا أن نظل دائمًا كما نحن نحن وأنا أنا في المرآة. دائمًا.

Twitter: @ketab_n

بعيدًا في الصيف

الزيتون،١٢ بشنس ١٦٩٣

اليوم مولد قديستي دميانة.. وأنا بعيدة من جديد، مرغمة على أن أكون في الزيتون. البيت الكبير فارغ من جديد لأنني عدت إليه وكأنما كنت أتصور أن يكون مليئًا. كم سنة مرت على هذا البيت منذ كان مليئًا؟ وما الامتلاء للبيت؟ لقد كان أبي فقط هو هذا المعنى كله. كان هو وحده يعني الامتلاء والحركة والناس والزيارة وكل أولئك الآباء والقضاة والمحامين من أصدقائه. كانوا جميعًا يهتمون بالزيارة وبالحديث، وكأنه كان الرجل الذي يجدون عنده معنى لكل محاولاتهم في الحياة أو كأنهم عنده ومعه يستريحون. كان أبي بما يقدمه من إصرار على العدل والأمانة يجذبهم إليه ليستريحوا عنده أو ليستريحوا منه. كانوا يريدون أن يطمئنوا أنه لن يكشفهم ولن يهددهم كما فعل في قضيته القديمة التي حارب فيها رهبان دميرة واستخلص للكنيسة الأرض منهم. كانت حربه الطويلة قد جعلته وحيدًا محرومًا من العمل، ولكنها

Twitter: @ketab_n

جعلته محطًّا لزياراتهم ولأوقات يقضونها معه. كانوا يعزونه. كانوا يقولون: «إننا لم ننسَك». ولكنهم كانوا جميعًا يؤكدون وحدته بعد أن اعتزل العمل عند الأمير طوسون وبعد أن زوَّجني في دميرة وتركني هناك وعاد وحده مع أمي إلى الزيتون يمضيان معًا الحياة حتى الموت.

هذه الصورة البعيدة للبيت المليء كنت أراها أحيانًا في أيام زواجي الأولى، وبعد أن ولد دانيال. عندما كنت أجيء إلى هنا في زيارات قصيرة أستريح كزوجة طفلة من غربة الزواج وضخامة الزوج عليَّ وحيرتي بالطفل الصغير الذي أعطانيه الرب وكأنه منحة.

وفي دميرة.. كنت أجلس وحدي تحت شباك دميانة على الكرسي الهزاز. وكان حكيم في عيادته طوال الوقت أو مع الأصدقاء في بيوتهم. لم يكن يكلفني أن أكون مضيفة لهم ولم أكن أراه معهم إلا في الكنيسة. هل كان يخجل مني ومن طفولتي في البيت؟ كنت في السابعة عشرة عندما تزوجت وكان قد تجاوز الخمسين. وعندما ولد دانيال كنت أحمله في يدي ليراه وكان ينظر إلينا معًا وكأنما لا يريد أن يرانا. كان وجهه فاجعًا كلما شملنا بعينيه الزرقاوين اللتين ورثهما دانيال وتحمر بشرته البيضاء. وكنت أحس أنه يقترب مني في الليل كأنني فاكهة محرمة في محراب. كيف أذكر كل هذا؟ ولماذا أكتبه؟ كيف لم تمحُ السنوات الطويلة كل هذه الذكريات وهذه اللحظات؟

إنني أذكر زمردة الصغيرة تحت شباك دميانة الذي هيأه لي أبي وحكيم أيام الزواج.. صورتها والأربعين. هي في الوسط في يدها

Twitter: @ketab_n

سعف النخل وفوق رأسها أربع، وعند قدميها أربع أخريات، وثلاث على كل جانب من الأربع وعشر أخريات في كل طرف من الشباك. أربعون، لكل واحدة صورة ولا أستطيع أن أميز كل واحدة عن الأخرى، ولكني حينذاك كنت أعرفهن وكنت أصطنع لهن أسماء، وأحيانًا كنت أحكي لدانيال وهو على حجري قصص الاستشهاد وأستعيد كلمات دميانة في المحاكمة والتعذيب. كنت أقرأ وما زلت أحفظ كلمات الميمر في اليوم الرابع من العذاب الطويل. وما زلت أتمثل في داخلي صوتًا خاصًّا مصنوعًا من حلاوة مسمومة أو رنين زائف كالرصاص المخلوط بقشرة من ذهب، صوت الأمير الذي تقف أمامه دميانة وهو يقول لها:

ـ أما طاب قلبك يا ستي أن تسجدي لآلهة الملوك وتخلصي من هذا التعب كله؟

ويتردد في داخلي أيضًا صوت دميانة القوي الواضح كخرير المياه النقية أو السيف الناصع المسلول:

ـ أيها الطاغي، إن الحكيم لا يقبل المجد والزهو الباطل، والجاهل مثلك أيها الأحمق لا يمل من قبول المجد الفارغ. وسيدنا يسوع المسيح، له المجد، قال في إنجيله المقدس وهو أصدق القائلين: «الويل لكم إذا قال فيكم الناس قولًا حسنًا... فاعلموا أنكم أخذتم أجركم».

وكنت أحس، وأنا في هذه الطفولة الوحيدة، أن الزواج وأن حكيم هو أجر لا أستحقه وقول حسن عليَّ أن أرفضه. وكان حكيم يعرف ذلك.

Twitter: @ketab_n

وعندما تشتد الظهيرة وأنا وحدي قبل أن يعود للغداء وأحس بالجوع، يحس دانيال على حجري كل هذا الحديث ويتحرك وكأنما ينظر إليَّ يريد أن يفهم فأحدثه بصوت عالٍ وأسترسل في قراءة الميمر وفي صور التعذيب الفظيع الذي صبوه عليها:

> جاءوا بقَدوم نجار وقـوَّروا به طبقة رأس الست دميانة ثم غلوا زيتًا وزفتًا وسكبوا رصاصًا أقلبوها في موضع ما قوروه، ثم قلعوا عينيها ثم سلخواْ جلد رأسها الباقي من التقوير إلى صدرها ثم صبوا زفتًا وزيتًا على الموضع الذي سلخوه. فحست القديسة بشدة العذاب الزائد.

وأصرخ أنا فيفزع دانيال على حجري وأنظر إلى السماء الواسعة أرقب الحمام الأبيض، وعند ذاك أسمع اليمام في الظهيرة بصوته الحبيب.

> وللوقت نزل طير حمام أبيض شافه الحاضرون على رأسها ورفرف بأجنحته عليها وعلى عينيها ولوقتها نهضت قائمة صحيحة من غير ألم البتة صحيحة العينين، سالمة الدماغ لم يكن بها مرض قط، وللوقت طارت الحمامة إلى الجو وغابت عن أعين الحاضرين.

أيتها الممتلئة مجدًا، أم النور الإلهي، مريم، سيدتي العذراء، هل تشفعين لي؟ أنا هنا وحدي في الزيتون أموت بمفردي، وكلي وعي بكل يوم أخطوه للموت وبكل لحظة تقربني منه. هل تمسحين عني كل هذه الذكريات؟ إن الألم والمرض أصبحا حقيقة ستزول

Twitter: @ketab_n

بالموت.. أما الذكريات وهذه الصور فهي باقية، أشد من الألم وأشد من المرض، ومعها كل الحياة. كل هذه السنوات الطويلة التي مرت في هذا الطريق الطويل من الشباك في دميرة.. إلى تلك الحديقة القديمة الخربة أمامي الآن في الزيتون. وها أنا أكتب من جديد في نفس كراستي الجديدة وبقلم دانيال غير المنير والظهيرة يشتد قيظها.. وليس هناك في كل الزيتون حمامة بيضاء واحدة.. ولا ترداد واحد لصوت يمام.

ماذا فعلت بكل ما كتبت من كلمات؟ ولمن أكتب؟ إنني بلا أكاليل.. ولا أملك إلا هذا الذبول والاضمحلال المستمر ونفضات اليقظة والقدرة التي أقف فيها على حافة الهوة تزاحمني الذكريات، ولم تعد حياتي إلا هذه الزحمة على الهوة.. وحتى أسقط، لا حياة لي إلا بالكلمات.

لم يعد للأفعال معنى. لقد ذهبت الأفعال القديمة بكل معنى ولم يعد أمامي إلا هذه المواجهة التي ليست هي فعلًا وليست هي حركة إلى الأمام، ولكنها مع ذلك شيء طبيعي في داخلي كحركة الموج أو تفتح الزهرة أو صمود الظهيرة.. لقد مرت الشهور الثلاثة منذ كنت في دميرة وأنا غير قادرة على الكتابة، ذهبت إلى الكنيسة في الثالث عشر من طوبة ومر ميلادي الخمسون دون أن أتلقى كلمة من أحد أو تهنئة إلا هذا الإشفاق الساكن في عيون من يعرفونني هناك لأنهم جميعًا يعرفون. ماذا يعرفون جميعًا؟ وكيف يعرفون؟ إن الكنيسة قد احتوتني طوال حياتي.. تزوجت فيها وصلوا فيها على أبي وأمي، ومن قبل على زوجي. وفيها عمَّدت

Twitter: @ketab_n

دانيال. وبعد وفاة حكيم تجمعوا فيها ليقرروا مع أبي أن أتقبل تلك المنحة التي حصلت عليها الكنيسة من الجمعية النسائية الأمريكية لتوثيق الصلات مع الكنيسة القبطية. لقد عرفت الكنيسة كل شيء عن الزواج وعن الحياة والميلاد والموت.. ولكن هل عرفت أي شيء عن روحي وخطاياي؟ لقد عرفتُ منذ التشخيص الأول لـ«اللوكيميا» الحادة بأني سأموت في أشهر قليلة لا تزيد على نصف سنة وكرسَت الكنيسة لي تلك الطبيبة الصغيرة، وكلهم ينتظرون هذا الموت بهذا الإشفاق الساكن الذي يرعاني في لحظات حركتي دون أن يقدم إلا عزاءً موجعًا لا أريده ولا أنتفع به.. بل كم أتمنى أن يتركوني وحدي بمفردي.. أموت وأكتب.

عزيزتي الطبيبة الصغيرة قد صنعَت كل شيء من أجلي. منذ تلك اللحظة الأولى التي شكَّت فيها في وجود المرض، ومنذ التحليل الأول للنخاع وتحاليل الكبد والكلى وتلك الكمية الصغيرة من الدم التي أخذتها من إصبعي. لقد كدت أموت وأنتهي منذ إبرة التشخيص الأولى، ولكنني اتفقت معها أن أعرف وأن أقرأ، وقد عرفت وقرأت. في لحظة ما قالت لي:

ـ إنك يا دكتورة تكادين تعرفين كل ما أعرف الآن.

قرأت في كتبها الضخمة كل ما هو معروف عن «اللوكيميا» الحادة والمزمنة، وتوقعت أنواع الأعراض قبل أن تأتي، وعرفتها وهي تظهر، وتدرجتُ مع الطبيبة في فهم البرنامج المعقد من الحقن والحبوب. واحتد وعيي بداخلي وأنا آخذ بانتظام تلك البودرة الحمراء التي تذوب لأُحقن بها فتصنع ذلك الإحساس البغيض بالقيء والغثيان،

Twitter: @ketab_n

وعرفت حبوب «البردنيزولون» التي أشعر بعدها بالتحسن وبعودة الشهية والإحساس البسيط بالجوع والرغبة في الطعام. وبعدها دائمًا كنت أستطيع أن أكتب. وفي بقية الأيام والأشهر الماضية والباقية أرقب أحيانًا ـ وكأنما أنظر في حركة دمي الداخلي وحركة النخاع في عظمي ـ كيف يتم هذا التآكل في كريات الدم وكيف تتكاثر الكريات البيضاء وماذا يصنع كل ما أتناوله من دواء في «الدي إن ايه» و«الآر إن ايه»، وكأن جسمي الذي تقيسه الطبيبة لتحدد الدواء قد أصبح مكانًا خارجيًّا تتم فيه فاجعة لا حيلة لنا فيها مهما فعلنا، ولا نستطيع أمامها أنا وهي والكنيسة وكل العالم.. إلا أن نرقبها.. وأن أحمل أنا وحدي مع الرؤية والوعي هذا الألم الشديد في المفاصل وفي الرقبة.. وتلك الأورام المفاجئة في أكثر من موضع.. وأحيانًا هذا النزيف الذي يتسرب مني وكأنه بداية انهيار السد الذي أخفي وراءه الحياة والذكريات.

يا رب كيف أكون مسؤولة على هذا النحو عن كل لحظة من لحظاتي الباقية! إنني لم أتغير وحدي.. لقد تغير كل شيء حولي، هذا البيت القديم والحديقة المهملة وشوارع الزيتون التي أصبحت صاخبة مكسرة محفورة تتصاعد منها ضوضاء لا تنتهي.. كل العالم حولي قد تغير. فأين الزيتون القديمة في أواخر الأربعينيات وأنا أستعد للسفر إلى أمريكا من الزيتون الآن.. وما أراه حولي من تفكك وانهيار وما أسمعه من تحاليل وتشخيصات مكتومة أو معلنة عن أزمة مصر! إنني، بكل ما أملك من صدق لا أكاد أملك غيره الآن، قد ترددت طويلًا أن أكتب اسم مصر. كان ترددي هو نفس التردد الذي أحسسته

Twitter: @ketab_n

وأنا أكتب اسم الحبيب الذي سمم حياتي أو اسم ابني الذي ضاع وغاب عني بعد تلك اللحظة المخيفة في حياتنا التي لم يستطع أن يحتملها. إنني أتردد في ذكر اسم مصر وكأنها كارثة خاصة غير تلك الكوارث التي يعرفها الناس والكنيسة، والتي صنعت حياتي وكونتني أنا الدكتورة زمردة أيوب.. دكتورة الأدب الأمريكي وأستاذة الجامعة التي تموت وحدها في بيت الزيتون الفارغ.

لماذا أكتب؟ ولمن أكتب؟ أليس الأفضل أن أعيش الألم في صمت وأن أقبل خطيتي في استسلام، وأن أموت بلا معرفة ولا ذكرى.. بلا تعريف.. ولا وعي؟ كيف استطعت إلى الآن أن أخفي كل ما أخفيت وألا يظهر إلا المرض؟ كيف غابت تلك الحياة الطويلة عن العيون واختفت بداخلي وحدي.. وحدي.. وحدي؟ ألم يحِن الوقت أن أسَلمها قبل أن أسَلم نفسي وروحي إلى هذه الكلمات؟ أليس من حقي أن أترك ورائي هذه الكراسة وأن أتصور أن عالمًا آخرَ بعدي، وأناسًا آخرين غير مَن عرفت، قد يجدون في هذه الحياة معنى، وقد يجدون للخطية تبريرًا وعندئذ قد أنال إكليل الصدق؟

إنني أصارع وحدي مع الظهيرة ومع الوحدة ومع اللحظة التي إذا ذهبت فلن أراها أو أعرفها من جديد، ومع تلك البقية الباقية من لحظات لا أعرف عددها، ولكن أشد من هذا جميعًا، هذا الإحساس القاتل للكتابة، لأنني أكتب للاأحد ولأن نفسي التي تكتب تعرف مقدمًا ماذا ستعرف حتى إن استطعتُ وقدرتُ على الكتابة. وليس أصعب من هذا الصراع مع ملاك المعرفة المسبقة. فلأصمت حتى

Twitter: @ketab_n

يغيب عني أو حتى أعرف كيف أشتبك معه. فهذه تفيدة.. ملاكي الصامت تحمل لي الطعام والدواء والجرائد.

* * *

لا، لن يستطيع أحد أن يجعلني أصمت بعد الآن. لم يعد هناك وقت للصمت، لقد آن لنا أن نتكلم جميعًا.. لست أدري من أقصد بـ«نحن جميعًا».. ولكنني أحس أنني متعددة وكثيرة وأنا راقدة على هذا الفراش في جو الغروب المقبض. ليست هناك نسمة واحدة تدخل من الشباك المفتوح، وكراستي على حجري وقلم دانيال في يدي وأنا أريد أن أتكلم وأن أظل أكتب حتى يتم التغير كله في دمي وحتى تسكت هذه الحياة نفسها. أحس أنني متعددة وكثيرة وأن كل من في مصر مثلي يحتاجون إلى هذه اللحظة التي ترغمهم على الكلام وعلى الكتابة المتصلة دون توقف. الكتابة حتى الموت. إنني لا أشتغل بالسياسة ولم أهتم بها مطلقًا. لقد كنت أحس دائمًا أن مصر قادرة على أن تصل إلى من يحكمها وحدها وأنها قادرة على أن تتصرف مع كل من يحكم بنفس القدرة الطويلة القديمة التي تصرفت فيها مع كل حاكم. هذا المعنى البسيط الساذج كان دائمًا يملأ نفسي ويجعلها تعيش منفردة بعيدة عن كل أمواج الرأي في السياسة والثورة وفي الإصلاح والمصالح. كانت مصر بالنسبة لي هي دائمًا بلدي التي أراها هناك. وأنا بعيدة عنها أو فيها.. هي زمردة مثلي ولكنها.. خضراء.. قوية صلبة، حتى وإن كانت ملقاة على النيل، حتى وإن علاها التراب.

كنت أحس أنها دائمًا مليئة وقوية وقادرة على أن تلد وأن تتوالد

Twitter: @ketab_n

وأن تعطي كل الناس فيها كل ما يريدون. كنت أحس دائمًا أن مصر مفضَّلة مميزة عند الرب وعند العالم وفي التاريخ. ولم يكن هذا كله تحليلًا أو معرفة، ولكنه شعور يتصاعد في نفسي ويفيض فيها كما يفيض النبع بالماء أو كما يجري النيل. لقد عشت بعيدة عن مصر سنوات طويلة، ولكن مصر كانت دائمًا هناك. كانت الأرض في دميرة وبلقاس هناك، وكانت الكنيسة بكل عزها وقدرتها هناك، وكان النيل والفلاحون واليمام والشمس والقمر و... ماذا أريد أن أقول؟ فقط أريد أن أقول إن شيئًا ما قد أخذ مني مصر وإن الذي يحدث الآن فيها هو مرٌّ قاسٍ مرير لا يُفهم وإنني أخشى وأنا أموت أن تتغير مصر تمامًا فلا أعود أعرفها.

إنني أعرف تمامًا أنني أكتب كلامًا ساذجًا في السياسة، ولكني لا أقصد إلا أن أكتب ما يحدث في هذه الروح التي تشرف على جسد ينهار، ويتآكل من الداخل. لقد أصبحتُ عاجزة عن أن أتابع شيئًا مما يحدث فيَّ إلا كما أتابع هذا النظام الدقيق الذي تضعه لي الطبيبة. إني أعرفه جيدًا وأدرسه جيدًا، ولكنني أعرف أيضًا أنه لا جدوى منه وأنه لحظة بلحظة لا يؤدي إلا إلى الموت. ولكن، أنا هي، التي تموت. وأما هذا الكلام المكتوب في الجرائد فهو كلام لمَرضى مثلي، ولكنهم لا يعرفون أنهم يموتون، ولا يريدون أن يعرفوا أنهم يموتون بلا وعي ولا معرفة، فلا يكتبون إلا هذا الموت. ولكني أريد أن أعرف التغير وهو يحدث، وأن أسجل التغيير الذي حدث، وأريد أن أكتب حتى الموت.. فهل أسترسل في هذا الحديث عن مصر أم أعود إلى نفسي؟ كم قد تعلمت

Twitter: @ketab_n

ودرست علاقة الفرد بالمجتمع! وكم قد تعلمت ودرست كيف يُصنع الفكر وكيف يُكتب الأدب! ولكني أدرك الآن وبعد كل هذه السنوات من الحياة والدرس والحب والضيعة أنني أقف بمفردي تمامًا. وأن كل ما حولي ومَن حولي لا يملك لي شيئًا. وأنهم أيضًا ـ مهما قالوا أو فعلوا ـ لا يملكون لي شيئًا ولا يملكون عليَّ قدرة.. لقد ضيعتهم كما ضيعوني.. وها أنا أخونهم جميعًا كما خانوني ولكنني لا أنتقم.. بل أقول الصدق.

وهل هناك صدق وراء الكتابة حتى الموت؟ قد أكون مغرورة وقد أكون مضلَّلة، ولكنني أحس أن ما حدث في روحي وجسمي هو انعكاس لما حدث حولي خلال تلك السنوات الطويلة منذ تركوني جميعًا وحدي، ومضيت أشق طريقي وحدي في الخفاء بلا زوج أو كنيسة، وبلا أب أو أم، حتى اختفى الابن ونشب في جسدي المرض. إنني عندما أكتب هذا أبكي لأنني أعرف أنني مخطئة وخاطئة وأنني وحدي المسؤولة عن خطاياي وأنني وحدي المسؤولة عن كل ما حدث. ولكن ألا يحق لي أن أبكي وأن أتهم وأنا أموت؟ ألا يحق لي وأنا أستعد لهذه اللحظات القادمة أن أخطئ من جديد في الحكم على الأقل وفي المعرفة؟ إنني لم أعد قادرة على أن أخطئ في السلوك، فهل أطلب العفو عن الخطأ أم المغفرة للخطيئة، أم أكتفي أن أتناول الدواء وأن أقبِّل تفيدة وهي تعدني للقاء «أبونا» من الكنيسة كما تقول؟ إنني أسمع ضجته وتمتماته في البهو وقد أنارته تفيدة له. ولكني لا أريد أن أترك القلم أو أن أطوي الكراسة؛ لأنني أحس الخفاء يتلبسني وأحس أنني غير قادرة على

Twitter: @ketab_n

أن أتلقى ما يحمله لي وأنني «أرى ناموسًا آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. وَيْحي أنا الإنسان الشقي! من ينقذني من جسد هذا الموت؟».

نعم.. من ينقذني؟

ما أشد هذه الحموضة التي أحسها في حلقي!

* * *

بمجرد أن خرج عادت لي الحياة. «مَن مِن الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه؟». كل ما قدم لي من كلمات وعظات.. وعزاء.. كانت تثقل عليَّ وتجعلني أريد أن أصرخ كي يصمت وأنا لا أستطيع. هل تستطيع المرأة أن تكون «أيوب»؟ هل من حقي وأنا أعرف كتابي المقدس أن أقول لهم ما قاله الرجل؟ كم كنت أريد أن أقول له بصوتي: «هذا كله رأته عيني. سمعته أذني وفطنت به. ما تعرفونه عرفته أنا أيضًا. ولست دونكم. ولكني أريد أن أكلِّم القدير. وأن أُحاكَم إلى الله. أما أنتم فملفقو كذب، أطباء بطالون كلكم ليتكم تصمتون صمتًا. يكون ذلك حكمة».

ما أغرب الكلمات في فمي وكأني أصنعها صناعة جديدة. وكأنها لي وحدي لم تُسمع من قبل. هل أستطيع أن أرتفع إلى هذه التجربة؟ هل، وأنا امرأة، أستطيع أن أتكلم بالحكمة وأن أقولها وحدي؟ يا رب، لقد كنت تُعدني لشيء غير هذا كله، وكانت روحي دائمًا غرور ترى ما هو أكبر مني على أنه وعد منك. عندما كنت طفلة نشأت في سيرة قديستي دميانة وكنت أعشقها وأحسب نفسي سأكون مثلها بتولية وعروسًا لك. كان جسدي الصغير يُعدني لذلك، وكانت روحي

Twitter: @ketab_n

تعرف القداسة في الأرض والسماء وفي النجوم ونبات الحقل. وعندما زوجوني ضاع ما أعددته لي، ولم أكد أحصل على الثانوية حتى صرت أمًّا وامتلكت من أجل أبي الأرض والضياع التي لم يفعل بها شيئًا ولم أفعل أنا بها شيئًا، وعندما ماتوا جاءني أب من الكنيسة، مثل هذا الذي ذهب، وقال لي في وحدتي في دميرة:

ـ سترعى الكنيسة الأرض. إن الله يُعدك للعلم.. اذهبي أنت إلى أمريكا وادرسي وعودي لنا دكتورة عظيمة وارعي دانيال يرعاك الرب.

ألم تكن هذه هي الكلمات التي صنعت حياتي من جديد وأمضيت بها هذا الطريق الطويل من ١٩٤٩ حتى ١٩٦٠ لتصنعني من جديد القوانين الاشتراكية؟ لماذا لم تُعدني يا رب لشيء لا يعبث به البشر؟ وأين تراكمت هذه السنون؟ كانت مصر تبعث لي أسهمًا مضيئة وبوارق، وكنت أتلقاها في فرح وكبرياء وتحدٍّ لكل مَن حولي. وكنت أعرف دائمًا أنني سأعود وأنني لن أتخلى أبدًا عن أرضي أو عن سُمرة النيل في بدني. لم أفكر لحظة أن أحمل الجنسية ولم أفكر لحظة أن أتزوج.

لقد مررت في سنوات الـBA وقامت الثورة وأصرَّت خطابات مصر، من الكنيسة ومن أصدقاء أبي، أن أواصل الدراسة حتى بعد انتهاء المنحة. وظلوا يرسلون لي دائمًا ما يكفيني ويكفي دانيال، وكنت أقول للناس هناك إنني غنية مستغنية، ومع ذلك عملت خلال سنتين في المكتبة قبل أن أحصل على الماجستير. وهناك عشقت «إميلي ديكنسون» وعرفتها.

Twitter: @ketab_n

إنني أتعقب سنوات حياتي كي أفهم.. فهل أستطيع أن أفهم؟ هل أستطيع بما أحكيه لنفسي أن أقيم حياة جديدة أو أن أتبرر أمام الرب؟ إنني لا أملك إلا هذا. وأنا غير قادرة إلا على أن أتذكر وأن أسيِّج ذكرياتي بالكرامة. لقد رعيت دانيال وربيته وتابعته في المدرسة. وعلمته في البيت كتابنا المقدس وحدثته طوال الوقت عن بلقاس ودميانة، عن دميرة وأبي والزيتون والنيل. وكم صنعت له من قصص، فهل يستطيع أن ينسى؟ إنني لا أريد أن أبكي الآن، ولا أريد أن أدع روحي تذهب إليه حيث لا أعرف الآن. أريد أن أنعم بتلك الذكرى وأن أعيش مرة أخرى وأنا على فراشي. لا أستطيع إلا أن أكتب تلك السنوات الخضراء السوية المنتظمة من حياتي. أريد أن يعرف أبي ـ وهو ميت، وأبي الذي ذهب الآن ـ أنني كنت طوال هذه السنوات، بنتًا تفرح بها الكنيسة وتحبها مصر. نعم.. كم كنت قريبة من مصر حينذاك وأنا في قلب «نيو إنجلند» وفي شقتنا الصغيرة أنا ودانيال في «أمهرست».. كانت مدرسة صغيرة على بُعد ناصيتين من شقتنا. وكنت أصحبه كل صباح إلى المدرسة وأنا فرحة فخورة كأنما أحمل جزءًا من مصر وأعرضه على الناس، وإن كنت أخفيه تحت قبعته الفرو والمعطف الثقيل وغطاء الآذان الصغيرة.. وما زلت أحس هذا الدفء الخاص به الذي أتصوره في بدنه الصغير وأنا أقبض بيدي العارية من القفاز على يده المغطاة المبلولة بآثار الجليد والثلج الذي يلعب به. وعندما يعود من المدرسة كان يجدني في البيت لأطعمه بيدي وأنا أطمئن إلى سعرات الحرارة والبروتينات والفيتامينات من كتب تربية الأطفال التي كثرت في مكتبتي وهو يكبر، أو يصيبه

Twitter: @ketab_n

البرد أو الغدة النكفية أو تؤلمه أسنانه أو تُجزع قدماه. يا صغيري إنك لم تستطع تذوق ما أطبخه لك من طعام مصري حتى أصبحت في السابعة وبعد سنتين من وجودنا في أمريكا. وبدأت تسعد بأن تقدم لأصحابك من البنات والأولاد الصغار الطعمية والبصارة التي أطبخها أكثر من سعادتك أن تأكلها أنت. ولم تستطع أن تقرأ العربية حتى انتهيت أنا من دراسة الماجستير وكنتَ تفضل دائمًا أن أقرأ لك في كتبك الإنجليزية أو أن تسمعني فقط دون أن تفهم وأنا أقرأ في الكتاب المقدس في نسختي العربية. هذه الليالي الطويلة يا دانيال هي عذري الباقي، وهي أيضًا ما أتقدم به إليك دائمًا لتعفو. ولكنك لن تعود أبدًا. لن ترضى أن تعود حتى وأنا أموت. ولكنني أستعيد في بدني وعلى جلدي أنفاسك الصغيرة وأنت إلى جانبي في الفراش هناك. لم يكن جسدي ما هو الآن.

كانت عذريته الكاملة قد عادت إليه، وكان عدوان أبيك وميلادك قد اختفيا تمامًا وانمحيا من مسام البدن. وكنت أضمك إلى صدري كما أضم زهرة أو سلة تفاح أو «أوركيد» أو عصفور الجنة. وكانت كلها في بيتنا الصغير دائمًا.. أتذكر.. كنت أقبِّلك قبلاتي الصغيرة السريعة على خدك وبين عينيك وفي جبهتك وعلى يديك وأنت تقول لي: «ليتل موم».. فإذا دخلت معك الحمام لأغسلك بالإسفنجة الزرقاء والماء الدافئ.. وقفت أمامي تستعرض بدنك الصغير وتحرك يديك وقدميك في حركاتك الرياضية التي تعلمتها في المدرسة أو في شجارك مع الأطفال. فإذا تعرَّى صدري وأنت تتحرك في يدي لمسته بيدك وساعدتك بكتفي وطرف ذراعي على أن تُدخله من

Twitter: @ketab_n

جديد وراء قميصي وأنا مشغولة في بدنك. وتمضي اللحظة السريعة سريعًا، ولا يخطر في بالي أبدًا أنك ستصبح رجلًا.

لماذا لم تظل صغيرًا يا دانيال؟ لم يكن يغادرك لطفك وأدبك وابتسامتك الهادئة الحلوة أو رغبتك في ألا تغادرني إلا إذا كان حولي رجل. فهل كنت تغار يا دانيال حتى وأنت صغير هكذا؟ لا، لم يكن هناك رجل أبدًا في أمريكا.. كانوا جميعًا حولي أصدقاء ومعارف وكبارًا في السن يساعدونني في الدراسة أو في الحياة وأوراق الفيزا أو الإقامة وتصريح العمل.. وحتى «فريدون» الذي فاجأتني، بعد ذلك بسنوات، بثورتك عليه، لم يكن يعني لي شيئًا. لقد أسرني بتجربته وحديثه عن ثورة العراق الجديدة وعن نوري السعيد وهو يُقتل. وكان هاربًا لأنه كردي وكان يتوقع الشر. لقد قص عليَّ قصصًا كثيرة فظيعة عن السحل في الشوارع وعن الجثث التي رآها وكنت خائفة ولا أفهم ماذا يحدث في المنطقة كلها. إنك تذكر يوم أن سهرتُ معه متأخرة وعاد معي إلى المنزل وكنت تنتظرني عند الجيران فلم تكن صغيرًا، بل كنتَ قد قاربت الرابعة عشرة، ومع ذلك إذا بك تفاجئني بأنك ستقول لوالدك. لم أفهم طبعًا ماذا تعني، ولكن كان غضبك واضحًا، وليلتها وأنا أصحبك إلى الفراش كعادتي وأقبِّلك لم ترضَ أن تقول: «ليتل موم».. ولكنني يا دانيال صرفته بسرعة وعدت إليك في الفراش، أحتضنك وأضمك إلى صدري، ويومها بكيتُ بكاء لم أعرفه في أمريكا أبدًا. بكيتُ لأنني وحيدة ولأنك بلا أب ولأنني أسلك وحدي في حياة لا أستطيع أن أُشركك فيها أو أن أُحدثك عنها. وقررت يومها أنني لن أتركك وحدك أبدًا.

Twitter: @ketab_n

وعندما قلتُ لك ذلك في الصباح لم ترد عليَّ. ولم ترضَ أو تنسَ حتى سافرنا معًا وأنا أتابع موضوع رسالتي إلى «يال» و«دارتموث» وأمضينا أسبوعًا معًا في بوسطن. ولكنك علمتني خلال رحلاتنا القصيرة أنك تنزعج وتغضب في داخلك الصغير كلما رأيتني مع المصريين الكثيرين هناك أو كلما سمعتني أتحدث معهم بالعربية. لقد كنتَ ترفض بوضوح أن تحادثهم إلا بالإنجليزية وبلغة صحيحة موجزة وكأنما كنت حريصًا على أن تكون أجنبيًّا عنهم.

وعندما عدنا إلى «أمهرست»، حيث لا نكاد نرى مصريًّا واحدًا، عدت تحاول العربية وتواصل الدراسة الجادة للكتابة والقراءة بها، وكأنما تريد أن تصالحني وأن تسترضيني.. ولا أظن أن هناك فرحًا في حياتي كان أكبر من فرحتي ليلة أن قلت لي، وأنا أضم الغطاء عليك في الفراش، وباللغة الفصيحة:

ـ يا أمي الصغيرة.

أمك يا دانيال لم تعد صغيرة الآن. إنها تموت انهيارًا وشيخوخة وأنت غاضب لا تريد حتى أن تعرف ولا تريد حتى أن تجعلني أعرف أين أنت.

نعم.. يا تفيدة.. أعرف أنها التاسعة.. سآخذ الدواء وسآكل.. لا. لا أريد التلفزيون.. ولا الراديو.. ولن أرد على التلفون.. لقد قرأت الجرائد في الصباح وهذا يكفي.. إنني لا أريد أحدًا ولا أريد أن أعرف شيئًا.. إن كل ما أريد أن أعرفه بداخلي.. دعوني.. دعوني فقط.. أكتبه.

* * *

Twitter: @ketab_n

لم أكن أعرف أنني أستطيع أن أحلم. وكنت أظن أن «الأكيوت مونوسيتيك لوكيميا» تزحم الحلم كما تزحم كريات الدم وصفائحه. لماذا لا يوجد في كتاب الطبيعة أي شيء عن الحلم في المرض وعن انعكاسات الموت بالزحمة في الدم على أفكار المريض؟ إنهم يحددون مواقع «الهايبربلازيا» والتكاثر المرضي للخلايا البيضاء، ولكنهم لا يحددون أي تغير في الفكر والأفكار والأحلام والرغبات وكل وظائف البدن النفسية. أليس البدن المريض له روح أيضًا وله حلم؟!

هذه الأفكار تزاحمني الآن وأنا أحاول أن أتذكر الحلم الذي أيقظني. هل أيقظني الحلم أم دقات منتصف الليل؟ إنني أنام وكأنما أنام في منحنى وأصحو لأستيقظ كلي رغبة للكتابة وللانتهاء من دفاعي. نعم. هل كان هذا هو الحلم؟ كنت في غرفة أعرفها تمامًا في الكلية في «أمهرست». كانت الغرفة التي تقدمت فيها لمناقشة الدكتوراه.

ولكنني كنت مريضة كما أنا الآن، بل وعلى الفراش، وأمامي ثلاثة غير الثلاثة الذين امتحنوني. وكانوا أبي ودانيال وكريم عبد القادر. إنني لا أستطيع أن أتذكر شيئًا من الحلم إلا تلك الحشرجة الصعبة التي ترفض أن تخرج من فمي ومشاعر غريبة صعبة على وجه كل منهم وفي يده، دون أن أستطيع أن أحددها أو أمسك بها. كان دانيال كأنما يريد أن يقوم ليمسك بي ويسندني، أما كريم فقد تضخم رأسه ووجهه الجميل وكأنما لا يستطيع أن يحمله، وكان أبي عصبيًا حادًّا يريد أن يتهم ولكن لا ينطق.. نعم هذا هو الحلم. إنه كان كابوسًا، ومع

Twitter: @ketab_n

ذلك أقوم خفيفة في عيني آثار دموع ورأسي كله مليء بـ«نيو إنجلند» وزهورها وحقول «إميلي ديكنسون» وحدائقها وصورة تلك الحديقة التي كانت تطل عليها من نافذة حجرتها التي كانت تفصل بينها وبين بيت أخيها وزوجته الصديقة «سو». لقد كرَّست نفسي لها في سنوات البحث الطويل. ثلاث سنوات قبل أن أسجل الرسالة وفي أيام عملي بالمكتبة، وثلاثًا من العمل المتصل بعد التسجيل. ولم يكن يفصلني فيها عن «إميلي» إلا مصر ودانيال. ولكنني كنت آخذهما معي دائمًا وأنا أبحث في أرضها وفي أوراقها وفي تاريخ عائلتها وفي خطاباتها، وأنا أصنف وأعد كلمات القصائد وأراجع قراءاتها، أحاول أن أستعيد ما كان في بيت أبيها من كتب، وأن أحدد ما قرأته منها. وقد علمت دانيال أن يميز الكثير من زهور ونباتات «نيو إنجلند». وكنت أحس أنني أتحدى ـ بما أحمل في روحي من مصر ـ كل من درسوا الشاعرة الأمريكية قبلي، وكل من حاولوا تفسير أشعارها وأبياتها. لقد كانت هي بنت «نيو إنجلند» تمامًا وبنت نهاية القرن الماضي. وقد عاشت تجربة عميقة من أجل التغيير في الشعر وفي الدين، ولكنها ظلت في عزلة كاملة وغربة تامة عن ناسها وعن كل من حولها. وأنا بنت مصر، وبنت الكنيسة، وبنت حضارة طويلة قادرة على الاستيعاب والتمثل، فلا يكاد يكون هناك في العالم كله من يماثلنا نحن المصريين في هذه القدرة على فهم الآخرين ووضع أنفسنا في مكانهم. إنما نتملك بهذه القدرة تاريخنا ونجعله ملكًا خاصًّا بنا.

هكذا.. في الزمن القديم كنت أتكلم. كنت جالسة أمامهم في تلك الغرفة أقول هذا الكلام وأعتذر به عن أنني، وأنا الغريبة في أمريكا،

Twitter: @ketab_n

أريد أن أضع تفسيرًا جديدًا لأشعار الشاعرة الأمريكية الخالصة وأن أغير في كل التفسيرات التي قُدمت لحياتها بل وأن أقول إن هذه التفسيرات لا تمسك بشيء وإنها قد أساءت الفهم والتقدير وحوَّرت كما تريد معاني الشاعرة لتُرضي أصحاب الرغبة في تتبع الإشاعات والغراميات الخفية والأخطاء المستورة والعلاقات المحرمة. فما أكثر ما كُتب عن الشاعرة! وما أكثر النظريات التي قدمت عن عاشقها القسيس من فيلادلفيا وعن معاني الغرام المتضمنة في أبياتها ومدى ما فيها من إشارات للجسد وعلاقات البدن. ولكني وقفت أمام كل هذا وقلت في بحث مستقل عن الرسالة ـ تقدمت به أولًا ـ إننا إذا أردنا أن نفهم شعر «إميلي» فلنكتفِ بهذا الشعر فقط، وإن كل ما يمكن أن تضيفه كل هذه النظريات هو أسماء غير مهمة وعناوين وأرقام لبيوت في شوارع لا تضيف شيئًا لقيمة الشعر ومعانيه الباقية. كان من السهل عليَّ أن أصنع الرسالة بنشر وتحقيق عدد من الخطابات أو ببحث تفصيلي في حياة أصدقائها أو عائلتها، ولكني فعلت ذلك كله واستبعدته. تخلصت منه كله كي أحتفظ بشاعرتي متكاملة مكتفية بذاتها وأن أراها كما أرادت لنا أن نراها في شعرها فقط.

كم ما زلت أنفعل وتمتلئ دمائي شبابًا يزيح المرض وأنا أتذكر هذا العناء القديم والإصرار المصري على ما اعتبرته حقًا. كنت مستعدة أن أستشهد من أجل شعرها ومن أجل أن أثبت أن حياة شاعرتي، «الملكة المنعزلة»، كانت كلها في الاستعارة والرمز الموجود في قصائدها القصيرة. وكان ديوانها الكبير الممتلئ بالنسبة لي مثل تلك اللوحة الزجاجية الكبيرة التي تسجل دميانة وفي يدها سعف

Twitter: @ketab_n

النخل، وصاحباتها الأربعون من حولها، ومع ذلك فإنها تسجل تاريخ عصر الاستشهاد كله، وتتحرك فيها صور الإمبراطور والأمير ومعاني العذاب والخلاص. وقلت هذا أيضًا. قلت لهم إنني أقدر بمعرفتي بالكتاب المقدس بالعربية على أن أفهم «إميلي». كانت «إميلي» تحفظ الكتاب المقدس وتنساه. وكنت أحفظ الكتاب بالعربية وأعرف لغة الملك «جيمس». وقد أدركت أن «إميلي» تتحرك في المعنى المستمد من الكتاب دون أن تشير إلى اللفظ، فجمعت كل إشاراتها المقدسة وتتبعت أثر الأغاني الكنسية على شِعرها وعلى وزنه ومقاطعه. لقد أقمت بناءً كبيرًا بمفردي وبروحي وبإحساسي بغربتي وقدرتي الموروثة على الفهم والتمثل والمحاكاة. أخذت دانيال في يدي ورحت أرى وأجمع زهور «نيو إنجلند» التي تكلمت عنها «إميلي» بل وبحثت عن أسمائها العربية. وعرفت أن «الهليوتروب» هو «رقيب الشمس»، وأن «الهوني سكل» هو «صريمة الجدي» وعلمت دانيال أن ينطق «الرودودندرون» وأن يعرف السم الموجود في «الهملوك» و«الأولياندر». وكم مرة صحبته ليرى شرائط «الفاوانيا البيوني» أو «عود الصليب» بزهراتها الحمراء والقرنفلية والبيضاء أو أن يلمس بيده القطيفة في «الماريجولد».

إنني الآن أحلم وقد تملكتني تلك اللحظات البعيدة التي كنت أجري فيها مع دانيال، وقد كبر وطال وهو يبلغ الرابعة عشرة، وأنا وهو نخرج للحقول مع طعامنا أيام الأحد. إن الصور تتحرك أمامي الآن وكأنني أقلِّب في صورنا الملونة في أدراجي - لم أنفض عنها التراب من سنوات - أو كأنني أرى فيلمًا ملونًا لنفسي وله وقد جرينا حتى تقطعت

Twitter: @ketab_n

أنفاسنا وجلسنا عند نهاية الحقل على صخرة كبيرة وإذا بي فجأة أسمع صوت صراصير الحقل وأتذكر أبيات «إميلي»:

أبعد في الصيف من الطيور

وعندما صرخت بالبيت لدانيال وقرأت له القصيدة كلها، أحسست أنني قد ملكت شاعرتي كما ملكَت هي دنياها وأنني حصلت على عنوان رسالتي: «أبعد في الصيف..». جلست إلى جانبه أشرح له معنى هذا الطقس الذي تتحدث عنه «إميلي» وهي تصف تلك «الأمة المستضعفة» من صراصير الحقل التي اجتمعت موغلة في الصيف قرب الخريف وبعد أن أعلنته الطيور لتقيم قداسها وتعلن النعمة القادمة وهي تغيير الفصول.. قبل أن تتحقق.

هل كان ذلك عام ١٩٥٨ أم عام ١٩٥٩؟ كانت أخبار مصر تتردد باستمرار في العالم. وكنت قد جمعت عزمي على أن أعود بعد أن أحصل على الدكتوراه مباشرة وأن يكمل دانيال عام التوجيهية في مصر ليدخل الطب. كنت لأول مرة أحس أن سنوات الغربة لا بد أن تنتهي وأني لا بد أن أعود بدانيال لأرده إلى بلده وكنيسته وأنني لا أستطيع وحدي أن أحتفظ به في أرض الغربة. وشجعني وضوح مصر في روحي وقرار العودة أن أقيم دفاعي الخاص في رسالتي وأن أنفذ إلى شاعرتي بكل تراثي ومعرفتي بالكتاب المقدس وأن أفهمها كامرأة تستشهد في الخفاء دون حتى أن تنتمي للكنيسة، كما تمارس العشق في الاحتمال وتسجل لحظات الطبيعة في قصائد مفردة من الشعر كأوراق الشجر وقطرات الندى أو لمعان النجوم أو قطع الزمرد الأخضر الصلب. ماذا لو أنني بقيت هناك «أبعد في

Twitter: @ketab_n

الصيف..»؟ وماذا لو أنني بقيت في الخريف هناك وعشت في المعجزة التي تعلنها أمة «إميلي» المستضعفة القليلة الشأن؟ ماذا لو أنني بقيت في هذا الخريف الذهبي الأحمر في «نيو إنجلند» وظللت هناك إلى أن أموت؟ لماذا عدت إلى مصر؟ لماذا عدت إلى مصر ولم أظل بعيدة أستشعر قدرها وقيمتها دون أن يمسني منها كل هذا المرض؟ لماذا عدت؟ ولماذا عدت في هذا الوقت بالذات الذي عدت فيه؟ لقد قص عليَّ «فريدون» في تلك الأيام التي عرفته فيها عام ١٩٥٨ وبعد ثورة العراق كيف عاد الملك فيصل والأمير عبد الإله ونوري السعيد.. وُجدوا جميعًا في بغداد يوم ١٤ يوليو، وكان المفروض أن يكون كل واحد منهم في مكان آخر. كان من المقرر أن يذهب الملك إلى خطيبته في لندن وأن يلتقي بأعضاء حلف بغداد.. في أنقرة.. وكان الأمير في إسطنبول وعاد بلا مبرر.. أما نوري السعيد فكان في لندن وطلب من الملك أن يستدعيه دون مبرر واضح أو معروف، وكلهم عادوا.. عادوا للسحل.. كان «فريدون» يغريني أن أبقى في أمريكا وأن أقطع صلتي بكل المنطقة، وكنت أتحرك إلى غير ذلك. كنت أحس أنني أتحرك إلى تغيير كبير وحاسم وأخير في حياتي.. كنت أحس أنني قد نضجت وقد اكتملت وأن ابني قد أصبح رجلًا لا بد أن يعود إلى وطنه وإلى ناسه. فماذا حدث لي بعد أن عدت؟ لماذا انقلبت الدنيا هكذا في داخلي وفي الخارج؟ ولماذا أصبحت امرأة أخرى؟ ولماذا خسرت كل شيء؟

كم كنت قوية وأنا في هذه الغرفة الصغيرة في «أمهرست» وأمامي

Twitter: @ketab_n

أولئك الثلاثة، أستاذ برتغالي كاثوليكي ما زال يحلم بالبرتغال ونبيذ البرتغال، وبولندي أمريكي نسي كل شيء عن بولندا، وقسيس بروتستانتي صلب من أمريكا البروتستانتية.. كان الثلاثة يحادثونني ويناقشونني برفق وفي نوع من الحرج. كنت أحس أن هناك في نفوسهم نوعًا من الخيفة من مصر وكأنهم يحسون أنني أحمل ما لا يحملون وما لا يمتلكون من الحضارة. كانوا يُخفون شعورًا لم يخفَ عليَّ بأنني مخطئة، وكلهم أشار إلى ضرورة اهتمامي بالخطابات وبأخطائي في الفهم؛ لأني لم أدرس حياة شاعرتي بما فيه الكفاية ولأنني لم أتعرف بالتفصيل على تاريخ «أمهرست» الاجتماعي والسياسي. ولا شك أنهم جميعًا قد أصابوا في تصحيحي وأن هناك خطأ كبيرًا لم أعرفه إلى الآن قد وقعت فيه، ولكنهم اشتركوا جميعًا في الإعجاب بجرأتي، بل وحاولوا أن يصفوا وأن يمتدحوا هذا الهامش الذي عشت فيه غريبة في أرضهم وفي أدبهم.. وكأنما لم يكونوا هم أيضًا غرباء.

كانت مناقشاتهم لي كأنها غزل خفي، وكنت أحس ذلك وأسعد به، وأزداد إحساسًا بتفردي وبقدرتي وبرغبتي أن أعود إلى بلدي. لماذا يتميز أولئك الأمريكيون بتلك القدرة على الإعجاب بالغرور والعماء واعتبارهما إنجازًا وتحقيقًا يستحق الاحترام والتوقف عنده؟ عندما خرجت من الغرفة كان دانيال في انتظاري ليأخذني في أحضانه قائلًا بفرح حقيقي:

ـ مبروك «ليتل موم»!

واقترب منا البرتغالي وأنا في أحضان ابني وقال:

Twitter: @ketab_n

ـ احرص عليها أيها الرجل الصغير.. فما أكثر من يحسدونك على هذه الجوهرة الثمينة.

ودفعت نفسي أكثر في أحضان ابني وأنا أنظر إلى الأستاذ وأبتسم وأحس أنني أريد أن أعطي نفسي كلها وأن أستسلم للمستقبل ولهذه المعجزة الغامضة لتغيير الفصول في نفسي وفي نفس ابني.. وفي حياتنا معًا.. فهل كانت رسالتي تعني كل هذا؟ وكيف كان لي أن أرى كل هذه السنوات التي تفصلني الآن عن تلك اللحظة البعيدة بعيدًا في الصيف على شفا تغيير الفصول؟

ما أخفى تسلل الفجر الآن إلى غرفتي وأنا في هذا الليل الطويل لا أرى إلا الماضي ولا أحقق إلا الموت الذي لا يتحقق؟ يا رب امنحني القدرة مع الفجر على أن أذكر اسمك وأن تتصاعد آياتك على لساني في هذه اللحظات التي تفرق فيها بين الظلمة والنور والتي تغير فيها الأوقات والأزمنة... «ليكن اسم الله مباركًا من الأزل وإلى الأبد؛ لأن له الحكمة والجبروت. وهو يغير الأوقات والأزمنة. يعزل ملوكًا وينصب ملوكًا. يعطي الحكماء حكمة، ويعلم العارفين فهمًا. هو يكشف العمائق والأسرار. يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور». يا رب.. هل من حقي أن أسكن إليك لأنام؟ فما أقربني من تغيير الفصول.

* * *

هذا هو نور الصباح يملأ الغرفة كلها ويفضح الخفاء كله. وحلمي ورؤيا رأسي على فراشي تعاودانني من جديد.. هل صرخت؟ لا أدري.. ولكنني أقوم فازعة غارقة في عرقي وكأن

Twitter: @ketab_n

مياه البدن كلها قد سالت.. ويدي ما زلت أرفعها وأنا راقدة أريد أن أتحدث.. وهم الثلاثة أمامي في الغرفة، أبي ودانيال وكريم. في نفس وضعهم الذي رأيتهم فيه أول الليل وبنفس حركات أيديهم وتعبيرات وجوههم.. فقط كان أبي يتكلم وكأنه قسيس في كنيسة يقدم العظة. كان على لسانه كلمات كثيرة ولكنها كلمة واحدة تتكرر في دمي وفي روحي، كلمة باترة، قصيرة، طويلة، جارحة لا تزول. كلمة دانيال وهو يغادرني إلى الأبد.. كلمة لم يكن يعرفها أبي.. ولكنها تجمعهما الآن في الموت والغربة وتفصلني وحدي حتى عن كريم الذي جعلني: ز.. ا.. ن.. ي.. ة.

متى أستطيع أن أواجه الرؤيا لأستريح إلى الأبد؟ متى أستطيع أن أرفع الخفاء عن حياتي لأرى الأفق بلا فصول؟

Twitter: @ketab_n

الآنية المسروقة

ماذا بقي لي غير الكلمات، غير هذه الكلمات التي أصنعها على الورق كلما دخلت هذا الهامش بين الصحة والمرض أو كلما أحسست أنني قادرة على شيء، ولست قادرة إلا على التذكر؟ إنني أريد المعرفة وأريد الخلاص، وفي كليهما طلب كثير، وكلاهما دليل على طمعي الزائد الذي لا ينتهي.. ومع ذلك أقول إنني لا أريد شيئًا ولا أملك شيئًا. إنني أقصد بالطبع أنني غير قادرة على متعة أخرى غير متعة الكتابة. ولكن هل هي متعة؟ وهل أنا أحاول في مثل هذه اللحظات التي أجد نفسي فيها قادرة أن أتمتع؟

لقد كنت قادرة على المتعة، وما زلت رغم تهالك البدن أحس رغباتي عميقة غائرة تريد أن تصعد كأنها حِيتان ضخمة من قاع المحيط. إنني أتبيَّن في نفسي رغبة، بل رغبات كثيرة، وحرصًا على التشبث، ليس فقط بالحياة، بل بكل ما ملكتُ في الحياة وبكل ما ضاع في سنوات خطيئتي. هل هذا طبيعي مع أولئك الذين يقفون على حدود الموت؟ هل أنا أعيش لحظة طويلة مستطيلة ممدودة من

Twitter: @ketab_n

لحظات خروج الروح من البدن؟ وهل يعرف الناس جميعًا في تلك اللحظة كل ما أحاول أن أعرفه الآن وأن أسجله؟ هل يعرفون هذا الشعور بالانتزاع، هل يحسون كما أحس ما يملك المرء؟ هل يعرفون هذا الشعور بالانتزاع، هل يحسون كما أحس الآن وكأنني ألد؟ كأن شيئًا يخرج من بدني وأنه سيجعلني أموت.. إنني أذكر لحظات ولادتي لدانيال وأنا أصرخ أريد أن أموت، ولكني أذكر أيضًا لحظات الحب العنيف القاسي الذي عرفته والتي كانت تجعلني أهمس أيضًا بين أسناني أنني أريد أن أموت أو أنني أموت.. وتنتهي لحظة الولادة ولحظة الحب ويجوع البدن لكليهما مرة أخرى، ومرات. وكلما أُعطي له عرف دون أن يعرف، تلك اللحظة القادمة، التي لن يعرفها إلا إذا مر في لحظة الانتزاع الأخير.. لحظة النزع الصاحي اليقظ رغم كل ما يحيطه من غياب وشيك.

هل لم تعد هناك فعلًا متعة أستطيع أن أمارسها؟ إنني لا أريد الطعام ولم تشتهِ روحي أبدًا مائدة أو أطباقًا معينة، رغم أنني أحيانًا أشتهي السمك المشوي. ولكنني أضحك على نفسي وأحصل على قطعة صغيرة منه لا أكاد أستطيع أن أكررها.

وأحيانًا أتصور أنني أريد أن أشرب كما كنت أفعل مع كريم فلا يذكِّرني هذا إلا به. إنني أريد أن أطمس عقلي ووعيي، وإنني أريد أن أحطم لحظة الوعي في داخلي أو لحظة العذاب، وإنني أريد في الحقيقة أن أتعجل الموت وأن أستحضره. لقد بدأت أفقد القدرة على القراءة إلا في الكتاب المقدس وفي «إميلي ديكنسون». وفي كليهما، أنا فعلًا لا أقرأ، ولكني أترك ما أعرف يصعد من جديد وكأنما

Twitter: @ketab_n

أدير شريط تسجيل قديمًا أعرف كل جزء قادم منه. فإذا تبينت جديدًا فلأنني تذكرت شيئًا لم أكن أذكره، أو عرفت عن الماضي ما لم أكن أعي به وعيًا كاملًا، أو لأنني وأنا أقرأ في «متَّى» و«مرقس» أو أقرأ في «إميلي»، وأحس فجأة أنني هي التي تنطق وهي التي تقول، وأن هذه الكلمات التي أقرأها تحمل معاني قديمة عن حياتي القديمة مهما كان فيها من جديد عليَّ الآن.

لا.. ليس هذا صحيحًا، أنا أقرأ في «إميلي» أو أقرأ في الكتاب المقدس وأكتشف أنني لم أرَ كل شيء في حياتي، وأن معرفتي القديمة بهما كانت غرورًا وعماء وأنني أعرف الآن ما لم أكن أعرفه من قبل. ولكني مع ذلك أحس أنني ما زلت في نفس البقعة التي كنت فيها وأنني أقلب النظر فقط، فأرى ما كان يجب أن أرى من قبل وأتبين تعجلي وتسرعي القديمين وتصوري أنني قد عرفت كل جزء من هذه الأرض التي يمثلها كتاباي الكبيران.

ولكن هل يصبح هذا جديدًا؟ هل يكون هذا اكتشافًا أم حسرة على الجهل القديم؟ إنني أقرأ فيهما كثيرًا؛ فهما كل ما أستطيع، أو كل ما أريد، أن أقرأ الآن. ولكنني لا أستطيع أن أعتبرهما متعة أو أن أقول إنني أعود إليهما لأتمتع. نعم.. لم تعد هناك متعة؛ لأن المتعة أمر يتعلق بالمستقبل. وقلب المرء لا يتمتع إلا بما يعرف أنه يعده للمستقبل ولا يتمتع إلا بما يعرف أنه قادر على أن يكرره وأن يصنعه من جديد مرة أخرى. ما أغرب هذا المعنى للمتعة التي كنت أظنها دائمًا حاضرًا مكثفًا، فإذا بها بعد من أبعاد المستقبل. وعندما يموت المستقبل تموت أيضًا القدرة على المتعة.

Twitter: @ketab_n

ما هذا إذن الذي أريده وأتشبث به وأحس أنه رغبة عارمة قوية أحسها في أسناني وأظافري، في يديَّ وقدميَّ وأطراف كتفيَّ وأعماق بطني بل وجذور شعري؟ إنها ليست تعبيرًا عن المرض نفسه؛ فأنا أعرف آلامه وأتبينها وحدها، وأتوقف عن الكتابة عندما تتملكني. إنني أعرف أنني أريد وأرغب بجسدي وبناموس أعضائي الذي تغير واضطرب منذ عدت إلى مصر وبدأ يفرض نفسه عليَّ كأنه حيوان يتنفس في داخلي بمفرده، أعرف أنفاسه وحركته ولا أعرف وجهه ولا إرادته إلا أن تكون هي هذا التغيير الخطير في حياتي وفي بدني منذ أن عدت من أمريكا وتنفست من جديد هواء مصر وضوءها. ولكنني لم أعد أملك الآن أن أترك هذا الحيوان الخفي يتنفس بمفرده. لم أعد أملك أن أتركه يوجهني وحدي وأن يدفعني إلى ما لا أعرف وما لا أستطيع احتماله. لقد انتهى هذا العهد. لقد مضت السنوات التي كنت أستطيع فيها أن أتحرك وأن أتنقل في الشوارع وأن أواجه الناس وأن أتناقش وأحارب وأبتغي وأطمع.

لقد مضت هذه السنوات وأصبحت جميعها ورائي مجرد ذكريات، وكأنها الأرض في دميرة وبلقاس بعد أن ردتها الحراسة، أملكها ولا أملكها، وهي على كل حال حمل ثقيل على أنفاسي.

إنني في وحدتي هذه مع الكلمات أريد أن أمسك بهذه الرغبة المتحركة في أعماقي وكأنها جمجمة بركان يريد أن يتفجر، أو غليان مكبوت أو رغبة خفية لامرأة في الخمسين تحلم بأن تُغتصب. فهل هذا فعلًا هو ما أريد؟ إنني بلا خوف؛ فقد تجاوزت الخوف وأنا أسير في طريق الهاوية، ولكن الرغبة الخفية المعماة أشد من الخوف وأقسى.

Twitter: @ketab_n

إني أحسها الآن في البقعة السمراء المجعدة من ثدييَّ وفي النبضات المتوالية المضطربة في فتحات البدن، وفي تلك الرعشة القديمة على طرف شفتي العليا. فماذا ظل في هذا البدن حتى تظل فيه هذه الرغبة في أن يُغتصب؟ لقد تقطعت دورتي الشهرية منذ سنوات أربع وبدأت أعرف ـ كما قال لي الطبيب يعقوب ـ هذا العرق الليلي الغزير. ولكنني كنت دخلت حدود الوحدة والتخلي، ولم أعد أعرف في البدن إلا أنه يقتات وينتظر دانيال حتى جاءني هذا العام، عام المرض والاستعداد الأخير. فهل تعود الرغبة بعد كل هذا، وفي هذا الضحى المكظوم من أغسطس وكأنه ظهيرة؟

هذه الكلمات التي أكتبها هي السبب في عودة هذا الرعب الصاعد من الأعماق، فهل أواجهه أم أترك الكلمات التي هي كل الحياة الآن؟

* * *

نعم، كل شيء يطلب مني ويدفعني إلى أن أترك هذه الكلمات. لن يرضى عنها أحد. لن يرضى عنها أبي ولا دانيال ولا كريم، ولن يرضى عنها الرب. إن المرض يكلفني الكثير، وكان أفضل لي أن أصمت. والرب يقول: «ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم». وهذا كله يخرج من فمي الآن. كل هذه الشرور التي تمت في الخفاء. كل هذه السنوات التي صنعت الخطيئة وأدت إلى المرض.

لقد ارتعبت من الرغبة ومن الحيتان السوداء الساكنة في أعماقي عندما تتحرك. ولكن الحظر والخفاء يعذباني، وكأنهما أمير الظلام القاسي الذي عرفته دميانة. ولو أنني صمتُّ لضاع عذابي كله في هذا

Twitter: @ketab_n

الحظر والخفاء الطويل الذي تمتلئ به الدنيا من حولي. وما يخرج من الفم قد يكون أيضًا شهادة وصمودًا. لن أكون أنا التي «تنزل سرًّا وتهرب».

سأصمد لكل عذاب، سأواجه كل إهانة وإذلال، سأعرف التكبر والإنكار والامتهان لما أقول، ولكني سأحتمل ما أتوقع، فليس هذا كله إلا «التعب الأول». لقد جردوا لحمها بأمواس حادة وأمر الطاغي أن يدلكوا جلدها بخرق من شعر خنزير، بخلٍّ عتيق وجير من غير طفي. ومضت قديستي في العذاب من غير تردد. فلماذا أتردد أنا في مواجهة الشرور التي هي في داخلي وفي تحمُّل ما أجريته بنفسي على نفسي؟

لقد ارتعبت مما اعتراني هذا الصباح من رغبة قائمة باقية وطلبي الخفي الدفين أن أُغتصب. كنت أحسب أنني قد تحصنت بالوحدة والمرض وأنني قد احتميت بالموت القادم. كنت قد ظننت أني خلعت ثوب الجسد إلى الأبد. ولكنني لن أستطيع أن أنضو هذا الثوب الضيق حتى أمزقه قطعة قطعة وأهتك في كل قطعة جزءًا من الماضي الذي أعرفه في فمي كالعلقم أو الخل. فلا بد لي أن أواجه هذه الأشباح التي تعاودني كلما هدأت آلام المرض، وأن أعريها هي الأخرى قبل أن أتعرى أنا في تجرد السلام.

ولكن من يكون هذا القادم عليَّ ليغتصبني؟ إنه ليس الزوج الذي مات، ولم تعد ليده في روحي وأحلامي أي ثقل. وهو ليس أيضًا الابن الذي قطعني بالكلمة الباترة واختفى في غضبته إلى الأبد. وهو كذلك ليس كريم الذي كان يمد يده ليقطفني كلما أراد. وها أنا لم تعد لي

Twitter: @ketab_n

رغبة فيه بعد أن شفاني منه. لقد اختفى رجالي جميعًا ولم يعد للمرأة فيَّ وهي تتخطى الخمسين إلا أن تحلم بأن تشتري الاغتصاب وأن تدفع ثمنه احتقارًا وكراهية لمن تشتريه. ما هذا الذي أقول وأكتب؟ ولِمَ تدعني يا رب لتجربة الشرير؟ لماذا تدعني لهذه الأفكار وتفرض عليَّ أن أجتابها وحدي بلا مُعين ولا هداية؟ ليس لروحي شكل وأنا أريد أن أعطيها هذا الشكل ولو بالاغتصاب. لم أعد قادرة على أن أمضي وحدي هكذا دون أن أتجرد وأنا أضع حياتي في كلمات.

أليس هذا اغتصابًا بغيضًا للروح وللبدن؟ لقد مر حوالي شهر منذ أن أمضيت يوم دميانة كله في الكتابة، وها أنا عندما أعود من جديد لكراستي أجد أن كل ما كتبت لم يخلصني من اضطراب روحي، ولم يعطِني الأفق الذي أريد. لقد تركني كل ما كتبت في حمأة غريبة لم أعرفها في نفسي من قبل، حمأة الاعتراف المغتصب الذي لم أقدمه لأحد، والذي ليس لأحد عليَّ ـ حتى الكنيسة ـ حق فيه. إنها حياتي أنا وهي خطاياي وليس لأحد سلطان عليَّ، ولكن هذه الكلمات كأنما تعطي الجميع سلطانًا وحقًّا.

لو أني أستطيع مرة واحدة أن أطلق عصفورًا حيًّا ليحمل ذنوبي، أو لو أنني أستطيع أن أعترف سرًّا في أذن ذبيحة وأطلقها.. لو أستطيع أن أقول سرًّا يا رب، كما قبلت اعتراف اللص وأنت على الصليب اقبل اعترافي وخلصني من خطاياي.. ولكنني لم أعد أملك شيئًا من هذا كله. لم أعد أملك إلا أن أظل هكذا في هذه القدرة العاجزة على الكتابة بين الصحو والمرض، أتردد في الحياة والموت بين لحظات الصمت المطبق ولحظات الاستسلام والارتماء في أحضان الشرير.

Twitter: @ketab_n

لماذا تفقدني يا رب القيمة لما أكتب؟ هل هذا جزء من عذابك؟ وهل هو جزء من الغثيان الذي يعاودني الآن؟ قد تعبت روحي وامتلأت غيظًا من الظهيرة التي تحتدم وتشتد بلا فيضان في أغسطس، وهي تكاد تختفي بلا فيضان مثل هذا الغثيان الذي يشتد في نفسي ويشتد ليتملكني هذا الشرير الآخر.. وحبوبه المنتظمة.

في العصر وقد أنهكت الشمس وانكسرت دون أن ينحل التأزم الخانق في جو الزيتون، أستجمع أنفاسي من جديد وقد انقشعت غمة الصباح عن روحي وبدني وبدأت أمسك بقلمي، قلم دانيال، من جديد وأنا هادئة إلى الحر وضوء العصر في الفيراندا، حديقة البيت القديمة هادئة أيضًا، ولكن كلها كيانات تنظر إليَّ بعين نصف نائمة، وترقبني وكأنما هي كل العالم، وكل الدنيا من حولي، وكأن ما في نفسي من أفكار، أجزاء مما فيها كلها من تهدل وجفاف وعدم رغبة في الحركة.

لقد أمسكت القلم من جديد بعد أن قرأت الجرائد كلها. تصفحتها صفحة صفحة، وواحدة واحدة. ولم أستطِع أن أقرأ في اتصال إلا خطاب رئيس الجمهورية الذي قرأته في «الأهرام» و«الأخبار» وشغلني في المرتين عن كل شيء آخر، فليس هناك في الحقيقة ما يُقرأ غيره. كان السادات يتحدث إلى مجموعة من الطلبة والمبعوثين المصريين العائدين من أمريكا وكندا والاتحاد السوفيتي، وكان يحاول بكل ما له من حق وقدرة أن يرفع المستقبل إلى نفوسهم وعيونهم وكأنه يرفع ماء عذبًا لأرواحهم ويطمئنهم على النيل وعلى مصر «رغم التحدي والمصاعب والمحن»، كما تقول أغانينا هذه الأيام.

Twitter: @ketab_n

كم كنت أتمنى لو كنت معهم شابة من جديد أسمع هذا الحديث عن المستقبل وأشارك فيه. وكم كنت أتمنى لو أنني قادرة على أن أرى أو حتى أن أحلم بحماس بما يرون، ولكنني أقف على شاطئ، وهم على شاطئ آخر. وليس بيننا عبور. لقد فصل بيننا الزمن وقسوة تجارب الماضي، وسوف يعيشون في عالم غير الذي عشته تمامًا ويكتوون بنار أخرى جديدة تمتحنهم وتجربهم. حقًّا لقد تغيرت مصر. تغيرت، فهل يستطيع أحد أن يفتح عينيه كاملتين في هذا التغيير؟ أو هل يستطيع هذا المجموع الضخم الذي علمته مصر أن يعكف على التغيير ليدرسه وليسجله؟ ليس من شك أن عددًا كبيرًا منهم سوف يفعل ذلك عندما يعود. سوف يرى ويجمع ويحقق ليصنع تلك الصلة التي تربطنا بالسبعة آلاف سنة التي يذكرها السادات دائمًا وهو يؤكد الصلابة والأصالة في مصر وينفي عنها المرض. فكيف يمكن أن تمرض مصر؟ إن الذي يمرض هو أنا وهم أولئك الأفراد الذين يتهمونها أو يريدون لها أن تمرض. أما هي فإنها تصبر وتصمد على كل هذه البثور التي تعلو جسدها، وعلى كل هذه المحاولات الصارخة للتألم والتوجع والاتهام والحيرة التي تسود ما يصدر الآن من كتابات وهي تحاول فهم التغيير وتحديده. فهل أنا من هذه البثور؟ هل كل ما أكتب هو مجرد صوت آخر من أصوات المرض ومجرد قشرة هشة ضئيلة سوف تسقط مع الزمن عندما تؤكد مصر دون حاجة إلى تأكيد أنها قوية قادرة لا مرض فيها؟ لقد صبرت مصر طويلًا وانتظرت في صمت... ماذا؟ هل عودة الروح من جديد؟ لا، لقد مضى هذا العهد، ولم يعُد مثل هذا الإيمان بالعودة يكفي. إنها

Twitter: @ketab_n

تنتظر تلك اللحظة التي ستتحرك فيها لفرض هذه الروح وتأكيدها. إنني أرتعش من هذه اللحظة القادمة وأحس أنني عندها سأُشفى أنا أيضًا وستتحقق تلك المعجزة التي تقهر كريات الدم المتفتتة وتقيمها من جديد.. في هذه اللحظة سيكون كل الحظر قد رُفع وكل الصمت قد انتهى وأصبحنا جميعًا قادرين على رؤية الجسد والروح في وضوح وبسالة.

إنني أتحدث عن مصر وكأنني أتحدث عن نفسي. فهل يمسك هذا بشيء، أم أنني فقط أنتظر لها كما أنتظر لنفسي يوم الدينونة وملكوت السموات؟ هل يستطيع أحد أن ينظر إلى العالم إلا بعينه أو أن يتلقى الدنيا إلا بقلبه وعقله هو؟ هل يمكن أن نجد نظرية تحقق الخلاص وكأنه تخطيط أو هندسة إنسانية كما يقولون؟ إن الألم حق، والخطيئة حق، ولكن الخلاص أيضًا والقدرة عليه، حق. ولا يستطيع هذا إلا الفرد. لا يستطيعه إلا القلب الواحد المتوحد إذا واجه نفسه واعترف سرًّا بخطاياه. فليس الاعتراف مجرد إقرار بالذنب أو الخطأ، إنه التجربة الإنسانية الوحيدة التي تستحيل فيها المعرفة إلى وجود، ويصطرع فيها الفرد مع الزمن ليعلو عليه. لو أننا نتقدم جميعًا إلى هذا الاعتراف السري.. لو أننا ندرك جميعًا كم نحن خطاة. إنني أرتجف من هذا الكم الضخم من الخفاء الذي عاشت فيه مصر وعشنا فيه جميعًا وتمت فيه الأخطاء والخطايا. إنني واحدة ضئيلة الشأن قليلة الأهمية من كل الذي حدث ولكنني أعرف في دمي ماذا يفعل الخفاء وحياة الظلمة وأرتعد وأنا أقترب من الغضب الآتي.

أمسكت بالجرائد مرة أخرى وأعدت قراءة الحديث من جديد.

Twitter: @ketab_n

وليغفر لي الرب أنني لم أستطع أنْ أفكر في المستقبل وهو ممتلئ به، ولكني غرقت مرة أخرى في الماضي وفي خلاصي الشخصي. لقد دار رأسي من قمة الصدق التي بلغها الحديث ورئيس الجمهورية يقول لأبناء المستقبل:

> كل ده تحمله اقتصاد مصر بالقروض قصيرة الأجل التي هدت اقتصادنا تمامًا. الحقيقة وهو كان تعبان من الأول من الستينات، من التطبيق الاشتراكي الخطأ اللي كان يعتمد على أنه ورق وأرقام ولكن واقع وحقيقة ما كانش فيه إطلاقًا.

يا إلهي، كيف استطاع هذا المرقى الصعب من الصدق؟ هل هي تكاليف المسؤولية التي جعلته قادرًا على هذه المواجهة للواقع والحقيقة؟ وهل يستطيع كل منا أن يجد في نفسه الجرأة على أن ينظر على هذا النحو إلى الواقع والحقيقة؟ وإذا كان الذي ينفيه هو الواقع والحقيقة فهل هذا اقتصاد فقط؟ هل كان الأمرُ أمرَ خطأ في التطبيق أم خطيئة من نوع أضخم في حق الواقع والحقيقة؟ إنني لا أحس بالغضب بقدر ما أحس بدوار تغيُّر الرؤية وكأنما أنا طفلة صغيرة قد وضعوا عصابة على عينيها منذ رأت الدنيا ولم يرفعوها إلا وهي في الخمسين.

لقد استوقفتني وهزتني تلك الإشارة إلى التطبيق الاشتراكي؛ لأني عدت إلى مصر مع بدايته، وبدأت أصطدم بالواقع الجديد وأتشكل بمصر الجديدة التي عدت إليها بعد غيبة كل هذه السنوات الطويلة في أمريكا. عدت وقد تجاوزت الثلاثين ودانيال إلى جانبي شاب

Twitter: @ketab_n

جميل قد اتفقت معه على أن يحصل على التوجيهية خلال عام في مصر ليدخل كلية الطب. وكنت معه قد وضعنا هذا الخط لحياته، واتفقنا معًا على أن نستأجر شقة جديدة في وسط البلد بدلًا من بيت الزيتون كي نكون قريبين من الجامعة التي نويت أن أطلب التدريس فيها، ومن كلية الطب إذا بدأت دراسته فيها. كنا قد فكرنا معًا في هذا وقبلناه معًا على الرغم من كل الخطابات التي وصلتني من مصر ومن أهل حكيم ومن الكنيسة تنصحني بالبقاء في أمريكا والاستمرار في تعليم دانيال هناك.

وكانت تتردد حوالينا، ونحن ما زلنا في أمريكا، أخبار محاولات الهجرة من أعضاء الكنيسة ووصول بعضهم إلى كندا أو إلى نيويورك وكاليفورنيا، بل ولقد وصلتنا خطابات منهم، ومر واحد من آباء الكنيسة علينا في «أمهرست» ليحمل لنا رأي كل أقربائنا ومعارفنا الكبار الذين دبروا الأرض وأموال حكيم لنا ونحن في غربتنا. كانوا جميعًا يطلبون منا ألا نعود.

ولكني كنت أحس أنني قد بلغت مرحلة من العمر لا تحتمل الغربة أكثر من ذلك وأن هناك صوتًا من مصر يدعوني لأن أعود بابني إلى أرضه، قبل أن تفقده تمامًا ويتشكل نهائيًا بأمريكا وأرض الغربة. كنت أخشى من قراره ومن اتجاهاته ومن أفكاره التي يخرج بها أحيانًا عليَّ؛ فهو مرة يريد أن يترك «أمهرست» للذهاب إلى نيويورك، ومرة يعلن عن رغبته في تعلم الموسيقى في «جوليارد»، ومرة يريد أن نترك «أمهرست» لنذهب إلى «يال» ليكمل دراسته هناك. كانت أفكاره كثيرة ورغباته كثيرة وكنت أحس أنني حائرة وأنا أختار معه

Twitter: @ketab_n

أو له، إلا أن أرده إلى مصر لكي يبدأ من هناك من جديد ولكي يخرج بعد ذلك إذا أراد.

وما أكثر الليالي التي حضرها معي يسمع النصائح ألا نعود، وتتردد أمامه القصص والإشاعات والأحكام التي تُروى عن الحكم في مصر، وعن أحوال الناس وأعضاء الكنيسة. وكان دانيال خلال هذه الزيارات يسمع ويفهم دون أن يشارك في الحديث، فإذا تحدث بالإنجليزية ليبدي تعجبه واستغرابه وكأنه يسمع حكاية أو يشهد فيلمًا طريفًا. كان بعيدًا عن مصر تمامًا، وكانت القصص التي يسمعها لا توجعه كما توجعني، وكنت أتألم لذلك وأحس بمسؤوليتي عن أن أرده إلى هذا الواقع الذي لا بد أن يعرفه وأن يعيشه.. كنت أخشى عليه أن يتسرب من يدي أو من مصر.. فإذا ما تركنا الزوار قال لي وهو يضحك وكأنما يزيح بيده أمرًا غير مهم أو عابرًا:

ـ «ليتل موم».. ما لنا وكل هذا؟!

فأحس فجأة أني بلا رجل، وأنني مجروحة متروكة وأمتلئ حبًّا غامضًا للأرض والتراب والضوء في مصر، وأجد نفسي على الرغم مني أتحرك بجسدي لأقنعه فأقبِّله وأضمه إليَّ في الفراش وألعب في شعره وفي أزرار بجامته وأنا أحكي له عن مصر. إنني لا أدري ماذا كنت أقول له حينذاك، ولكني أذكر انكماشي في حضنه، وأنا أُشعره بأنه الرجل الوحيد لي الذي سيحميني هناك والذي سيرد عني كل المتاعب وسيعطيني الحياة التي انتظرتها منذ كنت صغيرة. لم أكن أتحدث بوطنية عن مصر، ولم أكن أكلمه في السياسة فلم يكن هناك

Twitter: @ketab_n

موضع لذلك كله. كان حديثي حديث أم وامرأة تحس أن شيئًا سيأخذ منها ابنها لو بقينا في أمريكا، وأنه على نحو ما لن يصبح رجلًا أو رجلها إذا ظللنا هناك.. كنت أتهم له زوارنا ومعارفنا وأقرباءنا بأنهم جبناء، بل وأنهم يحاولون إبعادنا عن مصر ليتصرفوا هم في أرضه الواسعة التي تركها له أبوه، وأن عليه أن يقيم العائلة هناك وأن يحفظ اسم والده.. وما أكثر ما قلت وقتها مما كنت أحس أنه لا قيمة حقيقية له ولم أكن أنا نفسي مقتنعة به. ولكنني كنت لا أتحمس ولا يرتفع صوتي حتى أجلس على الفراش إلى جانبه لأحاول أن أصف له دميرة أو بلقاس أو بيت الزيتون، ولأحدثه عن النيل وعن الفيضان دون أن أعي ماذا سيفعل فيه السد.

وعلى قدر ما كنت أحس أن تحمسي ليس له موضوع حقيقي، كان هو الآخر لا يجد في كلامي ما يقنعه بشيء؛ لأنه لم يكن مصممًا على شيء أو واضحًا بالنسبة للرغبة في طريق محدد.

وكان يحس، كما أحس، أن وجودنا معًا كما نحن الآن على الفراش هو كل ما يريد أو يطلب.. وأسكت، وينام، وأنا أزداد تصميمًا على العودة وانشغالًا في الصباح بمسائلها وترتيباتها الصغيرة.. كان تصميمي على العودة بلا موضوع فعلًا، وكأنه مجرد اندفاع طبيعي لتغير الفصول. وكانت معارضته مجرد شقاوة من رجل صغير يطلب مزيدًا من قربي ومن تركيز اهتمامي به. وكنت أحب ذلك وأسعد به.. واندفعنا معًا لنعود.. وعدنا.. عدنا إلى حقيقة وإلى واقع كم أريد الآن أن أستعيد مذاقهما! وأن أعرف على وجه الدقة طبيعتهما! فما عادت هناك دعوة ولا نصيحة، وما عاد هناك قرب بيننا، ولم يعد في قلبي

Twitter: @ketab_n

ولا في روحي إلا تلك الرغبة أن أعترف وأن أصعد إلى معرفة الوجود التي تحمل الخلاص.

يا ربي.. لِمَ لا يتركونني وحدي؟ كل أولئك الزوار الذين تعلنهم تفيدة الآن.. ماذا يريدون مني؟ أن أموت ليستريحوا من المجيء.. ومن العزاء والمشاركة؟ ومتى تنتهي الدعوة والنصيحة والتعزية من حياتي؟ «قد سمعت كثيرًا مثل هذا. معزون متعبون كلكم. هل من نهاية لكلام فارغ؟».

* * *

عجيب أمر هذا الإيمان. كل واحد يحاول أن يركبه وأن يلبسه ولا يستطيع أحد أن يكون عليه فارسًا حقًّا أو أن يكون له سلطان. إنه رداء ومطية، ولكن أغلب الناس عليه أو فيه أبطال متوهمون لا يرون أنفسهم، ويتصورون أن الناس لا يرونهم. اجتمعوا حولي وانصرفوا. وحدثوني وأنا صامتة، أحس أن عليَّ أن أبدو متوجعة أو أن أموت وأنصرف أنا ما داموا لا يريدون أن ينصرفوا.

حدثوني ـ المحامي والكنيسة ـ عن عقود الإيجار الخاصة بالأرض وعن متابعتهم لمحاولات استخلاصها من جديد، وتأرجحت في الحديث إشارات خفية إلى ميراث الأرض وماذا سيحدث لها، وللأموال التي في البنك، بل وأشاروا إلى ما تبقى من مجوهرات من تركة زوجي حكيم. كانت الإشارات رقيقة خفية، ولكنهم كانوا يعرفون أنني أفهم وأنني لا أريد أن أجيب، وكانوا يتلمسون الاهتمام بي ويترفقون ـ دون ترفق ـ في الإشارة إلى غيبة دانيال وفي التلميح لي أن موضوع حياتي وموتي قد أثير في اجتماعات المجلس وأن

Twitter: @ketab_n

أولاد إخوة وأخوات حكيم أحياء وكأنهم أبنائي. ووقعت لهم على أوراق وعقود وحسابات الطبيبة والمستشفى، فما زلت حية، وما زالوا لا يستطيعون أن يتصرفوا كما يريدون في الثروة أو الأموال التي تتراكم في البنك.

وتشجع خالي، الذي يعمل في السكة الحديد، وقال إن معجزات الرب كثيرة. وغامر وجسده ووجهه يتلويان ويخفيان الإيمان الهزيل، فأشار إلى حماة سمعان وإلى أنني قد أكون مثلها يمسك الرب بيدي فأقوم لأخدمهم. وامتلأت روحي غضبًا عليه وعليهم جميعًا، ولم أعرف ماذا أقول على الرغم من أن الكلمات كانت تزدحم في صدري وكانت كلمات قاسية مريرة.

وعندما رأيت دموعًا في عيني زوجته استدرت في الفراش أريد أن أشعرهم بأني قد أُجهدت وأنني أريدهم أن ينصرفوا. وعندما اتجهت إلى الحائط أحسست وكأن يدي تريد أن تكتب على الحائط بأظافري وبخط واضح كبير: «لأنه ليس شيء خفي لا يظهر ولا صار مكتومًا إلا ليعلن». ولكن أحدًا لا يرى ما كتبت ولا يسمع ما أجرش تحت أسناني من كلمات، وانصرفوا وهم يقبلونني في جبهتي أو يباركونني، وخرجوا معًا دفعة واحدة وكان كل واحد منهم يخشى أن يبقى بمفرده معي.

وعندما دخلت تفيدة لترفع الكراسي وصواني الشاي والكيك والبسكويت، اعتدلتُ في الفراش وأنا أحس قوة جديدة في جسدي وكأنما مسني شيء وتجمع في روحي عزم فريد على أن أقوم «لأخدم» نفسي، وأن أواصل الكتابة.. ونظرت لتفيدة وهي تتحرك، ولست

Twitter: @ketab_n

أدري كيف استطاعت تفيدة أن تصبح هكذا، الشخص الوحيد في العالم الذي أطمئن له تمامًا والذي أعتقد أنه يعرفني ويعرف داخلي دون أن يتكلم أو أن يحكم، ودون أن أحتاج أمامه إلى أن أبرر نفسي. إنني أومن أن تفيدة لها قدرة خاصة ونادرة على فهم الألم ومعرفته والصمت أمامه. لقد ورثتها فيما ورثت عن أمي من خبرة بالبيت والتفصيل وإعداد الطعام في أيام الصوم. وعلى الرغم من أنها مسلمة وأنها تصلي بانتظام وتصوم في رمضان كما تفعل الآن؛ فقد استطاعت أن تحب وأن تعرف عادات أمي وتقاليدها وأن ترتبط بهذا الشعور الديني في البيت منذ كانت طفلة صغيرة دون أن ترى في البيت وأهله إلا أنهم أتقياء مؤمنون.

ولقد انقطعتُ عنها مع سفري، وعلمت أنها تزوجت وأنها فقدت الزوج والابن وبقيت لها ابنة تزوجت مرتين بعد وفاة الأول وولدت عددًا من الأولاد والبنات في سنوات غربتي. ولم أتردد لحظة في أن أفرح بها وهي تعود إليَّ عندما عدت أنا ودانيال، وهي تطلب أن تبقى معي في البيت تخدمني حتى تموت كما قالت لي يوم أن عدت، وتقبلني وتقبل دانيال وتذكر على رأسه اسم النبي وتدعو أن يحرسه الله. ومضت السنوات وتفيدة لا تسأل ولا تتدخل، ولكني أحس أنها تعرف كل شيء وترى كل شيء وتملك وحدها تلك القدرة الفريدة على أن تظل صامتة تخدمني وتخدم دانيال، وتطبخ لنا وتغسل ملابسنا، بل وتساعدني في الحمام أحيانًا وفي اللحظات التي أختفي فيها في غرفتي في الصيف أو الشتاء، أستخدم «الحلاوة» التي تصنعها لأنزع الشعر، وأحس بتجدد الدم وسريانه في جسدي.

Twitter: @ketab_n

وحتى في أيام الحب، كانت تفيدة تعرف كل شيء بمجرد أن تنظر إليَّ، أو بمجرد أن أنظر إليها دون أن أتحدث أو أن أشكو أو أن أعبر عن فرحي أو ضيقي. هذا النوع النادر من البشر، هل يتحرك بإيمان أم بصبر وتخلٍّ، أم أنها فقط قادرة على نوع خاص من المعرفة لا يتعارض مع الوجود ولا يزعجه؟

إن ابنتها وأولادها كأنهم يمارسون الحياة لها وهي مكتفية بذلك؛ فهي لا تأكل إلا قليلًا وبتأنق شديد ولا تتناول الطعام إلا إذا طلبتُ منها ذلك، وكم من المرات نهرتها على أنها لا تفعل حتى وهي صائمة إلا عندما أقول أو عندما أكون موجودة، وما أكثر ما نسيت ذلك تمامًا أو انشغلت عنها في خارج البيت أو امتلأت بمشاكلي ووحدتي حتى لا أذكرها. وكم أتمنى الآن لو أنني أجلستها أمامي وفتحت قلبها وفكرها لأعرف ماذا فيه عن حياتي وماذا فيه من كل السنوات التي مرت. أصابعها وقدماها وشعرها وجسمها قد شهدت جميع أيامي منذ عدت، ورأتني في كل حال من أحوالي، ولكنها كانت دائمًا مرآة تختزن الصور ولا تعكسها، وأصبحت لي الآن وكأن الأيام والسنوات تتراكم فيها كما تتراكم في نتيجة لا تنفد أوراقها ولا يجرؤ أحد على أن ينزعها وأن يتخلص منها. تفيدة.. هل تتكلمين؟ هل تعفينني من أن أتحدث أو أن أكتب؟ ولكن ماذا تعرفين؟ ماذا يدور بذهنك وأنت تكررين فقط كلماتك المحفوظة: «ربنا يقدم ما فيه الخير».. أو «الصبر طيب».. و«ربنا يولي من يصلح»؟ هل هذه كل أحكامك على الحياة وعلى الدنيا؟ إنني أومن مع هذا أنك تعرفينني وتفهمينني وأنك قادرة على أن تتمثلي كل شيء، بل وعلى أن تفهمي حتى هذه الكلمات

Twitter: @ketab_n

التي أكتبها لو قرأتها عليك. ولكنك تخفين هذه القدرة ولا تعرضينها للناس ولا يظهر لك مكتوم. كلك خفاء موجود، وليس كخفائي الذي يأكلني ويتآكل.

هل لو أننا تبادلنا الحياة لتغير الأمر، أم أنك موجودة لأعرف ولأفهم أن الخفاء الذي أعيشه لم يكن واقعًا ولا حقيقة، ولم يكن حياة، وأني لذلك لا أعرف كيف أموت دون أن أتحدث وأن أواصل الكتابة؟

إنها تقف الآن إلى جانبي وأنا أكتب هذه الكلمات، وتضع الدواء والماء على المنضدة الصغيرة قرب السرير في إيمان وصبر، وتتحرك لتعدل الفراش ثم تقول لي، وكأن الدنيا ليس فيها إلا هذه الكلمات، أو كأن كل ما يمكن أن نفعله أنا وهي الآن، أن تغير ملاءات السرير وأن أقوم لأستحم قبل أن يجيء المغرب حتى لا أبرد كما تقول.

* * *

لم أتوقف عن التفكير في تفيدة وأنا في الحمام. لا لأنها كانت معي تساعدني، وتحمل عني منذ أن مرضت هذه المشاق التي تتطلب حركة ودعكًا. لقد صبغَت لي شعري، وهي تفعل ذلك منذ أن توقفت عن الذهاب إلى الكوافير، وساعدتني على الرقاد في البانيو والماء الساخن ودلكت لي ظهري برفق بالإسفنجة، ورفعت ساقي وهي تسندني بذراعيها، ووضعت أصابعها في رفق وكأنها تتجنب مواضع الحروق القديمة في أعلى فخذي، التي أحدثها كريم في ليالي الحب والبكاء القديمة. لم يكن وجودها في الحمام معي أول مرة، ولكنني في هذه المرة كنت أحس أنني على وشك أن أتحدث إليها وأن أرفع

Twitter: @ketab_n

الخفاء بيننا وأنني أقاوم رغبة قوية في أن أرغمها، وعلى الرغم من أنها مسلمة وأنها تصلي بانتظام وتصوم في أيام الصوم، على أن تتكلم هي، وكأنني أتوقع أن لها أيضًا خفاء.

ولم يحدث شيء من هذا بالطبع. كانت تتحرك بحنان وصمت، ولكنها تتحرك بسرعة وبإجهاد.. ولما سمعتُ أذان المغرب صرفتُها بحزم وقلت إنني سأرتدي ملابسي وحدي وأجلس في الفراش مرة أخرى أنتظرها لتسريح شعري بعد الإفطار. ولست أدري هل صيامها المنتظم هو الذي جعلني أحجم عن أن أخترق صمتها اليوم وفي هذه المرة في الحمام، أم أنني عاجزة فعلًا أن أصنع هذا وأن رغبتي هذه هي مجرد محاولة أخرى من محاولات الحياة في داخلي للفهم أو رغبة في تجنب الجلسة المنتظمة التي أعود إليها الآن للكتابة في كراستي. لقد خرجتُ من الحمام أكثر حرصًا على الكتابة مما كنت وأشد رغبة في التوصل إلى ما أريده منها وكأنني أعرف ما هو.

سقط قلبي عندما خرجَت من الحمام وأحسستُ وكأنها سبقت ودهنت جسدي للتكفين. ولم أستطع أن أبقى في الحمام لحظة واحدة، واندفعت دمائي في عروقي وأصابني نشاط مفاجئ وأنا أكتفي بأن أربط شعري بفوطة صغيرة، وأن أضع على جسدي روب حمام ثقيلًا وخرجت عارية إلى الفراش لأمسك القلم وكأنني أتشبث بالحياة. إنني لا أحتمل هذا الخوف من الموت وقد تعودت على انتظاره كل هذه الأيام الماضية، ولكني أحس أن خوفي الآن هو من فقدان ما أريد أن أحصل عليه قبل أن أغيب وينتهي كل شيء، فما هذا الذي أريد؟ هل هو مرة أخرى الحب،

Twitter: @ketab_n

نوع آخر من الحب كامل لا تقطُّع فيه ولا خفاء ولا نقص أو زيادة؟ هل أريد أن أصل إلى حب يتنفسه البدن وتسبح فيه الروح في كمال وهدوء مطلقين؟

هل كنت أنشد هذا الحب الآن عند تفيدة؟ ما أسذج هذه الرغبة الخافقة الضعيفة في صدري لأهبط عليها وأستريح. إن في صدري عصفورًا أحمق يريد أن يهبط دون أن يدري أنه قد يهبط على سلك عارٍ كله كهرباء تصعقه. لا، إنها أنانية قاسية في صدري تريدني أن أغرس في صدرها مرساتي فيهدأ هذا الزورق المتأرجح المضطرب الذي يحمل أيامي دون أن أعبأ أو أفكر في أن الدم قد يسيل من قلبها. ما أغرب هذا الطريق الذي أسلكه وأنا أفكر في تفيدة. ولكنها السبب في كل ذلك؛ فهي صامتة صائمة تختم صيامها الآن في نعمة وأنا وحدي أبحث عن خلاص لا أجده ولا أعرف الطريق إليه.

ودخلت الآن عليَّ تفيدة وضربت على صدرها وهي تقول:

ـ يقطعني.. أنتِ عريانة؟ الدكتورة تعمل فيَّ إيه لو أخدتي برد؟

وقبل أن تقترب مني لتنتزع القلم والكراسة أضعهما جانبًا وأنا أحس كأنني أريد أن أحتضنها.

* * *

ما أطول هذا الطريق الذي سلكتُه لأكتب حكاية حياتي. أليس هذا ما أريد؟ لقد عطرتني تفيدة وملأت جسدي بالبودرة وأحس براحة وهدوء وتبصُّر. كنت أريد أن أحبها وأن أصل إليها لأعفي نفسي من كل هذه الكتابة. كنت أريد، وما زلت، أن أكلمها وأن أحدثها هي لأنتزع منها هذا الخلاص الذي أريد. كم قد اختلط عليَّ

Twitter: @ketab_n

الأمر ولا بد أن يختلط والروح تشارف هذه الهوة التي وعدوني بها والتي لا مفر من اندفاعي نحوها. إنني أعذب نفسي بكل هذا الحديث لأنني لا أسلك مباشرة إلى ما أريد. وها أنا أخدع نفسي تارة بأنني قد سجلت كل شيء واعترفت بكل شيء وتارة بأن ألتفت بمحبة إلى تفيدة لتعطيني التبرير. غير أنني في الحالين أخدع نفسي فعلًا؛ فأنا ما زلت لم أسلك مرة أخرى طريق الخطية حتى تعلن لي «خفيات الحكمة»، ولم يتضاعف فهمي حتى أعلم أن الله يغرِّمني بأقل من إثمي. ألم يقولوا هذا لأيوب؟ ولكن أيوب كان إنسانًا أصابه الفقد من عند الرب وظل يصيبه متكررًا متصاعدًا حتى مس جسده وأصبح من حقه أن يخاطبه وجهًا لوجه وأن يصرخ من أعماقه: «كف عني فأنبلج قليلًا». أما أنا فقد صنعت الفقد بيدي وسعيت بنفسي لأن أفقد ما أمتلك وامتلأت غرورًا بنفسي وبقدرتي على أن أمتلك ما لا أملك.

أليس هذا ما حدث؟ ولكن لحظات الحياة وخطواتها هي المعرفة، وليست الحكم أو النتيجة. ليس العذاب فيما يستقر في الروح من ندم، ولكنه في تفاصيل الماضي الذي لن أستطيع أن أتغلب عليه حتى أسلكه مرة أخرى خطوة خطوة.

أليس هذا معنى أن أحمل صليبي؟ طوبى لمن يحملون صليبهم طوال حياتهم ولا ينتظرون لحظات النهاية ليعرفوا كيف يحملونه. وطوبى لأولئك الذين تكون خطاياهم «واضحة، تتقدم إلى القضاء». أما أنا فمِن أولئك البعض الذين تتبعهم خطاياهم. لقد جبنت أمام التفاصيل مع أنها هي الشفاء للعذاب وهي الخلاص الذي

Twitter: @ketab_n

أريد. وما أشد غروري الذي أنساني ما فعلت بـ«إميلي» وما فعلت «إميلي» بي.

عندما عدت إلى مصر، كنت أتصور أنني أعود لأسبح أنا ودانيال في دنيا خاصة بنا أعرفها وأحبها، وأنني سأصنع كل ما يحقق له السعادة والامتلاء في حياته. كنت أتصور أنني أدخل إلى أرضي وبيتي بعد طول غياب وأنه لن يكون عليَّ إلا أن أعيش وأن أطلب ما أريد لأجده. لم أكن أعرف ما أريده، ولكني كنت مطمئنة واثقة لما اتفقت عليه مع دانيال رغم كل الحكايات والقصص التي سمعتها في أمريكا عن مصر. كان الإصلاح الزراعي قد سقط على أرض حكيم وما ورثه دانيال وما كتبه باسمي قبل أن يموت، وقد وقعت وأنا في أمريكا أوراقًا كثيرة وعقودًا للإيجار وللبيع في أول أيام الثورة.

وكانت خطابات الأقرباء والكنيسة على طولها غير مفهومة لي إلا في حدود ما تطلب مني فعله والتوقيع وإعادته إليهم مع بعض الأمريكيين المسافرين من أمريكا إلى القاهرة. كنت أحس أن هناك تحركًا واسعًا من أجلي ومن أجل دانيال. ولكنه كان يذكِّرني بقضية أبي والرهبان الذين أخذوا الأرض، وأخرجوه من أرض عمر طوسون.

وكنت أتصور دائمًا أن ملكيتنا لهذه الأرض أمر غير شرعي مشكوك فيه. أو على الأقل كان يداخلني نفور منها وإحساس أن أبي قد باعني من أجلها للزوج، وأن ما يجري عليها حق على نحو ما. ولكنني اعتبرت أن الأمر قد انتهى وتوقفَت الخطابات المحمومة بشأنها بعد الإصلاح الزراعي إلا من بعض أخبار متناثرة كانت تصلني

Twitter: @ketab_n

عن الدخل وعن حسابات السنة، يرسلها إليَّ المحامي الذي وكلته عني وعن دانيال القاصر، ولم أكن أجد نفسي على أي حال بحاجة إلى مال أو بحاجة إلى تدبيره.

وعندما عدت إلى القاهرة ذهبت في ثاني يوم، أنا ودانيال وكل من كانوا هنا اليوم معي، إلى البطرك لأخذ بركته. وها أنا أذكر كل التفاصيل. فقد تحدث عن أبي حتى أبكاني وقال لدانيال:

ـ كن دائمًا مثل عبد الله الحي دانيال، وتذكره.

وتخللت كلماته إشارات خفية إلى توقع الشدائد. فذكر جُبَّ الأسود لدانيال ولكنه رفض أن يستمع إلى أحاديث الجماعة عن السياسة واتجاهات الحكم وتكررت في حديثه آيات «لا تقاوموا الشر»، و«أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم»، ولم أفهم بوضوح الشر الذي يشير إليه، فلم يكن حولي إلا محبة وفرح، أو لم يكن في داخلي إلا ذلك.

لقد رفضت أن أفتح بيت الزيتون أول ما وصلت؛ لأني كنت أريد أن أصحب دانيال مباشرة إلى دميرة وإلى بيته هناك وإلى أرضه. وكنت أريد أن أذهب لزيارة قديستي. وقبلت أن أنزل معهم في بيت خالي الذي شبَّهني اليوم بحماة سمعان. وما زلت أذكر ضيقي بتلك الجلسات الليلية الموسعة التي كانوا يجتمعون فيها حولي وحول دانيال في بيت خالي الضيق بشبرا يخططون حياتي وحياة ابني وينصحونني بأن أبقى في البيت دون عمل أو أدرِّس الإنجليزية في مدارس الكنيسة وألا أفكر في الجامعة، وراحوا يعرضون بشكل

Twitter: @ketab_n

خفي عليَّ أن أتزوج ويمتدحون قضاة ومستشارين أمامي. وتضيق روحي بكلماتهم وأقوالهم فأقول لهم إنني سأظل في دميرة سنة على الأقل أستريح وأطمئن على انتهاء دانيال من دراسته وحصوله على التوجيهية ولنترك الأمر بعد ذلك لما يختاره الرب. نعم، كنت أستخدم نفس معاني الكلمات التي تستخدمها تفيدة، ولكني لم أعرف هذا الاستسلام الذي تحياه وتستطيعه.

كنت مصممة على خطواتي وعلى مشروعي كما وضعته مع دانيال في «أمهرست»، وكنت أحلم بأني سأدرِّس في الجامعة عن قريب، وأننا سنستقر معًا في شقة صغيرة في القاهرة وأنه سيدخل الطب وأننا سنجعل بيت دميرة بيتًا للراحة الأسبوعية والفسحة. بل كنت أريد أنا نفسي أن أبيع بيت الزيتون أو أن أتخلص منه، فقد كنت أخشاه وأريد أن أتحاشى دخوله بعد موت أمي وأبي فيه، وكيف كان لي أن أعرف حينئذ أنني أيضًا سأموت فيه؟!

يا رب، كل هذه التفاصيل. وأنا أحيا هذه اللحظات الفارغة من كل شيء إلا هذا الامتلاء بالعذاب والرغبة المحمومة في الخلاص. وهل يملأ هذا لحظات؟ إنه يستهلكها ويستوعبها وتتلاشى في هذا العدم الكبير المقبل.. وما كان أكثر امتلاء الحياة.

لقد مرَّت الآن أربع ساعات والساعة تدق التاسعة، وموعد الحبوب من جديد.

* * *

لقد حلفتِ عليَّ يا تفيدة أن أنام وأن أستريح. أطعمتني بكل صعوبة ودون كلام وأقسمتِ عليَّ بالنبي وبالست دميانة، فأنت

Twitter: @ketab_n

تحبينها وتؤمنين بها، ألا أسهر الليلة حتى لا أصاب بالبرد، واسترحت بعد أن وضعت عليَّ الغطاء واستدرت لأنام كي أجعلك تطمئنين وتخرجين. ولكنني أحس يا تفيدة أن عليَّ واجبًا عليَّ أن أتمه، وأن هذه التفاصيل التي يريدها مني الخلاص لا بد أن تخرج وأن تصوَّر حية من جديد. إنها تلحُّ عليَّ وتضرب جنبات رأسي وقلبي، ويدي تتحرك دون تفكير إلى قلمي ببطاريته الصغيرة وأعتدل في الفراش وأُخرج كراستي من تحت المخدة لأكتب من جديد.

كم كنت سعيدة فرحة وأنا أعود إلى دميرة من القاهرة لأول مرة بعد هذه السنوات الطويلة! كان البيت الكبير نظيفًا مرتبًا بغرفه الخمس وبمفارشه وملاءاته. وكان المحامي وخالي يترددان على البيت بانتظام خلال هذه السنوات وكانا حريصين وهما يستعملان الغرف أن يحتفظا لي بهذه الأغطية الثمينة التي صنعتها أمي أو اشتراها حكيم من أوروبا، فلم تبلَ ولم تتغير ألوانها عندما وضعوها من جديد استعدادًا لقدومي. إنني لا أنسى لهم أبدًا هذه اللحظات التي قدموها لي وأنا أدخل البيت وأحس كأنه كما هو تمامًا منذ أن غادرته في أواخر عام ١٩٤٩.

غرفتي بشباك دميانة وكرسي الهزاز وفراشي الصغير، وإلى جانبه أيضًا فراش دانيال الطفل، كان لا يزال هناك. وغرفة حكيم ومكتبه وفيها الخزينة التي أحتفظ فيها بأوراق أبي وبجواهري وبتلك الزمردة الخضراء الكبيرة التي أهدانيها عندما تزوجنا وكتب عليها الحرفين «Z».. و«A»، «آخر الكلام وأوله» كما كان يقول. لقد فتحتُ الخزينة ورأيتها واطمأننت عليها واطمأننت على أوراق أبي وتذكرت صمته

Twitter: @ketab_n

وحيرته وموته وتذكرت صمت حكيم وحيرته أيضًا وإن لم أذكر من حبه أو كلماته إلا تلك الجملة التي انتزعها من نفسه انتزاعًا وهو يشير إلى الحرفين اللذين وضعهما على الزمردة وكأنما ليعفياه من أي كلام آخر.. زمردة أيوب.

وارتعد جسدي وأنا أغلق الخزينة وخرجت من غرفة حكيم بعد أن فتحت الكتاب المقدس الذي كان مغلقًا إلى جانبها على سفر دانيال، وقرأت الآيات الأولى عن آنية بيت الله التي أخذها «نبوخذ نصر». ولكني تركت الكتاب مفتوحًا على اسم دانيال لأنها ستكون غرفته، وخرجت كطفلة صغيرة أتفقد المنزل كله ركنًا ركنًا وأدخل المطبخ وأفكر في تغيير الفرن الكبير وفي أواني أمي العتيقة وأضغط على أزرار النور وأطفئها رغم أننا في النهار، فرحة بالكهرباء في المنزل الذي تركته مُضاء بالكلوبات والشموع. كنت أحس أني طفلة تمامًا ورحت أسترجع مع تفيدة كل لحظات الماضي البعيد وأنا أصرخ على دانيال الذي نزل إلى الحديقة لأحدثه عنه وأحكي له كل الصور والذكريات التي تجري في نفسي ذاهبة عائدة وكأنها جمع صغير من الأطفال يلعبون. لم أسعد في حياتي كما سعدت في هذه اللحظات وأنا أجري وراء دانيال، وتفيدة تجري ورائي، لأخرج به إلى الأرض والحقول. كنت أحس، وما زلت أذكر، هذا الضوء الذي كنت أحلم به وأنا في أمريكا. ضوء الشمس في دميرة وقد مازجته خضرة الحقول فأصبح وكأنه سائل دسم يتشربه البدن.

كنت أمد عينيَّ ويديَّ وأنفي أريد أن أمسك بكل شيء دفعة واحدة وكأني طفلة تضرب بيديها وبفمها وعينيها لأنها وجدت الثدي فجأة

Twitter: @ketab_n

وتريد أن تلتقمه كله. أمسكت دانيال بيدي وسرت وأنا أريده أن يرى وأن يشم ورغبتي تتحرك في جسمي وكأنها حنين في بدني لأن أرضعه. يا رب ما كان أحلى هذه اللحظات وأغناها. وما أكبر قدرة بلدي على أن تمسح الغربة في لحظة، وأن يملأ نورها الروح والبدن وكأنما هو ميلاد جديد.

هل كانت هذه هي كل لحظات السعادة الخالصة المصفاة التي قدمتها لي مصر منذ أن عدت؟ لِمَ يا رب لم تجعلني أموت في العودة مباشرة؟ ما كان أسعدني لو أنني تبددت فيِ نشوة اللحظة وذهبت مع الضوء والهواء والماء الجاري في قنوات الحقول. لو أن هذه اللحظة تعود! ولكن روحي تطفو فيها الآن أبيات من «إميلي» وأحسها في عربيتي أكثر حدة وصدقًا وهي تقول:

علينا لكل لحظة من لحظات النشوة
أن ندفع جوى وعذابًا
نافذًا حادًّا على نفس قدر
النشوة ونسبتها.

ولكل ساعة محبوبة
مزيدًا زهيدًا من السنوات الجارحة
ودريهمات مريرة متنازعًا عليها
وصناديق مليئة بأكوام الدموع.

نعم «مزيدًا زهيدًا من السنوات الجارحة». لم تمضِ أيام حتى بدأتُ أحس أن هناك شعورًا عدائيًّا ضد وجودي في البلدة، وأن

Twitter: @ketab_n

أنواع النزاع الكثيرة بين الفلاحين ووكيلي في التأجير قد خلقت في النفوس كراهية مبدئية ضدي وضد عائلة دانيال، وأن سنوات الغربة وسنوات الثورة الطويلة قد وضعت في الأذهان وفي لغة الكلام مجموعة من الأحكام التي تدفعهم إلى اتخاذ موقف مني ومن ابني دون أن أعرف بالضبط ماذا عليَّ أن أفعل أو لمن أتجه. لقد كنت أومن بضرورة الإصلاح الزراعي لمصر على الرغم من كل ما يقوله أهلي وأقربائي، وعلى الرغم من مساسه المباشر بي وبمصالح ابني.

ولكنني كنت لا أدري كيف أستطيع أن أعيد نفسي إلى هذا المجتمع الجديد الذي كونته الثورة وكيف أجعل نفسي مقبولة منه. ولست أظن أني مسؤولة عن كل هذه التفاصيل التي بدأتُ أحسها في البلدة، ولا عن عجزي أن أتغلب على مشاعر العداء التي أحسستها ضعيفة أول الأمر ثم تكاد تبلغ المقاطعة والتجنب بعد ذلك.

ويبدو أن انشغالي بزيارة الكنيسة وقديستي مرارًا، وانشغالي بترتيب الكتب التي حملتها معي، وإدخال أثاث جديد إلى البيت لأعد لدانيال غرفة أبيه على نحو جديد، ولأوفر بعض الراحة الجديدة في البيت، وأخيرًا العربة التي اشتريتها لأتحرك بها إلى القاهرة بسهولة.. كل هذا قد باعد بيني وبين الناس. ولم يعطوني فرصة طويلة على أية حال ولم يتقدم لي أحد. ولكنني فوجئت بعد أشهر قليلة بزيارة ضباط من المباحث وبأنواع من الأسئلة الغريبة عني وعن ابني وعن سبب عودتي من أمريكا وماذا أنوي أن أفعل. وقد أجبت بصورة مباشرة وقلت ما أنوي فعلًا أن أعمله، وقلت

Twitter: @ketab_n

إن دانيال سيكمل دراسته، وإنني سأتقدم إلى الجامعة وأرجو أن تقبلني، وتساءلت لماذا كل هذه الأسئلة. فكانت الإجابات عامة.. و«نرجو الخير».. و«مسائل أمن».. و«البلد فيه ثورة».. وأنواع أخرى مماثلة من الإجابات لا أذكرها.

ولكنهم جميعًا مؤدبون وإن كانوا يتغيرون كثيرًا وتتعدد وجوههم وتبقى الأسئلة هي نفس الأسئلة. ولما رجعت إلى المحامي والأهل طلبوا مني أن أرفض الإجابة والمقابلة، ولكني لم أجد ما يدعو إلى ذلك، بل لم أجد ما يدفعني إلى التشكك أو الخوف، وكل ما هناك أنني تعجلت أمر الكتابة إلى الجامعة وكتبت خطابًا مطولًا إلى عميد الكلية أطلب فيه منحي وظيفة التدريس وصورت شهاداتي ونسخة من رسالتي وأعربت في الطلب عن حرصي الشديد على أن أكون نافعة لبلدي بعد كل الجهد والدراسة التي قمت بها. لقد كان خطابي مطولًا وما زلت أعتز به وما زلت أحتفظ بنسخة منه وإن لم أحصل أبدًا على رد له ولا سمعت عنه مرة أخرى حتى بعد أن تم تعييني عن طريق كريم.

ولم يطل بقائي على أية حال في دميرة؛ فقد بدأ العام الدراسي واستقر دانيال في القسم الداخلي في «فيكتوريا» حتى نستطيع أن نجد شقة مريحة في وسط البلد وقريبة من كلية الطب كما اتفقنا. وأصبح عليَّ أن أتردد إلى الجامعة وإلى الكلية لأسأل عن خطابي، وكثر ترددي دون أن يلقاني أحد من الكبار أو أن ألتقي بأحد من الأساتذة؛ لأنهم جميعًا كانوا يحيلونني إلى المكاتب؛ فالأوراق تارة في مكتب الأمن، وتارة في المعادلات في الوزارة، ومرة في المستخدمين، وأخيرًا

Twitter: @ketab_n

ليست هناك درجات الآن ولا بد من الانتظار حتى يتم الإعلان. ولما قلت إنني تقدمت بناء على الإعلان في الجرائد، قالوا إن الوظائف شُغلت، ولا بد من انتظار إعلان جديد. وأحسست أنني بدأت أدور في حلقة مفرغة وأنني لم أعد أستطيع الاعتماد على نفسي وأن عليَّ أن ألجأ إلى الأهل والأقرباء وربما للكنيسة مرة أخرى، ليساعدوني على صنع حياتي، ولكنني كنت أحاول أن أعفي نفسي من هذا أو أن أؤجله ما استطعت. كانوا جميعًا يضيقون عليَّ الخناق كلما رأوني، وكانوا كثيرًا ما يرونني لأنني كنت أنزل عند خالي في القاهرة، وهناك تتكرر الدعوة والنصيحة بأنه لا داعي للعمل، وتبدأ الإشارات مرة أخرى إلى الزواج. فإذا ما هربت من القاهرة وعدت إلى دميرة وجدت تفيدة في انتظاري تحاول بصعوبة وأدب أن تقنعني أن من الأفضل أن أعود إلى الزيتون وأن أصحبها معي، وكأنما تريد أن تذكِّرني أن وجودي في دميرة لم يعد مريحًا أو مرغوبًا فيه.

ولكنني ظللت مصرة على أن أعتبر البيت في دميرة بيتي، وأن أعود إليه لأقضي معظم أيام الأسبوع، وأن يأتي دانيال في أيام السبت والأحد لنمضي الوقت معًا، أساعده في دراسة العربية وأقرأ له في الكتاب المقدس، وأحيانًا في مقالات جده التي كان يكتبها في المجلة القبطية. وحاولت أن أشغل نفسي بمتابعة الجرائد السياسية السريعة العميقة للوحدة مع سوريا وللانفصال وأن أسمع الخطابات والتحليلات ومحاضر الجلسات.

ولكني لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي، رغم حماسي وتحمسي للخطوات، أن أحس أن هناك حاجزًا ضعيفًا يفصل بيني وبين المجتمع

Twitter: @ketab_n

الذي يتحرك وأنا غير قادرة على أن أعود إليه أو أن أشارك فيه، ولا أكاد أعرف الطريق إلى ذلك. لقد صاحبني هذا الإحساس الجارح منذ أن عدت، ولم أجد في كل مَن حولي مَن يساعدني على التخلص منه، بل كانوا يزيدونه إيلامًا؛ لأنني كنت أقف في وجوههم هم أيضًا وأراهم مثل المجتمع منفصلين عني.

كنت أتابع الأفكار والتطورات النظرية، وأحس أن الأحلام والآمال التي تدعو إليها الثورة أحلام شرعية لمصر وللشعب كله، ولكن الخطوات إلى تحقيقها هي أقرب دائمًا لأن تكون ناقصة متكسرة متكررة والناس يتحركون إليها في عجلة وتصلب وكأنما هم شخوص في فيلم سريع أو كأنهم عمال يرتبون غرفًا في بيت، وكلما فرغوا من غرفة أعادوا ترتيبها مرة أخرى. إنني أذكر هذه الصورة في تلك الأيام؛ لأنني كنت أنا نفسي أصنع ذلك ولا أكاد أفرغ من ترتيب البيت وكأني أخاف لو انتهيت منه أن يكون عليَّ أن أواجه الحياة الجديدة التي لا أعرف كيف أملأها أو كيف أصنعها. كنت أرتب غرفتي وأرتب أوراقي وأبدأ في مشروع كتابة تاريخ الأدب الأمريكي بالعربية وأتوقف ثم أرتب كتبي مرة أخرى وأتصور أنني في حاجة إلى قراءات جديدة في الاشتراكية، وعن الاتحاد السوفيتي، ثم أنصرف إلى محاولة لترجمة رسالتي وأفكر في طبعها.

وأجلس وحدي فأعود إلى قصائد «إميلي» أصوغ سطورًا منها بالعربية، وأخيرًا لا أجد إلا الكتاب المقدس لأعود إليه وأغرق فيه من جديد، لأعيد قراءته من البداية دون أن أحقق هذا

Twitter: @ketab_n

الاتصال والاستمرار الذي أريده والذي بدأت أفتقده في حياتي وفي المجتمع من حولي.

وما أسرع ما اشتد القلق في نفسي وأصبحت أتحرك بين دميرة والقاهرة دون مبرر، وأكتب الخطابات التي تعبر عن بعض القلق إلى الأصدقاء والمعارف في أمريكا وكأنما أحسدهم على ما هم فيه من استقرار واتصال دون أن أتلقى منهم ردودًا، وكأنما انقطع بيننا الاتصال، أو أن هناك رقابة على البريد تمنع عني خطاباتهم أو تمنع خطاباتي عنهم. وقد حذرني المحامي ميلاد، وأنا عند خالي في إحدى الليالي، من أن أكون مراقَبة.

وقد ضحكت، واقترح أن نسحب بالتدريج الأموال التي في البنوك وأن أسمح له بأن يدرس تهريبها إلى فرنسا أو سويسرا؛ حيث يستطيع أن يجد معارف يساعدونه في ذلك. وقد ضحكت من كل هذه الأفكار وقتها، ولم أكن أتصور أنه جاد في حديثه حتى بدأ يحكي لي عن عمليات مماثلة أخرى، وبدأ يذكر أفرادًا وعائلات ممن أعرفهم أو أسمع بأسمائهم. وقد زاد كل هذا من قلقي وتحركاتي العديدة بين دميرة والقاهرة، وكدت ألحظ فعلًا أن هناك عربة تتبعني، ولكنني كنت لا أصدق أن هناك من يهتم بمتابعة ومراقبة هذا القلق الذي أحسه في نفسي أو أن هناك خطرًا على أحد أو على نفسي من هذا القلق. فلقد رفضت فعلًا طلبات المحامي وأفهمته أنني أريد أن أبقى في مصر وأني لن أغادرها من جديد إلا أنني لم أجد ما يمنع أن يسحب ما يريد من أموال ـ بلغت حوالي عشرين ألفًا فيما أذكر ـ ووضعناها في خزينة غرفة دانيال وأضفت مفتاحها الكبير إلى

Twitter: @ketab_n

مفاتيحي التي أحملها في حقيبتي بعد أن كنت أضعه في درج مكتب حكيم وأغلق عليه.

لقد تجاوز الليل منتصفه وأنا ما زلت يقظة أكتب وأفكر في التفاصيل. حقًّا لقد كنت حينذاك مقبلة على تغيير للفصول، ولكنني لم أكن أدري، ولم يكن هناك من يستطيع أن يقنعني بذلك. فكيف كنت أتصور أن القوانين الاشتراكية قداس يعلن شيئًا خاصًّا لي، أو أني كنت مدعوة من أمريكا لهذا التغيير؟

كان الوقت موغلًا في الليل، وإن كنت ليلتها قد ظللت سهرانة وحدي في غرفتي في دميرة وراء شباك دميانة أقرأ من جديد في ميمرها وأتتبع ضوء الشمعدان الكبير الذي أجلس تحته وهو ينعكس على صورتها وعلى وجوه العذارى. وما زلت أذكر أنني لم أتجاوز ليلتها سطور البداية، وأنني توقفت أحلم بقرارها عندما أراد أبوها أن يزوجها وهي في الخامسة عشرة:

- يا أبي كيف يخطر ببالك هذا الفكر وأنا قد نذرت نفسي أن أكون عروس السيد المسيح.. ولم تخطر ببالي هذه الفكرة؟

ورحت وقتها أستعيد كلماتي لأبي وزواجي من حكيم وسنوات الغربة وأيام العودة، وأحسست أنني منذ عجزت عن اتخاذ هذا القرار أمام أبي وأنا لا أستطيع أن أتخذ قرارًا بملء نفسي وروحي، وأن كل ما مر بحياتي منذ ذلك الحين كان مجرد انسياق للفصول وقرارات يتخذها الآخرون لأطيعها وأنفذها وأتحمس لها.. ولم أكد أطفئ النور وما زالت صور العذارى في عينيَّ حتى تعالى دقُّ الباب ودخلوا وتفيدة أمامهم تقول:

Twitter: @ketab_n

ـ يا ليلة سودة.. الحقي يا ست زمردة.

ولم أستطع أن ألاحقهم وهم يدخلون بسرعة، ثلاثة ومعهم اثنان يرتديان الثياب المدنية. ولم أكد أفهم إلا أن معهم قرارًا بوضعي ووضع دانيال حكيم غالي تحت الحراسة وأنهم مكلفون بجرد محتويات البيت وأوراقه. وأحسست وأنا أجلس في البهو وأعطيهم مفتاح الخزانة وأتركهم يتجولون في البيت أن وجودهم وحركتهم شيء مضحك وكأنه تمثيل، أو كأنه مجرد كلام من كلام الأهل والأقارب في بيت خالي أو حديث المحامي الذي كنت أواجهه باستهانة وإنكار مضحك، على أنه شيء سيمر وينتهي وأنه مخاوف وقلق لا مبرر له.

وعندما تأخروا طويلًا في غرفة حكيم شكرت الرب أن دانيال في المدرسة ودخلت وراءهم فالتفت لي لأول مرة كريم وتقدم ليحادثني من بينهم ويقول:

ـ لقد انتهينا.. ولم يعد إلا توقيع بعض أوراق.

نعم، كانت «انتهينا» أول كلمة يقولها لي كريم وهو يبتسم ابتسامته الحلوة الرزينة ويسقط الضوء على بدلته الزرقاء وكرافتته المنقطة بنقط بيضاء دقيقة وإن كنت ما زلت لا أعرف حتى اسمه. ولم يتكلم بعد ذلك، ولكنه اتجه للانصراف وترك واحدًا من الآخرين يقرأ معي كشوف الجرد التي لم أتذكر منها إلا العشرين ألفًا وعددًا لا أذكره من الأساور والعقود والحلقان وأوراقًا بتوقيع أيوب عبد الملاك. وارتعدت وأنا أسمع اسم أبي، فوقعت على الكشف ولم أفهم ماذا يعنيه بالضبط وهو يقول لي إن مفتاح الخزينة سيسَلم لي في المكتب

Twitter: @ketab_n

مع إجراءات التصرف. لم أكن قادرة على أي تصرف أو حديث إلا أن أنظر إليهم وأن أراهم يخرجون وكأنما أصبحوا وراء زجاج. وكيف كان لي وقتها أن أتنبه إلى أن الزمردة الخضراء ذات الحرفين ـ من آخر الكلام لأوله ـ لم ترد في الكشف، أو أنها كانت في ذلك الوقت قد سُرقت فعلًا؟ لم يخطر في بالي وقتها إلا أن أهدئ من تفيدة التي ظلت تقول:

ـ يا ليلة سودة.. يا ليلة سودة.

وتهم بالصوات وكأنها تريد أن تستنجد بأحد وأنا أقول لها في هدوء وتماسك:

ـ ده لازم حصل غلط، بكرة المحامي يصحح كل حاجة.

ألم تكن هذه هي كل كلماتي: «بكرة كل حاجة تتصلح».. «بكرة كل حاجة تتصلح».. «بكرة كل حاجة تتصلح»؟ كم أود أن أظل أكتب هذه الكلمة! ولست أدري لماذا تتساقط الآن هذه الدموع غزيرة حتى لا أستطيع أن أكتب وقد انتهى كل شيء ولم يعد في نفسي الآن من كل هذا إلا أني لا أستطيع أن أقول: بكرة كل حاجة تتصلح.. بكرة كل حاجة تتصلح.

يا رب.. إني أرتجف.. أرتجف.. لقد أفزعني منبه تفيدة الذي ضبطته للسحور.. ولم أعد أستطيع أن أواصل الجلوس وهذه الحمى تهز في بدني.. ما أشد سواد هذا الليل!

Twitter: @ketab_n

طقس الاعتراف

مرت أيام لا أعرف عددها بالضبط. ارتفعت فيها الحمى حتى أصبحت لا أكاد أعي بما حولي أو مَن حولي. وامتلأ البيت بهم. خالي جاء وأولاد إخوة حكيم. الرجال والبنات والسيدات. والمحامي وأعضاء من المجلس الملي و«أبونا» ثيوفيلوس ورسول من البطرك.. ولا بد أنه كان هناك غير هؤلاء أيضًا.. فقد كان البيت دائمًا مليئًا بالحركة والأصوات الهامسة، وكانت الكلمات تعلو أحيانًا وأحيانًا تحتد وكأنهم يتشاجرون. وكانت تفيدة والممرضة التي أحضروها والطبيبة الصغيرة ماتيلدة بطرس هن وحدهن يدخلن عليَّ ويتناولن جسمي وأراهن بعينيَّ عن قرب وهن يضعن الحقن في ذراعي أو فخذي، وكانت تفيدة هي التي تصر على أن تقوم وحدها بتغيير الملابس ووضع البودرة، وكن يتركنني لها لأنني كنت أدعوها مباشرة باسمها وأتشبث بيدها وأنا لا أريد أحدًا أن يظهر على جسدي أو يتلمسه غيرها. ولا أظنني ارتكبت حماقة أو هذيت بما لا يحق لي أو لا أحب أن أقوله.

Twitter: @ketab_n

لقد كانت تفيدة دائمًا على لساني وكنت أكرر اسمها وكأنما عن قصد، حتى لا أذكر أسماء أخرى أو حتى لا أدعو دانيال وأنا تحت تأثير الحمى أو النزلة كما سمتها الطبيبة. كنت حريصة على خفائي وأنا أرفض أن يدخل عليَّ «أبونا» قائلة:

ـ مش دلوقت.. مش دلوقت.. بعدين.. بعدين.

فلم أكن أحس أنني أموت أو أن ساعتي حانت، بل كنت ما زلت قادرة على الغضب عليهم في الخارج وما زلت قادرة على أن ألتقط أحيانًا كلمة من هذا أو تلك. وسمعت الطبيبة منذ أيام وهي تتشاجر أو تحتد مع خالي وتذكر تلك الكلمة التي أعرف معناها جيدًا ـ «ترمينال» ـ وهو يقول لها:

ـ أحسن.. تروح المستشفى.

ولم أعرف أنني لن أموت في هذه الحمى الجديدة التي أصابتني إلا لأنني غضبت غضبًا شديدًا في داخلي وظللت أقول لا، كلما دخلت عليَّ الطبيبة، أو دخلت عليَّ تفيدة دون أن أكمل لهما الجملة، أو أعلن عن قصدي.. ولكنني كنت مصممة أن أرفض أن أموت إلا هنا في بيت الزيتون حيث مات أبي وأمي.. وكأني لم أكن أنا التي أردت أن أبيع البيت أو أن أتخلص منه. كنت مصممة على ذلك وكان غضبي يطمئنني أن ساعتي لم تأت بعد.

كلا.. لم يحدث شيء آخر خلال تلك الأيام.. ولكن يبدو أنني سألت.. أو طلبت من تفيدة.. أو حادثتها بشيء عن دانيال.. أنا لا أستطيع أن أذكر الآن.. ولكنها قد وضعت صورة متوسطة الحجم له في بروازها الجميل المفضض، بحيث أستطيع أن أراها وأنا في

Twitter: @ketab_n

السرير. وكانت الصورة هي كل ما تغير في الغرفة.. نعم، لم يتغير شيء آخر، إلا أنني ازددت إحساسًا بالضعف والتهالك وأحسست كأنني فقدت الكثير من وزني.. وإن كنت لم أجرؤ إلى الآن على أن أنظر إلى المرآة.. ولكني أستطيع أن أقوم الآن وأن أذهب للحمام وحدي.. وقد انتهيت فعلًا من إعلان إصراري بوضوح لخالي ولغيره وللطبيبة بأنني لن أغادر المنزل.. وكم ابتسمت في فجيعة في داخلي، وأنا أسمع تفيدة تتدخل معي، وإلى جانبي، لتقول لهم مرة أخرى تلك الكلمة القديمة التي سمعتها مني.. في تلك الليلة البعيدة:

ـ بكرة تتصلح كل حاجة.. بكرة تتصلح كل حاجة.

وكأنها لا تملك شيئًا آخر تستطيع أن تقوله. لا يا تفيدة.. لن يُصلح الغد شيئًا.. لكنه سيأتي فقط ليتمم عذابي.

إنك يا تفيدة، لا تعرفين ماذا تعنين لي الآن، وماذا تفعلين في روحي كلما أراك. إنك لا تجادلين في شيء ولا تطلبين شيئًا، وكأنما أوامري، مهما كانت، كلمات مقدسة تنفذينها بلا تردد ولا تفكير.. لقد قلت لك احملي صورة دانيال إلى موضعها على مكتبه، ففعلت مباشرة بلا تعليق أو حديث، وكأنما أنت التي أخطأت بإحضارها إلى هنا. وقلت لك إني لا أريد زهورًا في البيت أو بخورًا فأخرجتها كلها. وكم مرة أجبت على التلفون لتقولي، كما طلبت منك، إنني نائمة.

وعندما طلبتُ منك أن تحدثي الكنيسة وأن تطلبي الأب ثيوفيلوس فعلت، وحضر بالأمس، وتركتنا بمفردنا أكثر من ساعة وكأنك غير موجودة في المنزل. فإذا همستُ أريدك أو أطلب ماء كنت في لحظة

Twitter: @ketab_n

إلى جانبي وكأنما تصلك كلماتي قبل أن أنطق بها. لو تعرفين أي نعمة أنت، لو أنك قادرة على أن تقرئي لي في الكتاب المقدس لما احتجت أن أرى أحدًا غيرك. بل إن أحدًا غيرك لا يقدم لي شيئًا يا تفيدة. إن الطبيبة الصغيرة تعرف أنها مهما غيرت من نظام الحبوب أو عادت إلى الحقن فالحالة «ترمينال»، وهي لن تحقق معجزة. وكلهم جميعًا يريدون أن أنصرف.. أن أرحل.. حتى دانيال في غيبته وغربته قد يعود إذا قرأ أنني مت في الجرائد أو عرف ذلك حيث هو الآن.. لقد أصبحت حملًا ثقيلًا لا يستطيع أحد أن يحمله إلا أنت.

وإذا كان الرب قد منحني هذه المهلة فلأنه يريدني أن أعدد خطاياي ليزداد مجده. إنك لا تقرئين معي يا تفيدة رسائل بولس ولا أستطيع أن أحدثك عن الخلاص الذي أنتظره وعن التبرير الذي أبحث عنه. إن هذا.. هذا فقط هو ما لا أستطيع أن أشركك فيه ولا أستطيع أن أتصورك قادرة على فهمه.. ولكني موقنة يا تفيدة أنك قادرة على أن تفهمي عني كل ما أريد أن أقوله.. حتى هذا الذي أبحث عنه وأريد أن أصل إليه. لقد اجتزت معي بالأمس مخاضة صعبة لم أكن أعرف كيف أجتازها وحدي، ولم أكن أقدر أن أطلب العون من أحد غيرك ولا حتى من «أبونا» الذي حمل نفسه أن يعبر معي هذه الأيام الباقية إلى الموت.

عندما دخلت عليَّ بالأمس تعلنين لي عن مَقدمه كما طلبتُ، وقفت إلى جانبي ساكنة تنتظرين ردي، ووضعت يدك على رأسي وأنت تقولين لي:

ـ أنت والله منورة زي الملاك.

Twitter: @ketab_n

لم يقل لي أحد ذلك من قبل. وابتسمت لك وكأنما أحسست فجأة أنني قد بلغت من روحك هذا الموقع الذي كنت أريد أن أهبط فيه. ووجدت نفسي قادرة على أن أدعوك إلى سري وأن أدخلك أرض خفائي وسألتك إن كنت تعرفين الكراسة التي أكتب فيها. فلما أجبت برأسك تقولين نعم وعيناك تفيضان فهمًا، قلت لك إنني لا أريد أن يراها أحد بعد أن أموت.

فلما سألت:

ـ ولا دانيال؟

قلت لك:

ـ ولا دانيال. خذيها إلى دير الست وهناك أحرقيها دون أن يراك أحد، وأشعلي باسمي شمعة.

وظللت أضغط بيدي على ذراعك بكل ما أستطيع من قوة حتى خرجَت من بين شفتيك كلمة «حاضر.. من عينيَّ»، وهما مليئتان بالدموع. وتركت ذراعك وأنا أحس أنه قد سرى بيننا شيء أو أننا قد أتممنا معًا «كاتشيزم» يحررني ويعطيني القدرة على أن أحتمل أيام العذاب القادمة كلها وأنك قد أصبحت ملاكي الذي يشفيني كل يوم من عذاب كل يوم، وأن شيئًا لن يصرفني عن هذا الصراع الذي دخلت فيه، حتى ينتهي.

هل تعرفين يا تفيدة ما الذي يجعل احتمال العذاب والتعذيب ممكنًا؟

لقد جعلتني لحظتنا هذه قادرة على أن أوجه لحظاتي مع القس المقدس كما أريد. وطلبت منه أن يقرأ لي «سفر هوشع»؛ فلم أعد

Twitter: @ketab_n

قادرة على أن أرفع الكتاب المقدس الثقيل على يدي، وطلبت منه أن يُحضر لي نسخًا من رسائل بولس مفردة، خاصة «رومية»، وسألته أن يدعو لي الرب بتحمل العذاب والفهم.

من يعرف ماذا يفعل البشر بأنفسهم إذا ما أصبحوا هكذا وحيدين منعزلين يواجهون بمفردهم النهاية والموت؟ إن معظم الناس، إن لم يكونوا جميعًا، يموتون كما يحيون جماعة. لا أحد يموت بمفرده؛ لأن كل واحد يموت في حياة وعن ناس، وكأنما هو يأخذ منهم شيئًا عندما يرحل. كل واحد يحمل عندما يذهب بعضًا من الناس وبعضًا من الحياة وقد يترك فراغًا كفراغ الضرس المقلوع، ولكن الفك الكبير الضخم مليء بعدد لا نهاية له من الضروس ويظل بعد كل موت يطحن الطعام والحياة.. أما أنا فإنني أموت وحدي.. وحدي. لحظة.. وراء لحظة.. في الصحو وفي النوم.. في الحديث.. والصمت.. في الحلم والعين المفتوحة، في اليد المقبوضة واليد المبسوطة، في حركة القدم أو تعطلها.. في اتجاهي للآخرين دون اتجاه.. وفي انصرافي عنهم وهم حضور.. ألا يكون هذا هو فقدان الصلة الحية مع الواقع الذي يتحدث عنه أطباء النفس؟ لا أظن أنني مريضة بمرض آخر غير هذه «اللوكيميا» التي تفتت الكريات الحية وتبتلع لحظات الزمن كأنها خيط تشده إلى داخلي لينتهي.

لقد مرت أيام طويلة، أسبوعان، بل ثلاثة، بل وبضعة أيام، منذ عقدت هذا الحلف الخفي مع تفيدة، لست أدري بالضبط ماذا حدث في روحي بعد ذلك. لماذا صمتَتْ، وظلت غير قادرة على أن تدفعني لأمسك القلم خلال هذه الأيام الطويلة. هل هو أثر الأدوية الكثيرة..

Twitter: @ketab_n

وهذا الجهد الغريب الذي تبذله طبيبتي الصغيرة في صمت وكأنها تتحدى أو تجرب وتتعلم في بدني؟ لقد غيرَت نظام الحبوب والحقن وقالت لي إنها تجرب خطة جديدة للعلاج جاءتها من أمريكا وإنها تجد بدني يستجيب! لماذا؟ لماذا يا صغيرتي؟ إنني أعرف بدني وأعرف أنه دائمًا يستجيب. وأن استجابته كانت دائمًا أكبر مني وأكبر مما يستجيب له. إنني أعرف أكثر منك هذا البدن لأنني رأيته يستجيب للنور وللشمس والهواء وروائح الزهور وطراوة الماء، وعرفته يستجيب أو لا يستجيب لكريم وحكيم، ورأيته يعيش ويستجيب لحياة دميانة وعذابها، وعرفته يضوي ويجف مع قصائد «إميلي»، ويخف ويتبدد مع آيات الكتاب ورسائل بولس ووعد الخلاص.. إنه يستجيب يا بنيتي لكل هذا واستجاب، ولكنه ظل دائمًا مفروضًا عليه أن ينسى وأن ينتقل من استجابة إلى أخرى في طريق واحد.. هذا البدن أنا أعرفه أكثر منك. لقد عرفته طوال خمسين سنة.. عرفته.. فلا تحاولي. أنت لا تفعلين غير مد المدة، غير إطالة الوقت، غير تكرار الاستجابة.. أما هو فطريقه واحد إلى الموت، قد تكونين أصبته بالصدمة، وأغفيته أيامًا معكوسًا على نفسه فأصبح كالبركة التي يتكاثر فيها الأسن والطحلب الأخضر حتى تسود المياه فلا تعكس الضوء.. إنه راكد.. آسن. أما أن يشفى، يتغير.. فلا.. أنا وهو وحدنا نعرف ذلك ونعرف أن الخيط قد بدأ يفرغ من بكرته وأن البكرة تهتز اهتزازًا شديدًا للنهاية.

هل أنت السبب بحبوبك ونظامك الجديد في أنني صمت عن الكتابة وأنني ظللت كل هذه الأيام بعيدة عن قلمي وكراستي؟

Twitter: @ketab_n

إن هناك رعشة في بدني قائمة تجعلني أعرف أن هذا النظام الجديد، وهذه الحبوب، مثل زائر غريب يبحث في جبَّانة واسعة عن قبر العزيز الذي يريد أن يزوره فلا يهتدي، وأن جسدي يرقد، وقد رقد، بلا رجاء إلا رجاء القيامة. قد أصبح الآن هو وحده الذي يعرف أحواله. ولكنك مع ذلك جعلتني أشفى من نزلتي وجعلتني أتحرك من جديد.

لقد ظللت أيامًا طويلة أعالج بنفسي ركود روحي وأسنها وأترقب عودة تلك القدرة على تحمل مسؤولية المعرفة والفهم وسلوك الخلاص بهما من خلال الكتابة. ظللت أنظر إلى روحي وهي صامتة وأنا أسترسل في صناعة هذا النسيج الغريب من الأحلام، واستعادة الصور، والأحداث، والتفكير المبدد، واستحياء المواقف والأفعال القديمة، وتصور نفسي أصنع غير ما صنعت، وأتصرف بغير ما فعلت، أو أقول وأتحدث بكلمات أخرى غير ما قلت حينذاك. هذا النسيج الغريب الذي يسمونه أحلام اليقظة كان قد لف روحي وقدراتي كلها، وأصبحت ـ منذ تلك الليلة التي اتفقت فيها مع تفيدة على أن تحرق أوراقي ـ غير قادرة على أن أضيف شيئًا إلى هذه الأوراق.

هل كان هذا الحلف خطية جديدة ضربت روحي بالتبطل والعجز وأسلمتني لتلك البِركة من الأفكار والأحلام الصامتة التي تنمو فيها نباتات الظلمة، كلها جذور سطحية معشوشبة بلا ساق ولا زهر أو ثمار؟ هل ضربت بهذا الحلف قدرتي على بلوغ الخلاص؟ كانت أيام الصمت وأحلام اليقظة أيامًا تمد من حولي تلك البِركة الآسنة، فأحس أنني أغرق دون أن أصل إلى الضوء أو الفهم لكل هذا الماضي

Twitter: @ketab_n

ولتلك الحياة التي أريد أن أستعيدها، وأحيانًا أخرى كنت أحس أنني بأحلامي الساكنة غير المكتوبة أفتّت كل الماضي وأدوسه بقدميَّ وكأنه أوراق خريفية هشة، وكأن هذه الأحلام الساكنة هي تلك العملية الشيطانية الأخرى في دمي التي تأكل الكريات وتدفع بي إلى الصمت المطبق الأخير. لقد بلغ بي الفزع من عجزي عن أن أكتب، أن واجهت كل ما في روحي عن يسوع وعن طريق الخلاص الذي صنعه بالصليب. وكم من المرات ناقشت نفسي وحاورتها في صمت لأميل بها إلى التوبة وإلى تلك العودة إلى الحضن الإلهي الذي منه يسيل الغفران وينبلج النور.

وأمسكت بالرسائل التي حملها لي الأب ثيوفيلوس ورُحتُ أقرأ وأقرأ. «رومية»، «كورنثوس»، «غلاطية»، واحدة واحدة، مرة بعد أخرى، آية بعد آية. أقرأ كأنما أستعيذ من الماضي، أقرأ كأنما أزيح أشباحًا أو أكسر كبرياء الخطيئة. غير أن الخلاص، الذي هو نعمة، لا يأتي على روحي المجهدة. كنت أقرأ وكأنني أغرق أو أختنق. وكانت كلمات الرسول الحارة الحادة وهو يكلم الأمم تحاصر روحي بنار باردة كالصقيع الشديد تجمدها ولا تحرقها، وكأنما أنا محرومة من ناره التي «ستمتحن عمل كل واحد».

كانت كلماته عن الخطيئة تصيبني وكأنها تصفني، وتدفعني أن أحلم من جديد بحياتي وخطاياي وأستسلم، وكأنما للشرير، إلى أحلامي الصامتة من جديد. وما أكثر ما كررت قراءة كلماته عن التوبة. وأظل مع ذلك أعرف في داخلي أن حزني ما زال هو «حزن العالم» الذي «ينشئ موتًا».. أما ذلك «الحزن بحسب مشيئة

Twitter: @ketab_n

الله».. ذلك الحزن الذي ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة.. فأين هو؟ أين أنا منه؟ وكيف أصل إليه؟ كان يدعوني ويفصلني عنه في كل آية. أسمعه يتحدث عن «أبناء المعصية» وعن «سلطان الهواء».. فأريد أن أجتمع مع أولئك الذين سمعوه وشُفوا، وأتعزى وهو يقول: «نحن جميعًا تصرفنا قبلًا بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا». وتنتظر روحي الجافة المتكسرة.. الله الذي «هو غني في الرحمة».. لكنني لا أعرف الطريق إلى محبته الكثيرة.. إنها قائمة هنا.. أعرفها وأومن بها، ولكنني لا أجد منفذًا إليها ولا أعرف متى قد تحل أو تنطلق كالريح من باب ضيق.. كنت أقول وأنا أكلم نفسي وكأني أريد أن أكلمه إنك تتكلم «إنسانيًّا» من أجل ضعف جسدنا وإنك تعلم أن جسدي مبيع تحت الخطيئة.. وأنت تعلم كما «أنني أعلم أنه ليس ساكنًا فيَّ، أي في جسدي، شيء صالح».. فماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ «والقادر أن يفعل فوق كل شيء، أكثر جدًّا مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا». هذا القادر تركني دون قدرة أن أخلع أعمال الظلمة وأن ألبس أسلحة النور.

يا رب.. يا رب.. لماذا أسلمتني إلى هذه البِركة الآسنة التي تسكن في أعماقي وفي أعماقها الخطية الساكنة فيَّ؟ ولماذا تركتني، بكل إرادتي الحاضرة، لا أستطيع أن أفعل ما أريد؟ لماذا تركتني أفعل ما فعلت؟ إنني أندم.. ولكني أندم ندمًا بلا خلاص ولا توبة.. وكلمات الرسائل تفزع روحي وكأنها عذابات دميانة وأنا أعرف ألا أمل في شفاء.. إن طريقي طريق آخر وما زالت تجاربي مع الشرير لم تكتمل.

Twitter: @ketab_n

نعم، ما زالت تجاربي مع الشرير لم تنتهِ، وما زالت تتملكني تلك الرغبة التي قد تكون عقيدة شريرة في أن أعرف حياتي مكتوبة وأن أخطوها مرة أخرى بالكلمات وبالوعي. هل الوعي من الشرير؟ هل هذا الطريق الذي أسلكه هو طريق غير مسيحي؟ هل أنا ماضية في لعنتي، أم هل هذا هو طريقي للخلاص، طريقي لأن أتلقى النعمة عندما تأتي وأن أكون معدة لها عندما تهب؟

إني لم أكن قادرة في أيام الصمت حتى أن أعود لـ«إميلي». كنت أحسها جزءًا مما أنا غير قادرة على أن أعود إليه مع حرصي ورغبتي في أن أفعل ذلك. كنت أظل في فراشي أحلق في الفراغ وكراستي تحت المخدة لا أنزعها، وقلمي معها، وأحاول أن أمنع نفسي من أن أستعيد مناظر غرامنا أنا وكريم في شقة الزمالك التي شهدت كل خطيئتي. وكانت مناظر الحب بيننا تنثال عنيفة مضطربة كلها، حركة بدنين انفجر فيهما نهم ورغبة متجددة تتشكل في كل لحظة في صورة أو حركة جديدة. وكانت هذه الصور تملأ الغرفة والفراش الذي أرقد عليه، فأحس أنني أسيء إلى رسائلي المقدسة، وأنني أستحي منها وكأنما أريد أن أبعدها عن أن تشهد هذه الذكريات. كانت صور الماضي تأتيني غير مرتبة وغير متسلسلة ككل تذكر. ولم أكن أريد أن أذكر، بل أن أعي وأفهم.

وامتلأت روحي بهذا الإيمان بالطريق الآخر للخلاص، الذي لا أستطيع أن أصوغه ولا أستطيع أن أحدده بأكثر من هذا الحرص على أن أمسك بعذابي وأن أسلسله في الكلمات المكتوبة التي أتركها ورائي أو لا أتركها. لقد حاولت، وأنا أجد نفسي غير قادرة

Twitter: @ketab_n

على الكتابة، أن أسترجع شتات دراستي وقراءاتي في الأدب لأستبعد صور الحياة الماضية التي تستبد بي.

ومر بخاطري هذا السؤال الغريب عن كل الأدب وعن كل الكتابة، وعن كل محاولات ومخاطرات الكتاب والشعراء الذين عرفتهم: هل يسجلون ويكتبون ليصنعوا بأعمالهم هذا الخلاص الذي كانوا يريدونه؟ هل كانوا هم أيضًا يبحثون عن الخلاص؟ إنهم يحاولون، ويكسرون كل منطق، وكل صورة، وكل تقليد لينطقوا، ليسجلوا لحظات وحيوات لا بد أنها أيضًا قد استبدت بهم، ولم يكن هناك طريق للسيطرة عليها إلا بما قدموه وتركوه من أعمال وروايات وقصائد.

وعلى الرغم من امتلاء حياتي قبل كريم وبعده بقراءات ودراسات لا تنتهي، فإنني أحس أنني وحيدة متروكة لا عون لي مِن كل مَن عرفت وأحببت من كُتاب، وأنه عليَّ بمفردي أن أصنع حكمتي وطريقي. كان يخايلني أحيانًا «جويس» وحلم التسجيل الكامل للداخل، وأحيانًا أتذكر «فولكنر» وضغوط البيئة والتاريخ التي يصعدها في كلماته. ولكني كنت أحس أن كل الصور والأساليب التي عرفتها ودرستها في الأدب لا تنفعني ولا تطلق ما أريد من معرفة. وعندئذ أحس أن ما ينقصني فعلًا هو المعرفة؛ فأنا لا أعرف لماذا أحببت كما أحببت، ولماذا استسلمت كما استسلمت، ولماذا عاش كريم هذه الحياة التي عاشها قبل ٥ يونية وبعدها، وما علاقة كل هذا الحب والحياة وما تكشف فيهما من خواء، ببلدي ومجتمعي وبمصير هذا البلد، حتى بعد أن عشت وأنا وحيدة معزولة وقد تغير هو، وابتعد واختفى

Twitter: @ketab_n

من حياتي وكل أضواء أكتوبر تتفجر في مصر بأنوارها ومشاكلها ومتاعبها.. إنني لا أستطيع أن أضع كل هذا في دلالة واحدة مخلصة. ولكن هل تستطيع أي كتابة أن تفعل ذلك؟ هل يمكن أن أصل فعلًا بالكلمة المكتوبة إلى السر الذي يصرع الشرير ويختتم تجاربي ختامًا غير الموت المرضي بـ«اللوكيميا»؟

لقد مرت لحظات بالبشرية كانت فيها الكتابة عملًا وطقسًا يتم من خلالهما الخلاص للفرد والمجتمع. ولكن من الذي يستطيع الآن أن يعيد أثينا أو أن يعيد أيام «شكسبير»؟ إن كل كتابة الآن محاولة لخلاص فردي يتشبث بها الأفراد الآخرون وكأنما يُطْبقون على خشبة صغيرة في محيط قاسٍ من الموج. لقد تفتتت المعرفة كما تفتت كريات دمي من طول ما فرضه المجتمع على أفراده من خفاء قد أرغمهم عليه حتى ألفوه ولم يعودوا يعرفون كيف يعيشون من دونه. وهذا الخفاء الذي يصنع الفرد هو لعنة العصر التي عشتها كما عاشها غيري. وهي اللعنة التي تحرمني كما تحرم كل فرد آخر من أن يجد في كل مؤسسات المجتمع، بكل أنواعها وأشكالها، ما يمنحه الخلاص الذي يحرره من فرديته، فيعطي عذابه دلالة عامة يشاركه فيها الجميع بل والمجتمع كله والتاريخ والمستقبل. وما أقسى صراع الفرد مع الشرير بمفرده في البرية، وما أضعف طَرقاته على باب السماء ويده وروحه مشغولتان بالشرير.

إنني لا أعرف، ولن أعرف أبدًا، إن كان ما كتبته قد سلك بي طريقًا آخر للخلاص أم لا، ولا أعرف إذا كنت قد انتهيت فعلًا مما أريد أن أقول. ولكني أحس أن طريقي الوحيد هو كمال العذاب نفسه،

Twitter: @ketab_n

وإنني لا أستطيع أن أجد تلك الراحة التي أنشدها حتى أنظر النظرة الكاملة لكل ما هو شر. أليست تلك هي كلمات «هاردي» وإن كنت أتذكرها ناقصة مشوهة؟

... إذا كان للمرء أن يجد أفضل طريق
فعليه بالرؤية الكاملة لأقصى ما هو شر

لقد مر هذا الوقت الذي كنت أستطيع فيه أن أقفز إلى مكتبتي لأجد الأبيات بموضعها ونصها. ولم يعد أمامي إلا أن أجترَّها بقدر ما أستطيع وأنا على الفراش، فلا قيمة حقيقية لأي حصول أو تحقيق.

ولكني ما زلت، رغم كل ما كتبت في هذا اليوم الطويل، منذ الصباح حتى المغرب، لم أسجل تلك اللحظة التي اشتعلت في روحي منذ أيام، والتي مكنتني من أن أعود مرة أخرى إلى الكتابة وأن أحس أن الطريق قد أصبح مفتوحًا أمامي لا توقف فيه. هل كانت لحظة من الشرير؟ هل كانت جزءًا من الجحيم الذي يتحدث عنه «بليك»؟

فلتكن أسرع لأن تذبح طفلًا في مهده
من أن ترعى بداخلك الرغبات غير المحققة.

أليس هذا جحيمًا بالفعل؟ أليس هذا من الشرير حتى وإن كانت رغبتي هي أن أعود إلى كنيسة دميانة وأن أزورها من جديد؟

لقد وجدت نفسي بعد طول السباحة في بِركة الأحلام الآسنة أشهق بهذه الرغبة وكأنما أستنقذ بها نفسي وأواصل صراعي للبقاء. كانت قدرتي في بدني قد أصبحت حاضرة وخف هذا التهافت الذي

Twitter: @ketab_n

عرفته في كل شهور «اللوكيميا»، وأصبح عجزي عن الكتابة هو مرضي الذي أريد أن أخلص منه. وقد يكون الشرير أقرب ما يكون للروح عندما تحس عجزها وتعرفه. فلم أكن أرغب، في الحقيقة، أن أزور قديستي، لم تكن هناك دعوة منها في داخلي، ولم أكن أتشبث أو أتضرع بعذابها. كنت في الحقيقة أنظر بطرف روحي إلى تفيدة وكأنما لا أريدها أن تعرف أنني أراقبها. كانت تتحرك في البيت طوال أيام المرض وأيام تحسن صحتي ورقدتي المستمرة في الفراش وكانت تكلمني كلماتها العادية الساكنة وكأنما لم يحدث بيننا حلف أو لم نتفق على شيء أو كأنما هي قد نسيت أو تناست تمامًا أنني أموت وأنني أتوقع منها أن تنفذ هذا الحريق الذي اتفقنا عليه. وصنع الشرير في روحي عويلًا متصلًا يدفعني لأن أسحب كراستي وأنظر فيها وأن أحس بفراغها وخلوها حتى الآن من حكاية الخطية. فهل يفتخر الشرير بأنني أكتب؟ وهل يجد في ذلك خطية جديدة؟ هل فقدت الإيمان والثقة بملاكي الحارس الصامت في تفيدة، أم هل خفت وارتعدت من تصور غيبتي، لحظة تنفيذها لاتفاقنا؟ لست أدري.. ولكن رغبتي اشتعلت في اختبار نفسي واختبار تفيدة وفي التخلص من رقدتي في الفراش. وربما كنت مدفوعة برغبة جديدة في أن أستحضر الموت أو أن أتعجله بيدي. ولكنني قد أصبحت بكل هذه الأفكار غير قادرة على أن أصمت عن تحقيق فكرتي بعد أن حبستها يومين متتاليين لم أستطع فيهما النوم ولم أستطع أن أصرفها عن ذهني.

وصرختُ على تفيدة في الصباح، وجاءت لي مسرعة وهي تقول:

Twitter: @ketab_n

ـ اسم الله عليكي.. في إيه؟

وخجلت من نفسي وأنا أستجمع قدرتي على أن أضع طلبي في كلمات بسيطة وكأنني أريد أن أخفي الشيطان الذي يستبد بروحي. وطلبت منها أن تتصل بالتلفون بفؤاد، ابن بنتها، ليجيء ليحملنا بالعربة إلى دميرة؛ لأني أريد أن أزور دميانة. وسألتني ألن أتعب، وهل نستأذن الطبيبة. فقلت لها، وأنا لا أستطيع أن أخفي كل ما في نفسي:

ـ إنني أريد أن أريك المكان الذي ستحرقين فيه الكراسة.

وصمتت تفيدة صمتًا مخيفًا طويلًا وهي تنظر إليَّ، وكأنما رأت كل ما كنت أخفيه. ولم تنطق لمدة طويلة حتى هززتها من ذراعها وظللت أضغط عليها كما فعلت ونحن نتفق، حتى قالت مرة أخرى، ولكن في صوت لا لون له ولا عاطفة:

ـ حاضر من عينيَّ.

عندما جلسنا في الصباح الباكر في عربتي البيضاء الكبيرة، كانت تفيدة تحمل حقيبة صغيرة خضراء فيها تُرمس به ليمون معصور وزجاجات حبوبي، ومصحف صغير يحرسنا في الطريق. ولم أكن قد رأيتها تضع كل هذا في حقيبتها، ولكنني أعرف أنها ستحمل كل هذا من أجلي. ومن يدري ماذا كانت تحمل أيضًا في صدرها أو في حقيبتها؟ جلستُ على اليسار في العربة وجلسَت إلى اليمين وحاولَت أن تضع مخدة صغيرة ورائي أو عند رأسي فرفضت، وأنزلت بيننا مسند المقعد ورحت أرقب وجه فؤاد في المرآة وقد أدار العربة وظل ينتظر أن تسخن قبل أن نبدأ رحلتنا.

Twitter: @ketab_n

لم أتبادل مع فؤاد حديثًا قبل أن ننزل من البيت. فلقد جاء مبكرًا وأفطر مع جدته وعندما استعدَّت تفيدة للنزول جاءت لتصحبني، ولأراه على مقعد القيادة في العربة، ولم تقُل إلا:

- إن فؤاد جاهز.

وكأنما تُشعرني أنها تنفذ حرفيًّا ما أريد. وقد فتحت هي لي الباب وأجلستني قبل أن تجلس، فلم ينزل فؤاد ولم أحدثه.

كان وجهه الأبيض جميلًا ولكنه شاحب لا حُمرة فيه، وكان يرتدي حلة كاملة بكرافتة قاتمة وكأنما كان مستعدًّا لأن يقوم بمهمة رسمية. وابتسمتُ وأنا أرى شعره الطويل على عادة الشباب اليوم، ومرت بي، في لحظة، صورة دانيال وخاطر أنه غاب قبل أن تظهر هذه الموضة. وعندما خرجت من بين أسناني كلمات خفيضة لتفيدة أقول لها:

- لازم دانيال دلوقت مطول شعره هو راخر.

فإذا بها تجيبني، وكأنما نتحدث بلغة غير مفهومة:

- أنا جايبة معايا الصورة في الشنطة.

وانفتحت في صدري هوة واسعة صامتة، وتحركت فيها ريح من الغضب والكراهية لتفيدة لهذه الملاحقة اللصيقة بمشاعري وداخلي، وقامت في نفسي رغبة في أن أعاقبها طوال الطريق بالصمت التام، فلم أرد عليها واتجهت إلى فؤاد لأقول بصوت آمر:

- مش تطلع بأه.

وتحركت العربة مباشرة في صمت وهدوء، ولم أشعر بالدقائق القليلة التي أخذتها العربة لتخرج من القاهرة وفؤاد يسلك طريقًا لا أعرفه.

وعندما أصبحنا في الحقول لم تتغير سرعة العربة وكأنما السائق

Twitter: @ketab_n

ينفذ تعليمات صارمة من جدته التي أخرجت حبوبي، وفي ابتسامة ودون كلمة، طلبت مني أن آخذها فتناولتها بيدي، وأمسكتها طويلًا قبل أن أبتلعها بالكوب الصغير من الليمون الذي قدمَته وأحسست أنني أبتلع الموت. ولم تُخرجني الحركات الصغيرة عن صمتي، ولكنها جعلتني أقول بالإنجليزية وبصوت عالٍ:

«هي نيو نو هيست»

فتطلعت فيَّ تفيدة في صمت، وتلوَّى وجهها وتخفَّى في عينيَّ وأنا أقاوم الدوار والغثيان المفاجئ، وتراكم عليه أكثر من ظل، فيه خضرة وفيه صفرة، وتعاقبت عليه قسمات من التهديد والتخويف والصمت والرقة، واستمرت العربة في سرعتها المنتظمة واعتلت حركتها تقطيع مقاطع أبيات «إميلي» التي حفظتها وكررتها مرارًا:

لأنني.. لم أستطِع.. التوقف.. للموت
فقد.. توقف هو لي.. من لطفه
ولم تكن العربة تحمل.. إلَّانا فقط
والأبدية
«بيكوز.. أي كود.. نوت.. ستوب.. فور دث
هي.. كايندلي.. ستوبت.. فور مي
ذا.. كاريج.. هلد.. بت.. أور.. سلفز
آند.. إيمور.. تاليتي»

ولست أدري هل كنت أنطق بالمقاطع بصوت عالٍ أم كانت تنزلق في صدري وعلى لساني الجاف فحسب، ولكنني أحسست بالرعدة والبرد وأنا أصل إلى:

Twitter: @ketab_n

«فور.. أونلي.. جوسمار.. ماي.. جاون
ماي تيبت.. أونلي.. تول»

وشعرت أن ثيابي قد شفت وأن لفاعًا من التول يتحرك حول عنقي وأنفاسي، فصرخت بصوت عالٍ:

ـ اقفل الشباك!

وتوقفت العربة مباشرة وتفيدة ترفع مسند المقعد وتحاول أن تضمني إليها وهي تقول:

ـ اسم الله عليكي.

فأسترد أنفاسي وأحرك لساني في فمي كأنما أبتلع المقاطع وأستجمع صوتي الهادئ لأقول لفؤاد:

ـ سوق بسرعة شوية يا فؤاد، ما عندناش وقت.. وعاوزين نرجع قبل الضلمة.

وانقضى ما بيني وبين تفيدة من شجار لم أعلنه، فوضعت إصبعي على شفتي أحذرها من أن تتكلم، وربتُّ على يديها وأنا أرفع المسند من جديد بيننا، والعربة تنطلق في سرعة أكبر.

وأنا لا أذكر إن كنت قد غفوت أم لا، ولكنني لم أكَد ألتفت إلى الطريق وإلى ما فيه من حقول وأشجار ومبادئ الخريف إلا ونحن نخرج من المنصورة ونكاد نعبر كوبري طلخا. كنت قد غرقت في داخلي تمامًا واستكنت إلى الصمت الذي فرضتُه على العربة دون أن أعرف بوضوح ما أنا غارقة فيه. وقد كنت أعرف أنني مقبلة على فعل مصطنع، وأنني أحمِّل نفسي وأحمِّل تفيدة جهدًا لا معنى له ولا مبرر، ولكني كنت أحس أنني أكرس كل هذا الجهد لأتغلب

Twitter: @ketab_n

على هذا الشيطان الشرير الذي يمنعني من الكتابة ويعرقل طريقي إلى الخلاص.

كنت جادة مصممة ومع ذلك متخلية، عارفة بأن ما أصنعه قد لا يؤدي إلى ما أريد، بل لقد كان يخامرني الشك بأن هذا كله هو أيضًا من الشرير وأن ما أصنعه فيه قسوة وتجريح مؤلم لنفسي ولتفيدة معًا. وعندما أدركت أننا نقترب من مقصدنا بدأت أتردد فيما أنا مقبلة عليه. وأخشى من عين الله ومن غضب قديستي ولومها. وبينما نحن نعبر الكوبري الجميل تجري تحته المياه الوفيرة وقد فضَّضتها الشمس، حتى رأيت قادمًا من الشرق سربًا أبيض من الحمام. وتذكرت أبي وهو يقص لي رحلاته إلى الدير وهو صغير، وكيف كان يذهب إلى هناك مع جدته راكبين الحمير حتى إذا وصلا طلخا وخرج عليهما الحمام كما أراه الآن قال لهما الفلاحون:

ـ إن الست ترسل حمامها ليرحب بكما.

فإذا بالجدة العجوز ترفض هذه القصص الساذجة وتخبرهم:

ـ تعالوا عندنا من الحمام ده كتير.

وتصورت ماذا يمكن أن يقول أبي الآن إذا رآني وعرف ما أنوي أن أفعل أو إذا رأتني تلك الجدة التي لم أرَها ولم أعرفها. هل كانا يعرفان هذا الطريق السويَّ للإيمان والخلاص الذي لم أعرفه؟ وهل لم يكن في حياتهما مثل هذا الصراع الذي عرفته دون أن أعرف كيف أخرج منه إلا بمثل هذه الأعمال والطقوس التي يطل من ورائها الشرير أو يختفي فيها؟

ولم أستطع ـ حتى بعد أن طار الحمام واختفى ـ أن أطرح من رأسي

Twitter: @ketab_n

صورة أبي وحياته الصلبة المستقيمة، وكيف ظل يكتب مدافعًا عن قضيته مهاجمًا الشرير في كل ما يكتب. وعلت عينيَّ غشاوة رأيت من خلالها وجهه في السماء وعينيه ترمقانني، فأغمضت عينيَّ بقسوة كي لا أرى تلك النظرة، وإذا بي أرتجف وقد انصفق في داخلي نفس هذا الباب الذي أغلقه دانيال وهو يوليني ظهره ويخرج غاضبًا بعد أن رماني بكلمته الجارحة. وكدت أصرخ من جديد وأطلب منهما أن نعود إلى الزيتون. وإذا بتفيدة تتكلم مرة أخرى وكأنها تلاحقني وتعرف ما يدور بداخلي:

ـ نفوت على دميرة الأول تستريحي شوية.. قبل ما نزور الست.. فؤاد كمان عايز يشوف أمه وخطيبته.

كانت كلماتها خفيفة متوسلة فيها طلب ورجاء، خاصة وهي تشير إلى فؤاد وإلى ابنتها، وكأنما كانت خجلة من أن تطلب مني ذلك وألا تكون رغبتها الوحيدة أن أستريح في البيت. ولكن الشيطان ركبني تمامًا. غضبت كأنما أُهنت إهانة ضخمة أو كأنما أحدًا يريد أن يأخذ مني فجأة كل ما أملك.

ولست أدري إلى الآن لماذا كان كل هذا الغضب، أو لماذا تضخمت تلك الكلمات البسيطة التي قالتها تفيدة فأصبحت كأنها مؤامرة عليَّ. كنت مرهقة إرهاقًا شديدًا وكان الهدف الذي أسعى إليه يثقل عليَّ كما تثقل عليَّ رغبتي في التخلص منه، والعدول عنه. وكانت كلمات تفيدة كأنما هي فسحة لي أن أتراجع، وتأييد لرغبتي في العودة. فتحركت كل تلك القوى الغامضة التي ما زالت تدفعني للحياة وللكتابة إلى الآن وصرخت في وجهها:

Twitter: @ketab_n

ـ لا.. لا.. حنطلع بلقاس على طول.. وحنزور.. ونرجع.

ولم تنبس تفيدة بشيء، ونظر فؤاد إلى الخلف، ثم دار بالعربة ليتجه في الطريق إلى بلقاس مبتعدًا عن الطريق إلى دميرة الذي أعرفه تمامًا والذي سقت فيه مرارًا، متخذًا هذا الطريق الجديد إلى الدير الذي لا أعرفه ولم آخذه أبدًا من قبل. وشغلتني قسوتي عليهما عن صوري القاسية المضطربة. وبدأت أفكر كيف أكسر هذا الصمت الثقيل الذي فرضتُه على العربة وكيف أقترب من تفيدة من جديد. إننا مقبلتان معًا على شيء.. وأنا أعتمد عليها تمامًا فيه، فكيف أحملها عليه وهي غاضبة؟ وكيف أطمئن إلى صدقها وقد أهنتها وأهنت حفيدها؟

كنت أحس بقسوتي، ولكنني كنت أدرك أن هذه القسوة قد أعطتني قوة فقدتها طوال الطريق وصقلت عزمي وتصميمي من جديد، وليس عليَّ الآن أن أبحث عن شيء ليبعث على شفتي تفيدة بسمة. وظللت مدة غير قادرة على أن أصل إلى كسر الصمت أو ابتعاث الصلة من جديد بيننا حتى بدا الدير وظهرت قباب كنائسه وخفق قلبي خفقانًا شديدًا مما سنفعل. وإذا بي أميل عليها وأقول لها في شيطنة:

ـ فاكرة يا تفيدة اللي بيقوله الناس: اللي يبص لواحدة ست وهو رايح يزور الست تورم عنيه؟

وكافأني الشرير ببسمة من تفيدة واكتفت بأن ربتت على يدي وكأنني طفلة صغيرة.

لقد ارتكبتُ الكثير من الخطايا، وروحي مثقلة بالحاجة إلى الخلاص، ولكنني لا أظنني قد عاينت الشرير كما عاينته في رحلتي هذه، وفي هذا الطقس الشرير الذي ارتكبته مع تفيدة وحملتها عليه

Twitter: @ketab_n

بكل ما أملك من سلطات عليها. لقد ارتكبت حرامًا لا أعرف ما هو، ولا أعرف الناموس الذي يحرمه، ولكنني أعرف من هذه الرعشة ومن تلك الحيرة والاضطراب العصبي الذي أصابني، ومن كل تلك النذر والصور التي رأيتها في رحلتي، أن هذا الذي فعلته كان خطية كبيرة. ولكنني في نفس الوقت كنت أحس أن عليَّ أن أصل إلى هذه الأغوار من الخطية وهذه المواجهة البينة مع الشرير حتى أخلص من عجزي ومن عدم قدرتي على الاعتراف الكامل التام.

توقفت بنا العربة عند الجانب الشرقي للدير، وكنت قد وضعت لنفسي صورة عن العمل الذي سألقنه لتفيدة والمكان الذي اخترته لذلك. سنسير على أقدامنا من الجانب الشرقي حتى كنيسة العذراء، وهناك نضع شموعنا وأصلي أنا كما أريد للحظات، ثم ننتقل إلى الجانب الغربي، حيث كانت الكنيسة القديمة، وحيث كان المغطس القديم، كما حدثني أبي. إنني لم أرَ هذا المغطس، ولكني أعرف أني قد عُمدت فيه. وفي هذا المكان كنت أريد من تفيدة أن تحرق أوراقي.

كانت حقيبتي الصغيرة تحمل، إلى جانب أدوات التواليت القليلة التي أحملها، زجاجة كبيرة من الكولونيا وهذه الكراسة الرقيقة التي أكتب فيها، وقلم دانيال. أما حقيبة تفيدة فقد عرفت ما كان فيها وإن ظلت هي لا تعرف ما أحمل حتى صليت صلاة سريعة لم أرتعد فيها إلا وأنا أقول: «ونجنا من الشرير». وأسرعت بالخروج من الكنيسة إلى الجانب الغربي. كان المكان هادئًا ويكاد أن يكون، في هذا الوقت من النهار الذي وصلنا فيه، أي حوالي الثانية عشرة، مهجورًا تمامًا..

Twitter: @ketab_n

وحتى الكنيسة لم يكن فيها إلا الأضواء الخافتة والصور على الألواح الزجاجية. لم أكن قادرة على أن أهدأ للصلاة أو للتطلع؛ فقد كنت مدفوعة في حركة مستمرة كي أنجز ما بدأت، رغم كل شيء، خائفة على نحو ما أن تفلت مني تفيدة أو أن يتبدد ما بيننا من حلف.

وعندما وصلنا إلى البقعة التي كانت مكانًا للمغطس القديم، وضعت حقيبتي على الأرض وأمسكت تفيدة بكلتا يديَّ وأنا أنظر في عينيها كالمجنونة.. وقلت:

ـ هنا.. بصي.. بسيطة خالص، في الشنطة معايا إزازة كولونيا كبيرة.. تصبيها على الكراسة وعود كبريت واحد بس.

وفتحتُ الحقيبة ولم أُخرج منها شيئًا، ولكني تيقنت أنها رأت ـ كانت عيناها بسيطتين كلهما سؤال لا أعرف الإجابة عنه، وفيهما الكثير من الرحمة أو المسايرة، وكأنها لا تملك إلا أن تقبل ما أريد لأنني أموت.. أو لأنني مجنونة.. أو مجرد بلهاء.. وأحسست بالغضب يتصاعد في نفسي مرة أخرى فصرخت فيها:

ـ شفتي؟

فلم تزد إلا أن قالت:

ـ حاضر.. حاضر من عينيَّ.. يلّا نرجع بأه.

ولن أستطيع أن أسجل هذا الجهد والإجهاد الذي أحسست به وأنا أقطع الطريق من الغرب إلى الشرق، أو وأنا أضع نفسي في العربة وحقيبتي ما زالت مفتوحة. وعندما أغلقتها لي تفيدة، وتحركت العربة، وكنت نصف نائمة، أو في حالة إغماء ولا أكاد أتذكر من الطريق إلا أنها رفعت المسند بيننا واقتربت مني لتضع

Twitter: @ketab_n

رأسي على صدرها ولتجعلني أستريح لأنام والعربة تجري بسرعتها الثابتة المحسوبة.

وعندما وجدت نفسي في الفراش في غرفتي مرة أخرى، في حوالي الرابعة، كانت دموع غزيرة تجري في عينيَّ وكأنها تغسل شقاوة وتعاسة قديمة، وكنت أحس بقدر من الراحة في البكاء لم أعرفه من قبل. كنت قد أصبحت كلي حنان وحب لا أعرف كيف أوجههما أو إلى من أعطيهما، ووجدتني أدعو تفيدة مرة أخرى لأقول لها:

ـ وحياتي.. خلي فؤاد ياخد العربية ويرجع يشوف أمه.

وعندما أحسست أنها ستنفذ رغبتي استدرت ورحت مرة أخرى في نوم عميق لم أعرفه منذ زمن.

Twitter: @ketab_n

آنية الهوان

لم يعد هناك وقت.. لم يعد هناك وقت.. هذا الزمن يمر، الأيام تسحب بعضها واحدًا وراء آخر مثل أغنام صغيرة تُذبح.. جسمي يحس النهاية في داخله وفي تكسر خلاياه.. ولكنه أيضًا يحس هذا الجهد الذي تبذله الطبيبة والأدوية، وتمر عليَّ لحظات من الصحة هي أقرب إلى السكون أو الموت الحي.

لقد كنت أعتقد أن الصعوبات التي تقف أمامي للكتابة قد انتهت.. كنت أحسب أنني فكرت بما فيه الكفاية في صراعي مع تلك المعرفة المسبقة بما سأكتب.. وأنني تغلبت على هذا الملاك الساخر المتهكم بما سأقول لأنني أعرفه مقدمًا.. وهو فعلًا معروف. ظننت أنني قد خلصت من عينيه ومن ابتسامة الاستهانة على شفتيه.. ظننت أنني قد أعطيت لما سأكتب قيمة بإصراري وبحرصي على أن أقوله وبأن أسجله.

لقد انتصرت عليه بالفعل.. ولكن ها أنا ما زلت لا أكتب.

لقد تصورت أيضًا أن تلك الرحلة إلى دميانة مع تفيدة ستخلصني

Twitter: @ketab_n

من ملاك آخر، وستطلق يدي وروحي إلى ما أريد من كلمات. تصورت أنني عندما أطمئن إلى أن ما سأقوله سوف يُحرق وأنه سيختفي تمامًا فإنني سأكون قادرة على أن أحرر نفسي من كل القيود التي تمنعني من الكتابة. ألا يحب المرء أن يخفي خطاياه فعلًا، حتى وإن كان من الضروري أن يكشفها ليتخلص منها أو ليبلغ الخلاص الذي يريده؟

لقد حسبت أنني عندما أطمئن إلى هذا الخفاء الجديد الذي سيلف أوراقي، فإنني سوف أعود إليها حرة خفيفة قادرة.. ولكن ها أنا من جديد غير قادرة.. فما القيود التي تمسكني؟ ماذا يمنعني؟ لماذا لا أستطيع؟ ولماذا أهرب كل يوم من كراستي ومن قلمي.. إلى لا شيء أو إلى قراءة تافهة ضائعة في الجرائد والمجلات وحل الكلمات المتقاطعة؟ كم من الساعات أمضيت وأنا أصنع هذا، وروحي تنظر إلى داخلي الذي لا يريد أن يتحرك إلى القلم وإلى الكتابة وإلى كل ما أريد أن أقول دون أن يتحرك في هذا الداخل شيء يدفعني إلى الورق من جديد.

ما هذا الذي ينقصني؟ لقد فكرت طويلًا فيما أريد أن أكتب.. وتكونت منه على لساني أسطر كثيرة.. كلها تتبدد وتزول كزبد الموج أو كقطع السحاب. وأظل على فراشي تترامى حولي الصحف والمجلات، أقلبها وأقرأ أسطرًا هنا وأسطرًا هنا وأعرف أنني لا أحتاج إلى كل هذه القراءة، فأعود إلى الكلمات المتقاطعة وأحس بسذاجة ما أفعل وتفاهته.. ولكنني أتقدم في قدرتي على القراءة عبر القراءة.. وعلى الحل لتلك الألغاز البسيطة، فلا يكاد يكفيني ما يتجمَّع على

Twitter: @ketab_n

الفراش من جرائد ومجلات.. ومع كل يوم يتجدد استسلامي وتزداد سرعتي في أن أخلص من جرائد اليوم ومجلات الأسبوع وكل الكلمات المتقاطعة.. إنني أبتلعها بسرعة كأنها حبوب.. أو كأنها إدمان. وكلما ابتلعت زاد ضيقي بها، وفي نفس الوقت زاد هذا الاستسلام الغريب إليها.

في الصباح بعد أن أفطر.. أمنع تفيدة من أن ترد على التلفون. أجعلها تقول لزواري إنني نائمة.. حتى عندما جاءتني طالبات من سنوات التدريس ولم يفعلنها من قبل.. لا.. لا أريد أن أرى أحدًا.. خالي والمحامي يقتحمان عليَّ الغرفة رغم إصرار تفيدة.. وما أسرع ما أجعلهما ينصرفان بأن أدير ظهري وأنا أستشعر التعب والإرهاق.. أنا لا أفتعل شيئًا.. إنني أتعب جدًّا وأحس بإرهاق شديد عندما يكونان هنا.. فينصرفان بسرعة، وإذا بي أعود إلى الفراش لأحملق في الفراغ بعض الوقت، أو أشرب كوبًا من الماء البارد، وإذا بي أنزلق من جديد إلى إدماني الجديد. وفي العصر.. قبل المغرب وبعده.. أواصل لعبتي وفراغي وتبديدي للحظات القليلة التي أعرف أنني لا أملك غيرها وأنها لن تدوم طويلًا.. وأحيانًا أحس كأنني أنتظر البريد وأسأل عن الخطابات.. وعلى الرغم من أنني طوال عمري لم أكن أنتظر خطابات، فإنه أحيانًا، في هذه الأيام، أحس وكأنني أنتظر شيئًا.. خطابًا خاصًّا.. خطابًا غير محتمل ولا متوقَّع ولا يمكن أن يأتي.. خطابًا منه.. وفي لحظات من الشوق لدانيال أتصور أنه قد يكتب.. وأن هذه الخطابات التي تصلني سيكون فيها واحد منه.. وتصلني فعلًا خطابات.. تلك النشرات القديمة من ناشرين..

Twitter: @ketab_n

واشتراكات مجلات من أمريكا.. وإعلانات.. بل ووصلني خطابان من أمريكا.. قرأتهما وتذكرت الصديقات.. والأستاذ.. وعشت مع كلماتهم لحظات ليست أطول من قراءة الخطابات نفسها.. وانتهى كل شيء.

عاد الصمت إلى داخلي ولم أجد أية قدرة على أن أرد أو أن أكتب كلمة لهم. ماذا أقول؟ كل هذا الجهد الذي بذلوه لتذكري وتذكر لحظاتنا القديمة معًا وتمنياتهم الطيبة لي في حياتي وسؤالهم عن دانيال وعن الجامعة وعن التدريس.. ماذا أقول عن كل ذلك؟ وكيف أرد؟ إن عندي الكثير مما أستطيع أن أقوله لهم. وعندي على الأقل الدافع والرغبة في شكرهم، ولكني لا أتحرك. لقد انقطع الزمن بيننا وقد صمت عنهم أمدًا طويلًا، فكيف أعود للكتابة إليهم الآن وقد تغير كل شيء؟

كم كنت أود أن أجد القدرة على أن أتحرك إلى مجموعة الأسطوانات وأن أخرج «باخ».. و«سانت ماتيو» بالذات، وأن أسمع وأنا أعيش مرة أخرى تلك اللحظات من الوجود والتحقق والمعرفة. لماذا لا أستطيع، أم هل أنا فعلًا لا أريد وأنا فقط أغرر بنفسي وأضللها عن هذا السكون المطبق في داخلي وهذا الاستسلام للحظات التي تمر ويقضمها الزمن واحدة وراء أخرى؟

هل أنا لا أستطيع أن أجمع الحوادث وأن أرتبها بحيث تصبح منطقًا واحدًا يفسر لي ما أنا فيه؟ وهل هذا ما أريد فعلًا؟ هل أريد أن أرتب السنوات وأن أتعقبها لتصبح ضرورة، وهكذا أخلص؟ هل أنا من جديد أريد أن أصل ـ ولا أستطيع ـ إلى أن أرفع عن نفسي

Twitter: @ketab_n

المسؤولية وأن ألقيها على «الدنيا»؟ ما أغرب هذه الكلمة.. إنني على العكس، أحس مسؤوليتي دون منطق ودون تسلسل.. أحسها قائمة.. فأنا التي عدت إلى مصر، وأنا التي أحببت، وأنا التي امتهنت نفسي في الحب، وأنا التي عرَّضت ابني للضياع والخطر.. أنا التي فعلت ذلك كله ولم يفعله أحد آخر مهما كانت الأسباب التي دفعتني إلى أن أفعل ما فعلت أو أن أصل إلى ما وصلت.. ثم ما علاقة مرضي واقتراب الموت بهذا كله؟ لماذا أريد أن أخلق صلة ضرورية بين الماضي وبين هذا الحاضر الذي أقف فيه على الهوة؟ لماذا أريد أن أحصل على المعنى قبل أن أكتب؟ أريد أن أجعل حياتي كلًّا واحدًا له معنى قبل أن أموت. هل هذا مطلب لي فيه حق؟! إن هذا التطلب للمعنى خديعة أخرى للروح، غشاوة أضعها على عينيَّ كتلك الغشاوات الكثيرة التي كانت عليها طوال سنوات حياتي. إنني أتصور أنني لو حصلت على معنى لحياتي فإنني سأتبرر. هل يمكن للإنسان أن يقدم للرب معنى؟ وماذا يفعل الرب بالمعنى وأنا ما زلت لا أعرف الباب إلى هذا الطريق وليس لدى أحد كلمات أو نصائح تقودني إليه؟ إنني كلما بحثت عنه، سواء بالقراءة أو التفكير أو سماع الناس وأهل الكنيسة، ازددت خطايا وبعدت عن الرب. هل يعرف أحد كيف يصل إلى التوبة؟ إنني على الأقل أعرف الآن أنني لن أصل إليها بالكتابة، وأن هذا الشوق المستمر في روحي لأن أكتب والذي يتجدد بين حين وحين هو من الشيطان. وهذا العجز الذي أعانيه أمامه هو حماية للروح من خطايا جديدة. ولكني لا أستطيع أن أمتنع الآن، لا أستطيع أن أتوقف مهما كانت النتيجة ومهما أدى بي الطريق.

Twitter: @ketab_n

في الأيام الثلاثة الأخيرة، كان يعاودني حلم صغير سريع يتكرر كلما غفوت، ويتبدد بسرعة في رعشة للبدن وتوقف للتفكير. لقد جاءني أكثر من مرة هذا الحلم، وأنا فيه طفلة صغيرة أرتدي فستانًا منقطًا ملونًا كفساتين العيد، وعندي ضفائر تتأرجح ورائي وأنا أجري في خضرة، خائفة أهرب من خوف لا أعرفه، وأظل أعدو لأصل إلى ما يشبه جبلًا عاليًا، فإذا ما اقتربت منه عرفت أنه مشتعل بنار عالية تشع منه وكأنها تريد أن تجذبني إليها، فأظل أعدو من جديد، محاولة أن أدور حوله، وإذا بي أجد الجانب الآخر من الجبل جليدًا كاملًا يبعث الرعشة التي توقظني وأنا أحس البلل ما زال في قدميَّ من الخضرة التي كنت أجري فيها ويقوم فيها الجبل. في بداية رؤيتي للحلم كنت أحسبه جزءًا من مرضي وتكاثرًا للتغير في داخلي وتيقظًا من روحي لما يحدث في البدن. ولكني أراه الآن ظلًّا في البدن لهذا التلوي الغريب بين النار التي أخشاها لو اندفعتُ وتركت نفسي أكتب، وبين هذا الجليد المتجمد الذي ينتظرني لو صمتُّ.

لماذا أترك نفسي لهذه الصور وكأنما ما زلت أبحث عن معنى؟ إنني أعرف على الأقل الآن أنه لن يعود بعد أن كتبته وعبثت به على هذا النحو. فهل أنا أريد أن أكتب لأتخلص من كل هذه الأحلام الأخرى في بدني ولأقتل كل ما حدث فلا يعود يعود، أم أنا في الحقيقة قد بلغت اليأس الذي يتحدث عنه «كيركجارد»؟ ما أقسى هذا الصامت الكاتب، المتذكر المفضوح. إنني أتذكر كلماته التي عثرت عليها وأنا أشغل نفسي عن الكتابة وأبحث فيها عن طريق التوبة، فإذا فمي يمتلئ مرارة وأنا أترجم لنفسي كلماته:

Twitter: @ketab_n

إن الدنيا كلها تنقسم إلى من يكتبون ومن لا يكتبون. أما الذين يكتبون فيمثلون اليأس، ومن يقرأون لا يرضون عنه ويعتقدون أن لهم حكمة أعلى.. ومع ذلك فلو أنهم يقدرون على الكتابة لكتبوا نفس الشيء. إنهم جميعًا على حدٍّ سواء يائسون، ولكن الواحد منهم إن لم يجد هناك فرصة لأن يصبح مهمًّا بيأسه فإنه يرى أن الأمر لا يكاد يستحق اليأس أو يستحق إظهاره. أهذا ما يعنيه إذن أن يتغلب المرء على اليأس؟

ما أشد مرارة الكلمات وما أقساها، وما أشد ما أنا فيه من يأس. ولكن أليس هذا فعلًا هو طريق التخلص والخلاص.. وأيضًا طريق الكتابة؟

نعم.. يا تفيدة.. لقد قاربت الساعة التاسعة وأنا أنتظر الآن قبل أن تتكلمي وقبل أن تدخلي وقبل أن تحملي لي اليأس من جديد.. سأبتلع حبوبي في صمت ولكني سأظل أكتب.

Twitter: @ketab_n

كان ذلك في يوم أحد. إنني أذكر هذا بوضوح، فقد قررت وأنا في الكنيسة أن أذهب إليه. لم يكن قد مضى عليَّ سنة في مصر، وكنت قد بلغت هذا الحد من الحيرة والغربة والتأبي على كل ما حدث وإن كنت ما زلت لا أعرف بالضبط ماذا عليَّ أن أفعل. كان خالي ما زال يضغط عليَّ، هو وبنات الأسرة كلها، أن أتزوج وأن أعدل عن فكرة التدريس في الجامعة. وكان المحامي ميلاد يرى أنني قد أخطأت في أنني لم أسمع نصائحه من قبل وأتخلص على قدر ما أستطيع من الأموال والأرض بالبيع والتهريب، وأن الطريق أمامنا طويل للوصول إلى أي حق، بل وحتى إلى استخراج هذا التقدير للمبلغ الذي يُصرف لنا شهريًّا للمعاش بعد الحراسة. وكانت الكنيسة بكل ما فيها تغلي بقصص عائلات أخرى وُضعت تحت الحراسة في الصعيد، وكان هناك قدر كبير من الهمس واليأس من فساد الزمن، وقال لي أحد أصدقاء أبي القدامى:

ـ لقد أصبح «قضاتها ذئاب مساء لا يُبقون شيئًا إلى الصباح».

Twitter: @ketab_n

أما أنا فقد كنت ما أزال أحس أنني أملك حقًّا على بلدي وأن بدني وجسمي وروحي كلها طاهرة. وأن أحدًا لا حق له أن يحرمني من شيء أو أن يأخذ مني شيئًا.

كان دانيال قد استقر في مدرسته وبدأ يستعد للتوجيهية، وكنت ما أزال حائرة في التردد بين بيت خالي في شبرا و«البيت الكبير» في دميرة؛ حيث تنتظرني دائمًا تفيدة، وحيث كنت ما أزال أحاول أن أنصرف إلى كتابة أبحاث أو ترجمة الرسالة استعدادًا لأن أصل إلى الجامعة، على الرغم من حيرتي مع الأوراق، وعلى الرغم من التردد الكامل بل والتجنب الذي أحسسته من العميد ومن كل الأساتذة الذين حاولت الاتصال بهم. إنني أتذكر كل هذا الآن، فقد كان البداية، ولكن أي بداية؟ وبداية لأي شيء؟

في ذلك اليوم البعيد في الكنيسة، كنت قد قررت، بيني وبين نفسي، أن أذهب إليه، كريم عبد القادر، في مكتبه الذي ترك لي عنوانه في تلك الليلة التي داهم فيها البيت وعمل مع مساعديه الجرد وطلب مني أن أحضر إلى المكتب لأتسلم صورة الجرد ولأوقع على إجراءات الحراسة التي فرضت علينا. ولكن البداية لم تكن كل هذا. لم تكن البداية هي حتى قراري أن أذهب إليه. كانت البداية فيما أعتقد في بدني وروحي وفي تلك الحركة العنيفة المضطربة التي تتحرك فيهما نحو التمسك بالحياة وبحقي أن أصنعها لنفسي ولابني، وكانت الحياة لا تزال تتدفق فيَّ وكأنها لبن ممسوك في الثدي.

كانت تلك هي البداية فيما أعتقد. كنت ما أزال لا أحس أنني بلغت الثلاثين، مع أنني كنت قد تجاوزتها، وكنت أتحرك ببدن خفيف

Twitter: @ketab_n

تنحبك عليه تاييراتي الخضراء والبنية التي كنت أحبها وأحذيتي ذات الألوان نفسها والكعب العالي. هل ما زلت أستطيع أن أذكر كيف كنت أنظر لبدني؟ كان الروج الخفيف والأحمر البودرة على خدَّي يعطيان لسمرتي غورًا كنت أعرفه، وستارًا كنت ألقى به الناس، وأعتقد أنه يفرض عليهم قدرًا من الإعزاز والمحبة لي، إن لم يكن الغيرة.

لقد كنت أعرف نفسي جيدًا، فما أكثر المرات التي نظرت فيها للمرآة حينذاك فأجد نفسي قادرة في أعماقي أن أرفض كل محاولات الأسرة والكنيسة لأن أتزوج وأن أسلم نفسي لرجل من جديد. كنت أحب ما أرى في المرآة وكان يكفيني. وكان الجسد لا يضنيني ويدفعني إلى احتضان دانيال وتقبيله أحيانًا وكأنه أقصى ما كنت أريد. إني أذكر كل هذا الآن لأنني أعرف أن «روح الزنى» التي عرفتها فيما بعد، لم تكن قد سكنتني، وأنني ذهبت إليه وأنا كاملة متماسكة. جميلة حقًّا ولكني كنت غاضبة فقط وأريد أن أعرف وأفهم.

نعم، لم يكن بي ضعف في ذلك اليوم، إلا أني لم أكن رافضة. لم أكن مثل كثيرين حولي أرفض القوانين الاشتراكية، وكنت حزينة على الانفصال، وكنت أحس أن الثورة قادرة على أن تصنع شيئًا كبيرًا في مصر وأن تفتح آفاقًا لا نهاية لها، ولكني لم أكن أفهم كل ما يحدث ولا ضرورة لكل التفاصيل والعنف الذي أسمع عنه والذي مسني مباشرة دون مبرر حقيقي من إقطاع أو غيره. لم تكن الأرض تتجاوز كلها المائة والخمسين فدانًا قبل الإصلاح الزراعي، ولم يكن لدينا من الأموال ما يستدعي الحراسة مثل بقية الأسر والشخصيات التي سمعت عنها.

كنت أحس أنني في حاجة لأن أتكلم وأن أعبر عن غضبي وأن

Twitter: @ketab_n

أضع أسئلتي كلها أمام شخص منهم، شخص آخر غير كل الذين يرفضون من حولي والذين أتهرب دائمًا من أن أسمع نصائحهم أو أنفذ رغباتهم في صنع حياتي.

لماذا أتذكر الآن كل هذه التفاصيل؟ وما تلك الكرة البيضاء من الضوء التي أرى فيها تلك اللحظات البعيدة وكأنما أشاهد شخصًا غريبًا عني تمامًا، يسير بمفرده تحت هذا الضوء الأبيض الذي يجعلني أحس أنني عثرت على البداية؟ ما أغرب هذا الإحساس الذي أمارسه الآن وأنا أكتب، وكأنني أنظر في تلك الكرة من البللور الأغبش التي تكشف المستقبل، إنني أتحرك بعربتي إلى هذا الجزء من جاردن سيتي المطل على شارع قصر العيني والذي يمتلئ بمحلات تصليح العربات والجراجات. في هذا الجزء فهمت أن هناك مكاتب باسم ما للحراسة، وأن عليَّ هناك، في لحظة ما، أن ألقاه. كنت أعرف العنوان، وقد ترددت قليلًا أن أذهب أو أرجأت الذهاب أسبوعًا وراء أسبوع، حتى كان ذلك اليوم في الكنيسة الذي أحسست فيه وكأنني محاصرة من الجميع وأن عليَّ أن أهرب وأن أواجه دون أن أقول لأحد إنني ذاهبة، ولا حتى للمحامي الذي كان مقررًا أن يذهب معي. دفعت العربة وسط الزحمة، وكدت أكثر من مرة أصدمها، ولكنني وفقت توفيقًا كبيرًا في «الباركينج»، ووجدت لعربتي مكانًا آمنًا تمامًا، ونزلت على قدميَّ أبحث عن المكان. سألت:

ـ أين الحراسة؟

فنظر لي الميكانيكي قائلًا:

ـ حراسة إيه يا هانم؟

Twitter: @ketab_n

فقرأت العنوان في يدي.. الشارع والرقم.. قال:

ـ العمارة أهيه.

حتى هذا أذكره وهو ينظر إليَّ وفي عينيه فهم خاص، وكأنني بمجرد السؤال قد أصبحت مباحة. كان يبدو واضحًا أنه يعرف تمامًا المكان.

ولست أعرف تمامًا كيف وصلت إلى مكتبه، وكيف سألت عن اسمه أو نطقت به أول مرة، ولكني أرى نفسي في هذا الضوء الأبيض تمامًا من نور النيون في غرفة واسعة مفروشة بالسجاد العميق والجو المكيف الذي يجعل الغرفة تميل نحو البرودة، ونحن في العشرينات من مارس، فأنا أتذكر النتيجة والصورة الكبيرة ورائحة التيبروز، واللون الأحمر الخاص لعصفور الجنة في الغرفة، وأنا أتجه إلى يميني لأقطع الغرفة الفسيحة إلى مكتبه الكبير.

لا.. لم يكن الحب من أول نظرة أو أي شيء من هذا، لم أضطرب أو أُصعق بوجهه الجميل، وإصبع يده اليمنى الكبير في فمه، أو نظرته الهادئة التي كان لها ثقل وهي تقع من أهدابه الثقيلة الطويلة. كان وجهه أقرب إلى صورة مرسومة لأمير شاب أو شاعر. وكأنني لم أكن قد رأيت وجهه من قبل في تلك الليلة، فلم أذكر إلا أنه كان يرتدي نفس البدلة التي كان يلبسها في الليلة السوداء كما تسميها تفيدة.

لم ينتظر حتى أجلس، ولم يقم ليحييني بيده، وكنت مستعدة أن أمد يدي. ولكنه مد يده وأخرج من تحت المكتب سماعة تلفون لونها كلون عصفور الجنة وقال هامسًا:

Twitter: @ketab_n

ـ الدكتورة زمردة أيوب.

ودون أن يعيد السماعة.. قال:

ـ اتفضلي.. الأوراق جاهزة.

كان صوته محايدًا كنور النيون ولكنه كان خفيضًا وهادئًا وغير متجه إليَّ، وكأنه لا يراني.

إني أذكر تمامًا كيف جلست وأنا أريد أن أظل واقفة من الغضب الذي أحسه في داخلي ومن الكلمات التي تزدحم في صدري، وأريد أن أخرجها كلها دفعة واحدة، فاقتربت من المكتب بصدري وكأني أحاول أن أزداد اقترابًا منه عبر المكتب وبدأت دفعة واحدة أقول:

ـ أنا لم آتِ عشان الأوراق.. أنا عايزة أفهم.

وينطفئ تمامًا هذا النور الأبيض الذي أرى فيه هذا اللقاء الأول البعيد، ولكني أذكر حركة بدني وأنا أضع حقيبتي على المكتب، ويكاد صدري يلمس البللور على المكتب والكلمات العامة المجردة تخرج من فمي وكأنها دفاع نظري أو كأنني مرة أخرى في غرفة امتحان الرسالة. كنت غاضبة فقط وأنا أتحدث عن عودتي إلى مصر لأنني أحبها وأومن بها.. بل واستخدمت كلمات عربية غريبة عليَّ مثل «قلبًا وقالبًا» وأنا أتحدث عن عبد الناصر والثورة وأنا أتساءل:

ـ لماذا فعلت هذا بي؟ أنا أريد أن أخدم بلدي وقريتي.. والجامعة..

أريد أن أشترك في هذا التغيير الكبير في بلدي.. ولكني في كل لحظة..

نعم.. هذا ما قلته:

Twitter: @ketab_n

ـ في كل دقيقة أجد شيئًا، لا معنى له ولا دليل ولا مبرر، يقف أمامي ويعوقني.. دون أن أعرف ما هو.. ولماذا. ليه؟ ليه؟ بدي أعرف.

لم أكن أبدًا على وشك البكاء أو الانهيار في مقعدي، ولكني كنت أحس أن كل شيء فيَّ يريد ذلك، وأنني إن لم أصمت فقد يحدث هذا دون أن أملكه وقد تتغير نبرتي المجردة والعامة، وقد أكلمه عن فرحتي بالعودة، وعن أحلامي وأنا في «نيو إنجلند».. وتماسكت صامتة وهو صامت. فارتفع الغضب من جديد في صدري، وتذكرت كل الذين كانوا حولي في الكنيسة، وتذكرت ما يحدث لي في دميرة وقلت:

ـ من حقي أن أعرف السبب.

قلتها بكل ما أملك من عقل ومن ثقافة، وأنا أنطق القاف وأضغط عليها ووجدته يبتسم ويضع إصبعه مرة أخرى في فمه، ويقف وكأنما يريد أن ينهي المقابلة ويقول في هدوء وكأنه لا يحدثني:

ـ أنا أنصح.. ما تبحثيش كتير عن السبب.. وبلاش المحامي ميلاد يحاول يعمل حاجة.. بالقانون.. أو غيره.

ومرت في خاطري خطابات ميلاد وكلماته عن التهريب والبيع، وكل ما كان يصلني من الأهل وأنا في أمريكا من نصائح، وأحسست أنني لا أعرف كيف أزد، وأني لا أتحدث مع شخص واحد. فقلت وأنا واقفة وجسدي يرتعش:

ـ عايزيني أعمل إيه؟

ـ تمضي الأوراق.

ـ هاتوا.

Twitter: @ketab_n

ووقَّعت على أكثر من صفحة ويده تقلب الصفحات لي.. وتلمسني في لحظة، جعلتني أحس كم كانت يدي باردة مرتجفة، وأعطيه القلم الحبر الذي أعطانيه دون أن أغطيه مرة أخرى.

لم أقرأ شيئًا وقعت عليه، ووقف أكثر من مرة، وكنت على استعداد لأن أوقع كل ما يريد مني مرات متعاقبة كي أنصرف إلى العربة وإلى الطريق إلى دميرة مباشرة، فلم أكن أتصور أن أعود إلى شبرا وأن أرى أحدًا.. حتى ولا دانيال.

وعندما أدرت مفتاح العربة تحدرت دموع كبيرة من عيني، ولم أشكر العامل وهو يساعدني في الخروج، وأحسست أنني أبدأ طريقًا طويلًا من الظلمة والوحدة والانفصال.

هل كانت هذه هي الأرض التي تبذر فيها بذور الحب؟ إني لا أستعيد الآن إلا ارتجاف الغضب والدموع في العربة، وأنا أسلك الطريق الطويل لأصل مع الليل إلى دميرة.. وحدي.. صامتة.. لا أعرف ماذا يريدونني أن أفعل.

* * *

كم أنا قانعة راضية بهذا اليأس الأبيض الذي جعلني أنام وأصحو بلا حلم وفي تهيؤ واستعداد وكأنني سأقوم بواجب رسمي للكتابة، وأنني أحس صراعي كله بعيدًا غارقًا في يأس ناصع كأنه جليد واسع أو ظهيرة جافة أو كأنه «آوودن واي» في قدمَي «إميلي». إنني أعرف طريقي فيها وأصل إلى ما أريد في الديوان الملقى إلى جواري بسرعة وهدوء وكأنني أريد أن أؤجل الكتابة أو أتذوق هذا اليأس والاستسلام اللذين أحسهما:

Twitter: @ketab_n

يجيء على المرء بعد الألم الشديد، شعور رسمي ـ
وتنتصب الأعصاب متمسكة بالطقوس كأنها قبور ـ
ويتساءل القلب المتصلب: أكان هو حقًّا الذي احتمل،
وهل كان هذا بالأمس أم من قرون مضت؟

وتمضي الأقدام آليًّا في مسارها ـ
من الأرض، من الهواء، أو العدم
على درب من خشب ـ
ويصبح المرء وقد زال النظر
في قناعة الكوارتز كأنه حجر ـ

تلك هي ساعة الرصاص ـ
يتذكرها المرء، إن عاشها،
كما يتذكر من جمدهم الثلج ـ
الجليد في أول الأمر ـ رجفة البرد ـ فقبضة الذهول ـ وبعد ذلك
بسطة الاستسلام.

«ذن ذا لتينج جو.. لتينج جو». لو أنني أستطيع أن أكرر الكلمة حتى أجدها في العربية، لو أنني أستطيع أن أترك نفسي فعلًا لبسطة الاستسلام. لماذا تضع «إميلي» هذه الشرطات والفصلات الغريبة بين كلماتها؟ ما هذا المنطق الخاص للحظة الاستسلام الذي كشف لها هذا النحو والتنقيط الخاص؟ كم حاولت في سنوات الدرس أن أحل اللغز، وإن أصبحت أدرك الآن أن الخطأ هو في اعتباره لغزًا غامضًا يحتاج إلى تفسير. إنه

Twitter: @ketab_n

يحتاج فقط إلى متابعة، إلى قراءة.. إلى «لتينج جو». كل «لتينج جو».. واحد، وكل «لتينج جو».. فريد منقط بشرطات وفصلات خاصة.

دقات الساعة الآن وهي تدق منتصف الليل في البيت الساكن تمامًا ضربات ذاهبة إليه، وأقدام آلية على هذا الدرب من خشب. في كل ضربة حركة، وفي كل ضربة خطوة أخرى إلى الاستسلام، إلى اليأس الأبيض الأخير. لقد حانت اللحظة، حانت اللحظة التي أعرف الآن أنني لم أكن أعرفها ولا أفهمها. لحظة هي حلم، هي ذكريات واقعة، هي تكرار بلا تذكر، لا تعاقب فيها ولا معنى، ولكنها نقطة، أو فصلة أو شرطة طويلة في جملة خاصة لا تتجاوز سياقها.

إنني أسترد الآن النور الأبيض الذي أرى فيه فراشنا في شقة الزمالك. أنا عارية تمامًا، وهو قد مد طوله إلى أسفل كي يضع رأسه بين صدري. أصابعه تعتصرني، وفمه على ثديي وأنا أحاول أن أتكلم وهو يمنعني بأن يضع إبهامه في فمي.. اللحظة كاملة مطلقة، لا نقص فيها ولا تردد. لكنها هناك على الفراش كاملة، نعم كاملة، وهو يعَلم هذا البدن كل حركات الحب التي لم يعرفها والتي لم يكن يعرف أنها موجودة أو قائمة فيه. لم يكن يتركني حتى يجن بدني ويصرخ وأطلب الموت. إني لم أعرف هذا الحب من قبل في حياتي، ولم أعرفه بعده إلا حيرة وضيعة في ساعات الهوان.

لقد تكررت تلك اللحظات التي عرفته فيها عارية بجواره، حتى لم أعد أستطيع الآن أن أعدها أو أميزها بعضها عن البعض الآخر. ولكني عندما كنت ما أزال في تلك الأيام، كنت أرقبها وأميزها وأفصل بينها بما كان يفعل أو يجعلني أفعله.

Twitter: @ketab_n

كان هادئًا صبورًا في الحب يصعد فيه في رفق وانشغال حتى يحرك كل خلايا البدن وذراته. وكانت الخطيئة تتكرر في هذا النهم الذي صنعه فيَّ والذي أصبح وكأنه ضرورة داخلت جسمي كله مرة واحدة، دون أن أعرف كيف تسربت إليه أو أين تقع. ولم تكن الخطية هي البدن وحده وما بيننا من لحظات يعيشها في داخلي. كان يحب أن يستنفدني كلي وكان يطلب مني وأنا عارية في حضنه أن أقرأ.. نعم.. أن أقرأ له.. إنني أكاد أصرخ الآن ولا أستطيع أن أكتب.. ماذا كنت أقرأ له؟ وماذا كنت أعلمه وهو يحبني؟ إني مع كل يأسي الآن، لا أستطيع أن أنطق بما قرأت له. صمت كصمت «جوتلاند» يلفني؛ فقد يجدف المرء ولكنه لا يستطيع أبدًا، بعد أن يفعل، أن يذكر ما قال. والتذكر الصامت يقتل اليأس؛ لأنه يؤجج نار الخطية. إني أتمسك بـ«بيت أون» ولو سمعت قهقهة الشيطان.

ودق جرس التلفون بإصرار واستمرار، وكأنه هذا الشيطان الذي أكتب عنه. وعلى الرغم من سخف التوقع وحماقة الانتظار، فإن قلبي كله وبدني بأكمله قد تحركا له وكأنما هو ما أنتظر أو ما لا يمكن أن يحدث. كان صوت الجرس في الليل والبيت الساكن، وتأخر تفيدة عن أن توقفه لحظات طويلة، عرفت فيها حماقة القلب وعجزه عن أن ييأس، ورأيت فيها دهاليز الروح التي يختلط فيها توقع المعجزة بتطلب التوبة والنعمة بل والغفران البشري. ما أحمق هذه الخطوات التي أخذتها مرتجفة، لأسبق تفيدة، إلى التلفون ولكي أجدها قد وصلت عنده وهي تمسك السماعة وتكرر كلمات السائل:

Twitter: @ketab_n

ـ المعلم صاحي؟!

معلم مين يا سيدي؟ النمرة غلط.

كان صوتها الهادئ لا غضب فيه، وكأنها تعرف مقدمًا استحالة كل ما أتوقع وتعرف أيضًا حماقة القلب ورجفة الروح في داخلي وفشلي الساذج في أن أصل إلى اليأس الذي تصورت أنني وصلت إليه.

أخذتني بذراعي ويدها وراء ظهري وكأنها تسندني لتعيدني إلى الفراش وهي تقول:

ـ أنت صاحية ليه.. أعملك كوباية لبن سخن.. كاكاو؟

ولم أستطع أن أعتذر لها، أو أن أخفي معرفتي بأنها عرفت، ولكنني استطعت أن أمسك هذا الغضب المجنون عليها وأن أهمس لها وأنا أنتزع نفسي منها لأسير إلى الأجزخانة وأحس الجفاف الشديد في حلقي والتهابًا كعمود النار في صدري وجسمي كله:

ـ هاتي لي كوباية ميَّه باردة.

واستخلصت لنفسي حبتين صغيرتين من علبة الحبوب المنومة وأنا أتساءل متى يحين الوقت لأبتلعها كلها دفعة واحدة لأنام. ولكني عدت إلى فراشي أرشف الماء البارد وأكتب هذه الكلمات بعد أن قرأت ما كتبت طوال الليل. وعندما انتهيت، كنت أهدأ بعد فزعة التلفون، وكنت أكثر استعدادًا لأن أحتضن روحي وحدي لأستعيد من جديد يأسي الأبيض الذي كان يحميني من الفزع، ويبدو أنه يحميني الآن من الانتحار.

* * *

Twitter: @ketab_n

لم يبق في الصباح شيء من فزعة الليل أو من حماقة التوقع. خرجت إلى الفيراندا المطلة على الحديقة القديمة المغبرة وجلست على مقعد من القش وإلى جانبي الجرائد وراديو صغير وكوب من الماء؛ فأنا ما زلت عطشى، وأمسكت قلمي وكراستي أحاول أن أصل ما انقطع من يأس. وعلى الرغم من أنني لم أستطع أن أستعيد تلك اللحظة الفريدة من بسطة الاستسلام، ولا أستطيع أن أتصور أن من الممكن تكرارها ما دمت قد أفسدتها وعبثت بها، فإنني أريد أن أحاول، وأرشف الماء البارد بين الحين والآخر وكأنما أتصور أنه سيصل بي إلى قاع الروح وإلى أرض اليأس الثابتة التي لا تتحرك.

لماذا لم يكتب أحد أنشودة لليأس يغمغم بها القلب، فيستحضره ويقنع به، وتهدأ كل تلك الرغبات والأوهام وتصورات المعنى والدلالة، وتتوقف كل حركة إلى أي شيء.. إنه شيء آخر تمامًا غير الموت وغير اكتمال العدم. إنني أريد أن أتصوره مجرد هذا القص

Twitter: @ketab_n

الذي أقوم به الآن للحظات حياتي وأنا أراها تنساب كالرمال بين أصابعي ولا أعرف ولا أهتم كثيرًا إن كان هذا ماضيًا أو أنه حاضر ومستقبل. بل إنني أريد أن أحس أن كل عائق من رغبة أو أمل أو بحث عن معنى قد زال تمامًا من أمامي، وأنني قد أصبحت قادرة على أن أستسلم.. أستسلم لماذا؟ لا أدري.

لقد خرجت إلى الفيراندا وأنا أحس راحة وهدوءًا في بدني كله بعد النوم الطويل، وقلت لتفيدة إنني سأجلس في الفيراندا وإنني سأستقبل أي أحد من الزوار، وإني سوف أرد على التلفون، وإنها تستطيع أن تخرج في أي وقت إذا شاءت لتقضي مشاوير البيت، بل إنها تستطيع أن تذهب لحفيدها فؤاد، حيث يقطن مع أقاربه في شبرا، إذا أرادت. كنت أريد أن أخلص من كل ما يربطني به محبة أو غضب، وكنت أحس أنني قادرة على أن أواجه أي شيء آخر. وليس غير تفيدة الآن يربطني بها الحب والغضب. ورفعت فيَّ تفيدة عينيها الجميلتين كعيني حفيدها وبدا فيهما شيء من الفزع وعدم التصديق وقالت:

ـ على راحتك.

ثم استمرت واقفة قليلًا إلى جانبي تعبث في أوراق الجرائد والكتب التي وضعتها على المائدة إلى جانبي وتعدل في الراديو وكوب الماء ثم قالت وكأنها تختبرني:

ـ أكلم «أبونا» في الكنيسة؟

ولم أرِد أن أغضب مرة أخرى فأفسد محاولاتي ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول لها في تحدٍّ:

ـ كلميه.

Twitter: @ketab_n

وانصرفت عني تفيدة. وها أنا وحدي أمامي الخضرة الغبراء المتربة في أشجار الحديقة القديمة، ولم يحضر أحد ولم يدق التلفون مرة واحدة. وكلماتي تقودني شيئًا فشيئًا إلى نوري الأبيض الذي أرى فيه ما أريد دون أن أريده أو أن أحاول أن أمسك به.

كنت في دميرة في صباح كهذا الصباح، لا أعرف ماذا أعمل بنفسي ولا أعرف إلى من أتحدث أو من أستشير، ودانيال قد بدأ دراسته في كلية الطب وأخبرني أنه سيبقى في القاهرة حتى يوم الأحد، محاولًا مع خالي وزملائه البحث عن شقة لنا لنستقر فيها. لم نكن نعرف بعدُ هل ستترك لنا الحراسة بيت الزيتون أم لا. ولكننا كنا نتصور، حسب تقديرات المحامي، أنها ستستولي على البيت في دميرة.

كانت قد مرت عدة أشهر على زيارتي الأولى في مكتبه، وكنت قد استطعت أن أمنع المحامي أن يتعقب الأوراق التي وقعتها أو أن يسأل عما ينوون أن يفعلوا. ولم أكن أتوقع شيئًا أو أريد أن أتوقع شيئًا إلا أنني سأبقى مع دانيال في القاهرة، أرقبه وهو يدرس في شقة جديدة حتى ينهي دراسته ويصبح طبيبًا، وأنني سأكرس نفسي له وأمضي وقتي في القراءة والكتابة لنفسي ـ إن استطعت. نعم، كنت في حال من اليأس والتخلي يذكرني بما أنا فيه الآن. ولكني كنت دائمة الحركة في البيت الكبير الواسع في دميرة، أدخل الغرف وأخرج منها وأدور فيها وأنا أحدد الأشياء التي سآخذها معي لو طردونا من البيت وأصوغ الكلمات والدفاع الذي سأقوله ليسمحوا لي بأخذ لوح دميانة الزجاجي، وكرسي الهزاز، وبعض أواني أمي وفازاتها التي أحبها. كنت أعيش لحظة توديع طويلة لكل شيء آخر في البيت، وكأنما أريد

Twitter: @ketab_n

أن أدرب روحي على اللحظة القادمة. ولم يكن هناك ما أفعله غير هذا إلا أن أواصل القراءة كلما خلوت لنفسي في الكتاب المقدس أو في «إميلي» مرة أخرى. كانت تفيدة كثيرة التغيب في الصباح بعد أن تنتهي من عمل البيت لتذهب إلى ابنتها وتبقى هناك حتى موعد الغداء فتعود لتعده لي وتتركني لوحدتي من جديد.

كنت أتوقع بالطبع أن يطبقوا عليَّ ـ علينا ـ في لحظة ما، وكنت لا أتصورهم إلا مجموعة من عدد كبير من الضباط الذين يلبسون كما يلبس كريم ويتحركون جماعة أو يصدرون أوامرهم في صوت واحد بحيث لا يستطيع أحد أن يحادثهم أو أن يكلمهم كأفراد، أو أن يتحاور معهم. كنت أتصورهم دائمًا يتحركون، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيفعلون في الخطوة القادمة. وقد حول لقائي الأول مع كريم كل الكلام الذي أسمعه وأقرأه عن الثورة وعن التحول الاشتراكي والميثاق إلى واجهة من الضجة والكلام الجمعي تخفي وراءها تلك الحركة المبهمة الغامضة الجمعية التي لا تقبل المناقشة ولا تستطيع أن تميز فيها إلا صوت جمال عبد الناصر وهو يخاطب الناس ويبني لهم مستقبلًا لا أستطيع أن أشارك فيه أو أن أتفهم بوضوح خطوات بنائه.

ولم يكن أمامي بعد الضربة التي وجهوها لي دون حكم أو محاكمة إلا أن أنتظر تصاعدها، وأن أفكر فقط في كيف أجعلها أقل قسوة وشدة علينا بأن أهرب.. أهرب إلى أين؟ خامرتني حينذاك فكرة العودة إلى أمريكا، ولكني أحسست بما يعنيه ذلك من تخلٍّ كامل عن مصر، وخضوع لما تمليه العائلة عليَّ.

Twitter: @ketab_n

وأحسست أن هذا يعني فشلًا كبيرًا لنفسي وإقدامًا على حياة جديدة من جديد لا أعرف شكلها ولا ماذا سيحدث لي فيها. ولم أكن إلى جانب ذلك كله أستطيع أن أتصور كيف أقنع دانيال بالعودة إلى أمريكا بعد كل محاولاتي وأنا هناك أن أقنعه بالعودة.

لم يكن هناك في الحقيقة أمامي إلا أن أظل أدور في البيت وأن أتحسس أثاثه وأوانيه وأن أرقب الضوء والظلال في أركانه وأنا أقلب موقفي في رأسي وكأنني في مصيدة. نعم.. في ذلك الصباح كان الشعور السائد على روحي أنني محصورة محاصَرة وأن كل هذه الأشياء العزيزة الغالية على نفسي قد استحالت فجأة إلى قضبان المصيدة بعد أن أصبحت هي نفسها مهددة في أي لحظة بالاختفاء عني وحرماني منها. إني أذكر خطواتي في غرفة حكيم التي يستخدمها دانيال وأنا أشاهد الخزانة القديمة التي كانت تحمل أوراق أبي ومجوهراتي وقد رُدَّ بابها دون أن يغلَق منذ أن جردوها، وأحس أن السنوات قد أصبحت طويلة بعيدة تمامًا منذ أن مات حكيم ومنذ كنت عروسًا صغيرة في هذا البيت. فأخرج إلى الفيراندا وأعبر لوح دميانة، وأحاول الجلوس إلى مقعدي الهزاز وأريد أن أعود إلى ميمرها فأقرأ، ولكني لا أستطيع أن أجلس فأتحرك مرة أخرى إلى المطبخ وأفتح شباكه المطل على الطريق الزراعي القادم من القاهرة، وعلى حقول الفول الخضراء ذات العطر الثقيل، وأحس كأنني مهما فتحت من نوافذ على الهواء فإنني أضيق بتنفسي ولا أستطيع أن أُدخل إلى صدري القدر الذي أريده منه. وأغلق شباك المطبخ وأعود إلى البهو المظلم الكبير، ذي النجفة الثقيلة

Twitter: @ketab_n

الكريستال، الذي كان حكيم يستقبل فيه ضيوفه والذي أصبح الآن المكان المختار لتفيدة لتجلس على الكنب البني الثقيل ولتسمع الراديو أو لتختفي بعيدة عني وعن أن تزعجني، وجلست في البهو وحدي وقد انتشرت ظلاله القاتمة على كل البيت وكأنما ليس هناك شمس في الخارج أو هواء.

وما كدت أجلس وأضع رأسي بين يدي، وكأنما أريد أن أخفي رغبتي في الصراخ أو الدموع، حتى فزعت من الساعة الكبيرة في البهو وهي تدق الواحدة ومعها أسمع أصواتًا في خارج البيت لوقوف عربة وحركة أطفال الحقل وهم يتجمعون كما يفعلون مع كل عربة. ودون أن أدري أسرعت إلى شباك المطبخ من جديد لأفتحه، ولأنظر منه على الطريق، وعلى الباب الخارجي للبيت، دون أن يراني أحد، وإذا بي أرى تلك العربة المرسيدس السوداء الكبيرة على الباب، وأسمع الكلاكس الذي يدعو للرد عليه، ولكنني لم أتوقع أبدًا أن تكون العربة أو صاحبها لي أو للبيت واعتقدت أنها سوف تذهب سريعًا بعد أن يهديها الأولاد إلى ما تريد، أو إلى الطريق. وأغلقت شباك المطبخ من جديد وعدت إلى البهو المظلم لأجلس، وإذا بي أنتفض من جديد بدقات جرس الباب الداخلي للبيت.

تحركت وأنا أرتجف لأفتح الباب الذي يفضي مباشرة إلى البهو الذي كنت جالسة فيه وأنا ما زلت أعتقد أن الزائر الغريب عارض عابر لن يستغرق صرفه دقائق مني لأعود من جديد إلى انحصاري وظلمة البيت ووحدتي.

Twitter: @ketab_n

كيف أذكر الآن بهذا الوضوح حجم الضوء، ضوء الشمس، الذي دخل من الباب وكاد يغشي عيني وأنا أراه واقفًا طويلًا، كله يكاد يملأ الباب ويتحرك لكي يدخل وكأنما كنت أتوقعه وهو يقول:

ـ أخيرًا.. لقيناكي يا دكتورة.

وفي جفوة شديدة وكأنما أمنع دموعًا قلت له:

ـ إيه؟! خلاص؟

وانتزعت كلمة «اتفضل» من فمي بالقوة وأنا أغلق الباب وراءه وهو يدخل بسرعة ويجلس على نفس الكنبة التي كنت جالسة عليها، فأتحرك دون أن أدري لأضيء النجفة الكبيرة وأراه من جديد حليقًا نضرًا وكأنه قادم إلى حفل أو سهرة.

وأجلس على مقعد مقابل له وبيننا عرض البهو الكبير منتظرة أن يتكلم أو أن يعمل شيئًا وكأنني أتفرج عليه. ولكنه ينتقل إلى المقعد المجاور لي، ويجلس من جديد، وكأنما يريد أن يهمس لي بشيء أو أن يكون قريبًا ما استطاع.

ويقول:

ـ آه.. يا دكتورة.. الحمد لله خلاص.

هل كان صادقًا مخلصًا وهو يحمد الله؟ هل كان سعيدًا فعلًا بأنه ينقل لي خبر نجاحه في رفع الحراسة عني وعن دانيال؟ إنني لا أذكر بوضوح الآن كل كلماته. ولكنها كانت مضطربة متقطعة لا تحمل إلا الخبر وتكرره دون أن تقدم تفسيرات أو أن تعطي تفصيلات. كان يتحدث عن لجنة انعقدت وعن إعادة للنظر في الأمر، وعن إجراء تحقيق جديد في الأوراق التي عندهم، وأخيرًا

Twitter: @ketab_n

عن أنه ينتظر استصدار قرار جمهوري برفع الحراسة عنا خلال أسبوع أو أسبوعين.

لم أفهم في أول الأمر كل ما يقوله، وقد أظنني أعدت سؤاله مرة أو مرات، وأظنني قد بدا عليَّ من الاضطراب ما جعله يحس أنه بغير حاجة لأن يشرح لي التفاصيل وأنه من الكافي له أن يعطيني الخبر هكذا في صورة عامة وسريعة. ولكنه كان ينتظر مني شيئًا آخر أو ردًّا آخر عليه غير هذا الاضطراب المستمر الذي لم أستطع أن أتمالكه، حتى قمت من جواره وجلست وسط الكنبة الكبيرة ووضعت رأسي بين يدي وبكيت.

ووقف على قدميه دون أن يقترب مني وهو يشرح لي كيف حاول الاتصال بي تلفونيًّا في الزيتون أيامًا طويلة، وكيف أنه سأل عني في المجلس الملي وأنه أبلغ الخبر اليوم إلى البطريركية الذين أخبروه بأنني في دميرة. وقال أيضًا إنه فكر في إرسال أحد رجاله إلى دانيال في الكلية، ولكنه خشي أن يزعجه، وأنه فضل أن يأتي بنفسه ليراني ويخبرني. إنه لم يشر بشيء إلى لقائنا الأول في مكتبه، ولم يشر ولو من بعيد إلى دفاعي الذي وجهته له في مكتبه والذي كان أشد ما أعتز به وما أحتاج إلى تقدير له. ولما رأى صمتي ودموعي المستمرة، تحرك عابرًا من موقعه قرب مقعده إلى الكنبة، ووقف على رأسي وكأنما يريد أن يمد يده ليلمسني أو يربت عليَّ وهو يقول:

ـ كفاية بأه.. معلهش.. بكرة كل حاجة تتصلح.

وفزعت من الكلمة التي كانت كلمتي والتي رددتها لتفيدة في الليلة السوداء، ووجدت نفسي أبتسم له ابتسامة كاملة عريضة وأنا

Twitter: @ketab_n

أقف في مواجهته قريبة منه جدًّا ومن وجهه، وأحس أن عليَّ أن أفعل شيئًا آخر غير أن أمسك به أو أن أفعل شيئًا أوسع من هذا، فأمد يدي إليه وأشد على يده قائلة:

ـ أنا عاجزة عن شكرك على الخبر. وعلى أنك جيت بنفسك.. اتفضل.. اتفضل.. دقيقة.. هاجيب لك حاجة ساقعة.

وقبل أن يتكلم مرة أخرى، كنت كالطفلة الصغيرة أجري إلى المطبخ، وأفتح الشباك من جديد، وأتنفس، وأصب له كوبًا من عصير الليمون البارد وأعود به على صينية وكأنني عذراء خجلة تتقدم متعثرة إلى خطيب.

لم يطرق عليَّ أحد الباب ولم يدق التلفون مرة واحدة. حتى «أبونا» ثيوفيلوس لم يحضر وقد حسبته قد جاء، عندما أنقذتني تفيدة مرة أخرى من تلك اللحظة التي غرقت فيها في توقع الحب كما فعلت تمامًا في ذلك اليوم البعيد الذي زغردت فيه من أجلي.

ناولتني تفيدة حبوبي وطلبت مني أن أستعد لتناول الطعام، واقترحت أن أعود إلى الفراش من جديد، فقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة ويحسن بي أن أستريح.

ولم أسترح إلا قليلًا جدًّا بعد الطعام، ولكنني أغلقت الغرفة. وفي جوها المظلم إلا من نور عند رأسي على السرير، أريد أن أعاود الإمساك بلحظات السقوط التي أحالتني شيئًا فشيئًا إلى آنية الهوان. كيف يقع المرء في الحب؟ وهل الحب نفسه أهم، أم ذلك السرداب المضيء الذي يقود إليه؟

لقد خرج كريم يومها، بعد أن شرب كوب الليمون، بسرعة عندما

Twitter: @ketab_n

عادت تفيدة من الخارج وهي تكاد تصرخ عندما رأته، فأسرعت بوضع يدي على فمها قبل أن تقول: «يا نهار أسود» كما كنت أتوقع.. وما كاد يخرج حتى أخذتها بين ذراعي أحتضنها وأرغمها على أن تدور معي في البهو المنير بالنجفة الكبيرة، وكأنني أعلمها خطوات للرقص وأنا أحكي لها الخبر وأكرر في كلمات منغمة:

ـ كل حاجة اتصلحت.. كل حاجة اتصلحت.

وما كادت تستطيع أن تفلت من حضني ومن طفولتي المفاجئة حتى وقفت ترقبني وأنا أتحرك وألمس المقاعد والكتب ومكان جلوسه بيدي، وإذا بها تعتدل وهي تتفرج عليَّ لتطلق زغرودة عالية تتردد في البيت الكبير الفارغ وتردني مباشرة إلى الهدوء وإلى مزيد من الخجل من نفسي لأنني لم أعرف كيف أحكم مشاعري.

ولكن زغرودتها ترن الآن في أذني؛ لأنني لا أذكر أنها فعلتها مرة أخرى في حياتها معي هذه الأيام، بل لا أذكر حتى أنني سمعتها منها عندما تزوجت.

إن يدي ترتجف وأنا أدخل من جديد هذه المنطقة من التذكر التي تكشف لي عن البداية التي حاولت الإمساك بها طوال هذه الأشهر منذ بدأت الكتابة. إنني أحس هذا الخوف كـ«السهم المريش» الذي تحس به «إميلي» في أبيات قصيرة غريبة وتقرنه بالتباهي والدمعة:

خوف كالسهم المريش ـ وتباهٍ ـ ودمعة

لقد تركني هذا اليوم وقد بدأت أنتظره. قال إنه سيعود بعد أسبوع أو أسبوعين ليخبرني بصدور القرار وبدأت أنتظر. ولست أظن أن هناك أنفذ إلى المرأة من الانتظار. فيه تفقد القدرة على المقاومة

Twitter: @ketab_n

وعلى معرفة ذاتها. إنها تُمتلك قبل أن تستسلم وترتبط قبل أن تحب. ولكنها تعيش لحظات فريدة تجعلها مستعدة كالأرض نضرة كخدود الورد الصغير. لقد تحول انتظاري للقرار دون أن أدري إلى انتظار له. بدأت أتذكر وجهه وصوته وطريقة مشيته. وبدأت أحس أن عليَّ أن أتعرف عليه وأن أدخل إلى نفسه وأن أجعله يتحدث إليَّ وكأن هذا قد أصبح كل ما عليَّ أن أفعله. لم أُخطر أحدًا بما حدث ـ فيما عدا دانيال ـ إلا بعد أن أذاعت تفيدة الخبر للجميع. ولم أكن أجرؤ على الخروج من البيت أو الذهاب إلى القاهرة إلا بعد الظهر خوفًا من أن يأتي في الصباح كما جاء.

وكان عليَّ أن أنتظر مجيء دانيال في يوم الأحد، وبدأت أشغل نفسي طوال يومين كيف أعد له البيت، وماذا أعد له من الطعام، وكيف سأخبره، وماذا ننوي أن نفعل بعد ذلك.. كانت حركاتي خلال يومين طويلين، أذكرهما تمامًا وبتفاصيلهما، وكأنني قد أصبحت فجأة ومرة أخرى ربة بيت. بدأت أتابع تفيدة ونحن ننظف البيت ونرتب الغرف ونزيح التراب من تحت المقاعد ووراء الكتب، وبدأت ألعب من جديد في دولاب ملابسي وأنظم أدوات الزينة وزجاجات العطر، ودخلت المطبخ أتفقد كل تلك الأواني والحلل والطاسات التي لم أرَها ولم تمسها يدي من زمن. كانت تفيدة تغنيني عن كل هذا، وكانت قد جعلتني أطمئن على روتين عملها ولم يكن لديَّ رغبة أو دافع إلى أن أتدخل. ولم أكن أدري بوضوح ماذا أفعل أو ماذا أنتظر، ولكن مجيء دانيال كان الحجة التي أقولها لنفسي ولتفيدة وأنا أتحرك ولا أتوقف عن الحركة في البيت.

Twitter: @ketab_n

ولم أذهب للكنيسة في صباح الأحد؛ لأنني لم أكن أريد أن ألقى أحدًا أو أن يتبعثر مني هذا الفرح الذي في داخلي فأقص الخبر قبل أن أحكيه لدانيال. وبقيت طوال الصبح مع تفيدة نكمل ما بدأت إعداده من الليل. ذكر بط محشي فريك وورق عنب وملوخية، وعملنا أيضًا يومها طعمية باللحمة المفرومة. وأخرجت زجاجة نبيذ «أباركا» وبردتها، وحركت الأطباق والسكاكين والشوك والأكواب التي لم نستعملها من وقت طويل. أظن أنني فكرت في الشمع، لولا أننا كنا نستعد للغداء وشعرت أن الشموع زيادة غريبة، فأدخلتها بعد أن أخرجتها وكأنما كان يكفيني أن أتذكر مكانها وأن أعرف بوجودها.

وعندما ظهر دانيال في ضوء باب البهو كنت أجري لأرمي نفسي في أحضانه وإن لم يفتح ذراعيه وأنا أقول له وكل جسدي يرتجف بالانتظار والشوق:

ـ وحشتني.. يا حبيبي.. أما «ليتل موم» عندها خبر.

كان دانيال قادمًا من القاهرة ومن البحث عن شقة وكان غير موفق وغاضبًا، ويبدو أن جلساته وأحاديثه مع خالي والمحامي كانت قد جعلت أعصابه متوترة وجعلته غاضبًا حتى عليَّ، وأحسست هذا الفارق الكبير بيني وبينه وكأنه قد أصبح أكبر مني سنًّا وأقدر على التحكم في نفسه. ولكني لم أكن أتصور وأنا أُجلسه على المائدة وأقص عليه خبر الزيارة أن غضبه سينفجر على هذا النحو في كلمة عنيفة قاسية، كان من الواضح أنها بقيت معه من مناقشات شبرا ومن أحاديثه معهم.

Twitter: @ketab_n

قال دانيال:

ـ أولاد الأفاعي.

وصمت، وبدأت حفلتي التي أعددتها له تبرد دون أن أكون قادرة على أن أبعث في نفسه سرورًا وحماسًا لشيء. ظللت أحدثه عن أننا سنبحث معًا عن الشقة في مصر، وأنه لن يكون بحاجة إلى البقاء عند خالي أيام الأسبوع، وأننا قد نستطيع أن نسافر في الصيف إلى أمريكا أو إلى أوروبا.. نزور باريس ولندن. كانت روحي مليئة بمعانٍ ومشاعر تتفجر في داخلي واحدة وراء أخرى، وهو ساكن متزمت. فإذا تحدث، عبر مرة أخرى عن شعوره بالغضب والضيق من أننا لعبة في أيديهم، وأنه لم يعد يحس بالأمان لا في الكلية ولا في الطريق ولا في البيت. وبدأت تتساقط منه كلمات كلها استهجان بما يحدث في مصر وما يجري ويشاهده في الكلية مما يسمونه عملًا سياسيًّا. وقال لي وهو يحاول أن يأكل:

ـ اشكري الرب أنك لا تدرِّسين في الجامعة.

ولما تكاثر حديثه عن الجامعة وعن تصرفات الأساتذة، وعما بدأ يدركه ويشاهده من تصرفات مع الأقباط، بدأت أحس أنه يتحدث بلسان أهلي وأننا نقف وكأننا في معسكرين مختلفين، وأن هذا الفارق يزداد كلما تحدثنا فبدأت أهدأ وأصمت.

إنني أذكر الآن نظرتي له وقد صمتَ وصمتُّ، ونحن على المائدة، وأنا أنظر إليه وقد أصبح رجلًا يختلف تمامًا عن أبيه في كلماته وصوته الهادئ، ويختلف عن أبي في عصبيته وانشغاله بالكنيسة وبالدين، وأنه قد أصبح شخصًا له غربة عليَّ لا أستطيع أن أفهمها أو أن

Twitter: @ketab_n

أتجاوزها بسرعة. هل كبر دانيال فجأة وأصبح رجلًا من ورائي ودون أن أدري، أم هل كنت غارقة في سحر المفاجأة والعطاء الذي جلبه كريم فلم أشعر بـ«تغير الفصول»، أم هي تلك اللعنة التي صاحبت حياتي كلها والتي أراها الآن وأنا أستعيد تلك الحياة، والتي تدفعني دائمًا لأن أستعد وأن أهيِّئ نفسي فإذا اندفعت بكل قواي وبكل روحي صحوت على هذا «الفجر المختلف الآخر»؟ فهل ما زال عليَّ أن أستنشق فجرًا آخر مختلفًا مختلفًا؟

إنني أذكر وكأنني ما زلت هناك في دميرة من أكثر من خمس عشرة سنة، ودانيال يواصل طوال اليوم سكونه وتزمته ويجردني من كل محاولة أبذلها معه، حتى إذا دخل فراشه بالليل وذهبت إليه في آخر جهدي لأن أقترب منه وأن أقربه مني قبَّلني ببرود، ولم يستخدم مرة واحدة «ليتل موم»، ولكنه قال لي وأنا أتظاهر بدس الغطاء حوله:

ـ يا ريتنا سمعنا الكلام وفضلنا هناك.

ولم أنم تلك الليلة، وظللت أتقلب ببدني وروحي وأعرف منهما أحاسيس كنت قد ظننتها انقضت. ولكني أتذكر وخزهما الأول الآن، وقد استحال إلى هذا الخوف الذي يمزق الروح كأنه «السهم المريش»، وأنا أسمع تفيدة تتسلل إلى الغرفة لتخبرني أن «أبونا» ثيوفيلوس قادم عليَّ.

وقبل أن أراه، أحس أن روحي وبدني يصرخان في داخلي، وأنني لست إلا مرضًا كاملًا يقارب النهاية، وأني أفقد من جديد تلك البداية التي أمسكت بها في كلماتي الآن، ولا أكاد أعرف دفاعًا عن نفسي

Twitter: @ketab_n

إلا أن أعد روحي لأن أسأل «أبونا» أن يقرأ لي من جديد. وبدأت أسمع قبل أن يدخل عليَّ كلمات هوشع وآيات جومر.

* * *

«جومر»، «جومر»، ماذا تعنين لي؟ أنت «امرأة زنى» وأنا كذلك. هل أتخذك رمزًا لي؟ هل أحاول بذلك وبطلبي من «أبونا» قراءة «هوشع»، أن أزداد فهمًا، أن أعرف المهبط الذي وصلت إليه، أو أن أرقى من خلالك إلى الفهم وإلى معرفة اللعنة والتوبة معًا؟

إن السفر ما زال مفتوحًا أمامي بعد أن خرج «أبونا» وهو يكاد يدرك أنني أفهم السفر الغريب فهمًا غير الذي شرحه، أو أنني لم أكن أريد منه إلا أن يقرأ وأن يحمل الكتاب الثقيل لي. أما أن يفسر وأن يشرح وأن يستخرج العظة، فهذا ما جعلته يفهم أنني لا أريده.

كتابي مفتوح أمامي وأنا أنقل منه كلمات أريد أن أرددها، وكأنها عديد يفتح الطريق لقلبي أن يصل إلى ما يريد وأن يختتم هذا الصراع الطويل مع الورق والقلم: «والآن أكشف عورتها أمام عيون محبيها ولا ينقذها أحد من يدي. وأبطل كل أفراحها وأعيادها ورؤوس شهورها وسبوتها وجميع مواسمها». هل ما زالت لي عورة لتُكشف؟ وهل بقيت عندي أعياد ومواسم؟ «وأخرب كرمها وتينها اللذين قالت هما أجرتي التي أعطانيها محبي، وأجعلهما وعرًا فيأكلهما حيوان البرية».

كانت هي إذن أجرتي. هي تلك الحياة وهذا الحب وهذا الانطلاق والتشكل وراءه ومعه في القاهرة وخارجها، في الأدب والسياسة والثقافة والتنمية للمجتمع، وفي كل هذه المراحل والخانات التي خلقتها الثورة والاتحاد الاشتراكي، واجتماعات الداخل والخارج

Twitter: @ketab_n

مع الأساتذة وممثلي الدول الاشتراكية وغيرهم ممن كانوا يخدمون النظام أو يستخدمهم.

لم تقدم لي أجرتي مرة واحدة، ولم تقدم لي كمقابل، ولكنها صاحبت الخطيئة والخطأ. وما أبسط الأمر لو كانت أجرة، أو لو كنت عرفت أنها كذلك. إن أبي ثيوفيلوس يخطئ تمامًا فهم الأجرة. وأنا أيضًا ما زلت لا أفهمها تمامًا، ولكني لا أفهمها كما لا أفهم كل رمز. إن كل رمز هو مرقى، وقد يكون أحيانًا مهبطًا، ولكنه أساسًا محاولة للفهم. وعندما نحاول أن نفهم نهبط دائمًا بما نريد فهمه. إننا نحوله عما حدث إلى مساق له معنى نختاره ونحدده. وهذا البحث الشاق مع نفسي للحصول على معنى لحياتي وعقابي هو تحوير لما حدث وانحراف به.

في أشهر قليلة بعد رفع الحراسة، كنت قد عُيِّنت في الجامعة.. قابلت العميد واستمعت منه إلى كلام غريب عن قيمتي وقيمة تخصصي في الأدب الأمريكي، وحرص الجامعة على أن تنتفع بي. ولم أكن أتصور كيف يمكن أن تتغير العقبات، وأن تجد الأوراق من يحركها، ومن يوقعها، ومن يبحث عنها ليحقق بها الأمر الذي وُجه إليهم من كريم عبد القادر، أو كما قال لي:

ـ إحنا.. كلمناهم.

لم أكن أتصور أن هناك أمرًا يستطيع أن يغير رأي الجامعة والأساتذة وأن يحل مسائل الميزانية والدرجات وكأنها لم تكن عقبات حقيقية على الإطلاق، أو كأنها كانت مجرد أوهام أو أوامر أخرى. ولم أكن قد تعلمت بعد أن الأوامر هي أيضًا أوهام في نظام كالنظام الذي عشنا فيه.

وحاولت أن أقنع دانيال أن الأمور تتغير وأن أمه «ليتل موم» قد أصبحت

Twitter: @ketab_n

لها قيمة في بلدها، وأنها ترقى وتتحرك في مدارج قريبة من السلطة ومن أصحاب الأوامر. وكنت حينذاك ما زلت أحسب أن الأوامر رأي وأنها حكمة وأنها سلوك علينا أن نفسره وأن نتقبله ونشرحه للآخرين. ولكن دانيال بشبابه كان يرفض. كان ينغلق على نفسه ويزداد كل يوم غربة عني مع ازدياد محبتي له وتعلقي به كفرح مطلق وككل ما أحتفظ به لنفسي من نجاح لا شك فيه ولا ريبة ولا أوامر.

كانت الحوادث والأحداث، والأعمال والأيام التي تربطني بكريم، تصنع بيني وبينه غربة متصاعدة وكأنما هو يراني أتحول إلى رمز لكل ما لا يستطيع أن يتقبله أو أن يفهمه من الثورة والنظام وما يحدث في الكلية عنده.

إنني أعلم تمامًا أنني أفكر، ولا أحكي. وكيف أحكي ما حدث وأنا في كل لحظة أحاول أن أجعل له معنى، أو أسجن نفسي في رمز يكشف لي دلالته؟ لم تعد هناك حكاية بعد في كل ما كتبتُ، لكن هناك معاودة مستمرة لما سجلت هنا من صراع الروح مع ما أحس أنه عقاب إلهي على «أيام بعليم» التي أمضيتها حتى ضاع مني دانيال وأغلق كريم بابه في وجهي واستحالت عليَّ رؤيته ورأيت بالمصادفة الزمردة الضائعة على صدر زوجته.

«وأعاقبها على أيام بعليم التي فيها كانت تبخر لهم وتتزين بحزائمها وحليها وتذهب وراء محبيها وتنساني أنا، يقول الرب».

وعندما أردت أن أعود إلى «جومر» عادت تفيدة لتردني إلى طريق الحبوب والموت.

* * *

Twitter: @ketab_n

لم أستطع أن أصرف تفيدة بسهولة. لقد حفظت الطقوس، طقوس الموت القادم، وكان عليها أن تحفظ الوقع للحياة الباقية. وقد عرفت منها أن البشر لا يستطيعون مواجهة الموت حتى عندما يعرفون أنه قادم. إنهم دائمًا يتصورون أنهم قادرون على فعل شيء أمامه. وكلهم ينتظر المعجزة، وهم لا يعلمون أن كل لحظة حياة معجزة. إنها الآن تحاول دائمًا أن تقترب مني، وأن تعرفني أكثر مما عرفَت، لأنني أحمل الموت، وهي تحس أنها إذا علمت ما في روحي وما في بدني فستصبح أقوى. كيف يصبح المرء أقوى بمعرفة الموت؟

عندما جاءت ولم ترد أن تنصرف، قالت لي:

ـ ماذا تريدين؟

وكأنما إرادتي معرفة لها. وكان السؤال أصعب عليَّ من أن أجيب. أنا أريد يا تفيدة معنى لحياتي، وأريد أن يعود دانيال، وأريد أن أموت وأنا فاهمة لإرادة الرب متفاهمة معها، فهل تستطيعين أن تساعديني في ذلك؟ إن كل ما تستطيعين أن تحملي لي الموت في أكواب المياه وحبوب الدواء، وفي محبتك التي لا تنفع في ما أسلكه من صراع.

هل من المستحيل أن تلقي القناع الذي صنعته علاقتنا، قريبة أو بعيدة؟ لقد اقتربت مني حتى غسلت بدني وتعرفتِ دون أن أدري على علاقاتي بكريم وعرفتِ متى كنت أعود بعد أن رقدتُ له. ولكنك لم تعرفي إلا الأجرة، فهل أنت صاحبة الحق في المعرفة،

Twitter: @ketab_n

أم هل أنت مجرد جزء من هذا الإطار الذي وقعت فيه «أيام بعليم» وأنك بذلك مشاركة فيه؟

إنني أنتظرك في منتصف الليل؛ لأن هذا موعد حبوبي. وبين التاسعة ومنتصف الليل ماذا تفعلين؟ هل تنتظرين موتي، تنتظرين لحظة التخلص مني، أم تنتظرين المعجزة؟

ليس لديَّ شك في أنك تعرفين كل حقائق حياتي. ولكن الذي لا تعرفينه هو ما أريد أن أسجن فيه نفسي من رموز. أما الذي لا أعرفه أنا فهو حكمك عليَّ، وكل ما أريده هو هذا الحكم وكأنه المعنى الذي أريده. فهل نستطيع أن نتصارح أو أن نتكلم مرة واحدة دون طقوس؟ إن في هذا استحالة كاستحالة وصولي أنا إلى المعنى، ولكنك لا تدركين ذلك، أو هكذا أتصور.

تفيدة، تفيدة.. كيف أصبحت تعنين ما تعنين بالنسبة لي؟

هل كل تلك الرموز التي أستحضرها حولي هي بعض من تباريح الموت.. «جومر» ودميانة، «إميلي» وتفيدة، كلهن فجأة رموز، لم أصنعها بنفسي ولكني أتخذها لنفسي دون أن أدرك بوضوح معانيها ودلالتها؟

لقد وقعت على «جومر» دون سابق معرفة أو إصرار من جانبي. لقد أسرتني قصتها وأنا أقرأ كيف عاملها زوجها: «هأنذا أتملقها وأذهب بها إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك ووادي عخور بابًا للرجاء. وهي تغني هناك كأيام صباها، وكيوم صعودها من أرض مصر».

Twitter: @ketab_n

إنني أطلب الرحمة، أطلب الملاطفة، أطلب الغفران الذي يردني كما كنت يوم صعودي من أرض مصر. فهل هذا هو كل ما أريد من «جومر»؟ هل لهذا تحيا فجأة روحي وتتوهج كأنها زمردة؟

وأنت يا تفيدة مع كل يوم، وأنا أنظر إلى صمتك وحركتك، أراكِ تحتوين كنوزًا أطمع فيها وأود لو أنها فجأة تنفتح لي بابًا لرجاء. ولكنك تصمتين، تصمتين الصمت الذي أعرفه، وتتكلمين وتتحركين لتحركي الحياة لي كي تمر. لقد قسوتُ عليك قسوة شريرة يوم ذهبنا معًا إلى دميانة. ولكنك لم تفاتحيني مرة أخرى في الأمر، وكأنه كان مجرد حبة ابتلعتها أنا. ما هذه القدرة الفريدة فيك على هذا النوع من الصمت؟

إنني أصنعك لنفسي معركة مفتعلة، أريد أن أنتصر فيها بعد كل هزائمي.. فهل تخضعين؟ هل أستطيع أن أجعل نار الموت التي تتأجج في داخلي تلفحك.. ولو مرة؟

إنني أحسه يقترب بشدة.. ولكنه يتشكل حولي في رموز وأنا أريد الذكريات. أريد الحقائق فلا أصنع إلا غموض الرمز. ما أكبر الفارق بين رموز الرب ورموز الإنسان عندما يريد أن يفهم. رموز الرب، وكل كتابنا رموز، وهي وقائع وسلوك وقيمة مقررة، لا تستقر ولا تقوم إلا في الروح الخالصة للرب المكرَّسة له. لا تعرفها حقًا إلا دميانة. أما أنا فأصنع من كل شيء معارك منحولة، أنتحل الغوص وأنتحل الدلالة وأنتحل القيمة.. كل ذلك لأحاول الفهم!

لماذا لا أتساءل مباشرة عن الواقع، وعما حدث؟ لماذا لا أكتبه وحده؟ ولكن كيف؟ هل هناك أبدًا واقع وحده؟ الموت فقط هو الواقع المفرد.. المنفرد.. أما طريق الحياة، وطريق الخلاص، فكله

Twitter: @ketab_n

رموز إنسانية هي معارك مصنوعة، هي محاولات فاشلة للفهم، هي تنزيل للواقع كي يصبح في متناول الفهم. وعندما نفعل ذلك ونجعله رمزًا يزداد غموضًا ويزداد فشلنا في الفهم.

هل لهذا تزدهر الرمزية في عصور الانحدار والتدهور؟ إنني أذكر كيف اصطرعت في شبابي مع نفي الرمزية عن «إميلي». وكم أود لو أستطيع العودة إلى هذه القدرة وأنا أنفض كل أوهامي ورموزي التي هي أقرب إلى أوامر الديكتاتور المطلق السلطة.. مجرد أوهام. إنني أريد المستحيلين على الأرض والسماء.. الفهم ونعيم الرب.

فهل النعيم مكان ـ سماء ـ شجرة؟
إن السبيل الضيق للحيز والمكان أمر من أمورنا ـ
أما للموتى
فليس هناك جغرافيا ـ

ولكن بلوغ المجد ـ إنعام ـ وتركز ـ
فأين يطير ـ هذا الحضور الدائم؟

ما زالت «إميلي» تعلمني أن عليَّ أن أقنع بالجغرافيا، وما زالت تفيدة تفرض عليَّ الحيز والمكان والثانية عشرة.. وكوب الماء.

Twitter: @ketab_n

الأبوكاليبس

قمت في الصباح متشبثة بالجغرافيا. إنني لم أحلم ولكني تذكرت، تذكرت بوضوح الجغرافيا. تذكرت أو حلمت أو وجدت نفسي مرة أخرى في جغرافيا واضحة محددة. أليست الجغرافيا واضحة محددة؟ أليست الجغرافيا هي الشيء الوحيد الذي يستطيع المرء أن يعود إليه ثانية؟

كنت معه مرة أخرى في اجتماع، حفل. كثيرون هم الذين وضعوني، وضعني معهم، كلهم مثقفون يريدون أن يعملوا. أن يصبح لهم دور وأن يصلوا إلى هذا الدور بما لديهم من أفكار هي في الحقيقة كلمات. كان الكبار يحضرون الاجتماع، الحفل، مرة في ملابسهم العسكرية ومرة في حللهم الرسمية و«السولكا» الملونة الهادئة. كانوا جميعًا مثقفين، دكاترة وأساتذة، ومتخصصين. وكان الكبار يبدون نحوهم نوعًا من الحيرة والحرج. إنهم لا يستطيعون مرة واحدة أن يسكتوهم أو أن يرفضوهم، وكل ما يريدون معهم أن يصلوا إلى طريقة يسكتونهم بها وكأنهم أقرباء فقراء.

Twitter: @ketab_n

كانت الثقافة بالنسبة لهم، أو بالنسبة للكبار، فأنا لا أستطيع مرة واحدة أن أحدد الجغرافيا، مجرد معرفة، وكأنها معرفة لبعض الشوارع في مدينة، معرفة بمصنع أو بحديقة، مجرد معلومات، واحد مر من هنا وواحد لم يمر.

وعندما يخطب الأستاذ الجامعي، من هو؟ إنني لا أستطيع أيضًا أن أحدده. كانت الكلمات تنصب، تصدر، تتولد من شدقيه وتحس بوضوح أنها لا تهبط أو تصنع في عقله. كان يقولها لهم وكأنها أشياء جاهزة متزايدة كاللعاب في فمه.

ولم يكن هذا كل الحلم أو الجغرافيا.

في ساعة أخرى من الليل: في لحظة مفروضة عليَّ من التذكر. في شارع آخر كنت أسير وحدي في الليل الذي هو ليس حلمًا.

لماذا أتوقف ولا أستطيع أن أسير؟ إنه الحلم الذي كان يجعلني طوال هذه المرحلة من الكتابة أقف، أنصرف، أتجه بروحي إلى شيء آخر.. إلى ذكرى أخرى، إلى «إميلي»، إلى الكتاب المقدس.. أو أنتظر الحبوب من تفيدة.

إنني أعدد الأحلام كي لا أصل إلى هذا الدوران الليلي حول بيته، الذي ما زال قائمًا في روحي وكأنه دائرة الخزاف الذي صنع آنية الهوان.

ولكن قبل أن ينتهي النهار، هذا اليوم، أريد أن أكون قد خلصت من كل حلم. ولكن روحي تتشبث بالخفاء وتريد أن تواصل إخفاء الهوان وكأنما أنا لا أريد أن أفرغ من الكتابة.. أو من الحياة.

عندما كنت إلى جواره... أين هذا الجوار الآن؟ ولماذا أريد أن

Twitter: @ketab_n

أبدأ به؟ هل لكي لا أصل إلى آنية الهوان؟ هل لأتجنب هذا الليل الذي لم يكن جوارًا ولم يكن حلمًا؟ إن أحداث حياتي معه، كريم عبد القادر، تنتصب أمامي كأنها شواهد تتجاور ولا تتلاحق ثم تغير أماكنها دائمًا وكأنها لم تحدث في زمن بل هي مجرد قائمة هناك، لا، إلى جواري هنا على الفراش.

ما هي ذكريات المرأة بعد الخمسين إلا كل أولئك الأطفال الذين لم تلدهم؟ لقد ظللت أمنع الحمل طوال علاقتنا معًا لأنها كانت حياة في قلب الضوء والحكم والسياسة. وهل أريد الآن أن أتذكر بالتفصيل كيف انزلقت إلى هذه الدائرة؟ إنني أتقاعس مرة أخرى ولكني أريد أن أصلِ ولا يهم الطريق. كم ظللت أبحث عن البداية، وما زلت، حتى أصل إلى قرار.

هل محاضراتي في الجامعة وتحمسي لها وتحركي مع الطلبة والطالبات وإحساسي بأنني أعود فعلًا إلىِ مصر داخل الحرم هي البداية؟ كم بداية اخترت!

كنت أكتب وأقرأ لهم بالإنجليزية وأترجم معهم ليتذوقوا وليملكوا الأدب والفكر وكنت محاطة بتلك الرعاية الغريبة التي تشعها كلمات كريم من بعيد في التلفونات، أو أحيانًا في زيارة قصيرة إلى الجامعة وإلى لقاء نجتمع معًا فيه مع العميد وبقية الأساتذة. كان واضحًا للجميع أنني محاطة برعاية خاصة، وكنت أحسها حقًّا لي قد تأخر، أو دليلًا على أنني أعمل فعلًا ما يجب أن يُعمل. ولكنني في الحقيقة كنت أسوَّى على نار هادئة في فرن خاص لأكون مهيأة له. هل هكذا دائمًا تستسلم المرأة؟

Twitter: @ketab_n

في البداية إحساس بالحق ثم الزهو والتفتح كنضوج الزهرة والثمرة... وبعد ذلك.. بعد ذلك.. آنية الهوان. لماذا أجمجم ولا أنطق، وأتابع ما حدث في الحرم؟ على عينيَّ الآن أشجاره القصيرة والطويلة بين الكلية وإدارة الجامعة. والغرف والقاعات التي جلست فيها هي قاعات المحاضرة، وأنا أشارك في الاجتماعات التي صنعها التحول الاشتراكي. كان هذا التحول مثل تيار من الكلمات ينجرف فيه الأفراد ويغير من مواقعهم وهم لا يملكون إلا الاستسلام في فرح أحيانًا وغيظ أحيانًا أخرى، ولكن في دهشة مستمرة.

لقد نجحت في الانتخابات، ورُقيت إلى مساعد أستاذ واحتسبت أقدميتي في الدكتوراه قبل أن ينتهي دانيال من سنة أولى طب. هل أتذكر الآن مرارة هذه السنوات أم اندفاعها وفورتها؟ وكنت أُدفع شيئًا فشيئًا إلى إعادة كتابة تاريخ الأدب الأمريكي ليتفق مع سياستنا الخارجية في الستينيات. وكنت أكتب أحيانًا في الصحف، وظهرت صورتي أكثر من مرة في الاجتماعات أو على مقالات عن الثقافة والإعلام والتحول الاشتراكي أو عن شخصيات الأدب الأمريكي التي صاحبت أزمة الثلاثينيات.. أبدًا لم أتحدث أو أكتب عن «إميلي».

لم نكن قد غادرنا هذا البيت الذي أموت فيه بعد. وكان دانيال يضيق ضمن ما يضيق به، وهو كثير، بتلك الرحلة اليومية إلى الزيتون. ما أكبر الفارق بين صحبتنا معًا أنا ودانيال في هذه السنوات وصحبتنا معًا في أمريكا وبعيدًا في الصيف.. كنت في كل يوم أزداد معرفة بالميثاق وبخطب الرئيس ومشاكل التخطيط الإنمائي والثقافي والإعلامي، وكان دانيال يزداد قربًا من الكنيسة ومن أقربائنا في

Twitter: @ketab_n

شبرا أو أصدقائه وصديقاته في كنائس الزمالك. كنت أحس أنه يقصر أو يتباعد عني صمتًا وانغلاقًا على نفسه وأنا أنفتح بسيل لا ينقطع من الكلام والكتابة التي لا أذكر منها شيئًا الآن إلا منظر أسطرها على الصفحات.. يا إلهي، لِمَ كان كل هذا النور الزائف، وكل هذه الحركة غير المفضية إلى شيء؟ وأين ذهب كل هذا الجهد؟

كان دانيال في عز امتحاناته في السنة الثانية عندما بدأت، فيما أذكر، أتركه لتفيدة أو لبيت خالي وأسافر مع الوفود إلى برلين وموسكو وصوفيا وبلجراد.

وقد لا يستطيع أحد أن يسجل كيف كان كريم يدير هذه الوفود دون أن يتصدرها، ويضع جدول حركتها وأعمالها وكلماتها وخطبها دون أن يتحدث هو أو أن يتكلم باسمها. كان هناك كثيرون، وكنت منهم، يحسون بالأهمية وبالقدرة على التعبير والافتخار ويشاركون في الاستماع والتحليل والنزهات والحفلات. ولكني أستطيع أن أذكر أن أيدينا قد بدأت تتماس هناك أو تتماسك للحظة في المتاحف في «درسدن» أو في مماشي قصور العصور الوسطى وبيوت النبلاء.

وأذكر أنني بدأت أعرف في عينيه، عندما ينظر لي، ضوءًا جديدًا حانيًا وكأنما يريد أن يقول كلمات للحب. هناك أكلت معه وحيدة على مائدة مفردة في الفندق أو في جماعة في مطعم على الطريق، وشربت مع الآخرين ومعه، وزارني مرة أو مرتين في غرفتي في الفنادق دون أن يحدث بيننا إلا مزيد من الاقتراب والألفة وليس الاستسلام. كان هناك دائمًا من الأمور أو القضايا أو التعليقات على مسؤوليات الأفراد ما يشغلنا أن نكمل الطريق.

Twitter: @ketab_n

إن المرأة لا تذكر بالضرورة أول مرة نامت فيها مع حبيبها. بل قد تنسى ليلتها الأولى مع زوجها الذي مات، ولكنها تذكر لحظات وليالي أخرى للحب أو للهوان.

لماذا ينتصف النهار هكذا بسرعة؟ ولماذا تصبح الساعة الثانية عشرة مرة أخرى؟ لماذا لا تدَعيني يا تفيدة أو تنسين؟ لقد كنت أقترب.

قمت في الثانية عشرة بعد ساعة من النوم. وروحي تصرخ على الحب الذي ضاع وعلى الابن الذي اختفى. هذا العويل المخفي في داخلي هو أقرب ما يكون إلى قلق الترقب، «سسبنس». إن «إميلي» تنتقم مني في كل لحظة. إنها تسيطر على ذاكرتي ومشاعري وتصنع لي اللحظات:

قلق الترقب ـ أعدى من الموت ـ

هذه المرأة كانت مثلي تنتظر شيئًا، تترقب باستمرار في قلق. إن الأبيات، أبياتها، تتصاعد إلى قلبي، وتكاد تمسك بلساني في تشنج مقتضب.

الموت ـ مع أنه دائمًا بيِّن حُر،
مجرد موت، لا يستطيع أن يزيد ـ
أما قلق الترقب ـ فإنه لا يختتم ـ

لكنه يفنى ـ ليحيا من جديد ـ
لكنه بمجرد أن يتجدد يموت ـ
إنه المَحْق ـ يُنضِّره طلاء
من الخلود ـ

Twitter: @ketab_n

«إنه المحق ينضره طلاء من الخلود». ولكن ماذا أترقب؟ خبر أم ذكرى؟ عودة أم وقوع، أم هو «الأبوكاليبس»؟ إنها رؤيا لا تريم ولكنها لا تحل. في كل لحظة من لحظات حياتي الأخيرة وأنا أكتب أراها تمتزج بالمرض وبالألم، وبكل ما أكتب من كلمات وبكل ما أفعل، وأنا على الفراش، مع من أرى من الناس.. ما أشد آلام هذا «السسبنس»، أم هو المرض قد ارتد إلى الروح واستحال فيها إلى هذا القلق المترقب؟

إنني أحس أنني أقترب، وكم أتمنى أن أعبر وأن أجتاز وأن يقع هذا الذي أترقب.

لا يفض «السسبنس» إلا الرؤية. والرؤية تامة لا يُحذف منها شيء، وليس فيها رموز، ولكنها قابضة على الحياة والموت والدلالة معًا. أنا جالسة على البساط القرمزي في بهو الشقة بشارع شجرة الدر، متسربلة فقط بالكومبينيزون والروب الأرجوانيين، لا يربط صدري أو وسطي شيء، وشعري الأسود محلول تنعكس صورته في كأس كبير بيدي، به براندي مصنوع من البرقوق من يوغسلافيا. كان الفراش الأبيض في غرفة النوم باديًا وراء ظهري من الباب المفتوح وأنا أعرف أن ملابسي الداخلية ملقاة على طرفه وملابس كريم على المقعد المجاور مرتبة واضحة: بنطلون حلته الزرقاء والجاكيت والكرافت، بل وحذاؤه أيضًا.

كنت أشبه براقدة على البساط أسمع من غرفة النوم بقية أنغام «كونشيرتو الفيولين» لـ«بورودين» وأسمع من الحمام صوت المياه الكثيرة المنسابة وهو يغتسل.. وأنا أنتظر دوري، والدفء الذي يشيعه

Twitter: @ketab_n

المكيف في الشقة يجعلني أستعذب الانتظار وأريده أن يستمر. كل الألوان والطعوم والأصوات والحركة التي لا تهدأ في البدن قد أصبحت مألوفة معتادة متكررة لا يفرغ لي نهم إليها ولا أريدهَا أن تنقطع.

كنت جالسة منبسطة على البساط القرمزي وأمامي على الأرض ما كنت أقرأ له فيه وما أريد أن أستمر وأواصل القراءة حتى يعود إليَّ مرة أخرى ونغرق مرة أخرى في هذه القبلات التي لا تنتهي والتي تصنع طعومًا وأصواتًا أخرى تشدني إلى حافة أخيرة كأنها حافة الموت.

لم أكن قد عرفت هذه اللحظات في حياتي من قبل، ولم أكن أعرف أنها موجودة داخل هذا البدن. ولكنه علمني أن أجدها وأن أطلبها وأن أحن إليها وأن أستشعر ضرورتها طوال هذه الأيام الكثيرة المتكررة من عام ١٩٦٦ بعد أن حصل لي على هذه الشقة.

قد لا أستطيع أبدًا أن أعرف البداية. ولكن ليس في الرؤيا، في الحقيقة بداية. إنها كانت قائمة، ولا تزال، كانت رحلاتنا إلى الخارج معًا قد تكررت، وكان دانيال يجد نفسه محتاجًا إلى شقة خاصة به أقرب من بيت الزيتون الذي ظلت ترعاه تفيدة لنا.

وفي عز أيام التحول الاشتراكي والعروض العسكرية، حدثني كريم نفسه، قبل أن أحدثه في حاجتنا إلى مثل هذه الشقة. وأضاف أنها ستكون فيما بعد العيادة التي سيحتاجها دانيال بعد أن يتخرج. واستمررنا نطلق عليها ونحن نضحك اسم العيادة، حتى بعد أن أصبحت شقة الغرام الذي لم أعرفه من قبل ومكان الاستسلام والجوع الذي أصبح تيارًا جارفًا لا ينتهي في داخلي.

Twitter: @ketab_n

إنني لم أكن أفكر أبدًا، في هذه الأيام، وهي تتكرر، كيف بدأت، ولكني كنت أفترضها معطاة لا تنتهي وكان كل همي هو أن أُسكت خوفي من انقطاعها أو من أن تمس دانيال أو كريم نفسه وزوجته.

وأظن أنني أرى الآن الخطيئة ليس في أنها تقع ولكن في أنها تستمر، فما أكثر التشكل الذي يفرضه على الروح استمرار الخطيئة. هذا التشكل هو الذي يجعل ماء الخفية عذبًا ويلقي العماء على القلب والمرض في البدن. كم تحركت خلال هذا العام لأصون الخفاء. ترتيب جدولي في الجامعة حتى أصبح حرة في صباحات يريدها كريم وينشغل فيها دانيال.

رحلتي من العيادة بعد الحب إلى الزيتون حتى أرى تفيدة وأبقى معها هناك لأترك لدانيال الشقة لنفسه ولأصدقائه ولمذاكرته لا أثر فيها إلا لي ليتذكر «ليتل موم». انتظامي الطقسي مع حبوب منع الحمل وحقيبتي الصغيرة التي أحمل فيها بعض ما فرضته ساعات الغرام من حاجات. ما أكثر هذه الحاجات وأكثر تنوعها وغرابتها الآن.. أحيانًا صور قديمة لي، وأحيانًا ثوب أريده أن يراني فيه وبعض مجوهراتي أتحلى له بها ثم أخلعها، وخاتم زهيد الثمن أهدانيه لأضعه أمامه وأخلعه إذا ما تركته.

إن استسلامي لم يأخذ وقتًا طويلًا بعد أن أثثت الشقة وساعدني فيها، وجاء لأول مرة يزورني فيها عندما تم كل شيء، حتى المكيف في البهو وفي غرفة النوم، والسخان في الحمام وعلى حوض المطبخ. لقد ساعدني في كل شيء وجعل كل شيء ممكنًا بسرعة وبعدد كبير من الرجال الذين لا يتكلمون ولا يريدونني أن أحاسبهم على

Twitter: @ketab_n

ما يعملون لي. وخلال كل أيام إعداد الشقة كانت علاقتنا الوثيقة تشتد ولكنها كانت بريئة تمامًا إلا من نظرات أو تماس أيدٍ أو ضحكات متبادلة. وهكذا عرفت الروح أن تتشكل قبل أن أحصل على لحظات الحب وعرفت كيف أناقش دانيال في تجنبه لكريم ونفوره مما يحيطنا به من رعاية.

كان هذا العام، عام ١٩٦٦، هو عام صعوده السريع وظهور صوره كثيرًا في صحبة الكبار، وإن ظل حريصًا على ألا يجعلني أعرف أو أرى إلا مظاهر قدرته وسلطته التي كان يعرفها الجميع. أوامر التلفون أحيانًا القصيرة المبهمة التي قد لا تتجاوز «لا»، أو «طيب»، أو «بعدين». وأحداث مقررة يخبرني بوقوعها قبل يوم أو ساعات من إعلانها على الناس، بل وبرامج ومقالات في الإذاعة والتلفزيون والصحف. ما أسذج مظاهر السلطة وما أكثر ما تتكرر أمامنا دون أن ينقضي سحرها أو نخلص من سيطرتها على النفوس. كانت بعض هذه المظاهر أراها واضحة عامة أمام الناس في الاجتماعات أو في الرحلات، وكان بعضها الآخر يتم أمامي وحدي من تلفون العيادة فتزداد أهمية وغموضًا وتنغلق الروح عن التعرض لها أو التصدي لمناقشتها؛ لأنها كانت تحيطني بالخفية التي أريدها وبالأمان الذي ازدهرت فيه زهور الرغبة الفاغمة المثقلة.

هل حللت رموز الرؤيا وعرفت البداية؟ لقد تمت القبلة الأولى ولم تنتهِ في بدني، وصوته يدعوني «عصفورتي الصغيرة»، وحضنه ينفتح لي وكأنما ليحميني من انهيار هذا السد القديم الذي وضعته على البدن طوال طفولتي وزواجي وأيامي مع دانيال في أمريكا.

Twitter: @ketab_n

إنني أرى الآن وأعرف الدم الذي تتكسر صفائحه في داخلي، وأرى الآن وأعرف أن مظاهر الحب كمظاهر السلطة، كلتاهما خطيئة إذا ما تكررت في الخفاء، ولن يزيحهما إلا «الأبوكاليبس»، الرؤية الأخيرة للعذاب القادم على الزانية العظيمة.. الجالسة على مياه كثيرة.. هي شعوب وجموع وأمم وألسنة.

لم تكن القبلات قد انتهت في بدني أو من على صدري عندما عاد دانيال في غير موعده لسبب لم أعرفه للآن، ليدير مفتاحه الخاص في باب الشقة ويخطو مباشرة إلى البهو الذي أجلس على بساطه القرمزي. إنني ما أزال أراه على مدخل البهو يرفع رقبته ويدير عينيه ليرى ويسمع ويعرف وتنفجر من فمه كلمته وهو يستدير ليصفق الباب خارجًا ويصمت معه صوت المياه ويستمر أنين الكمان كبقية من ماء الخفية المنسكب.

إن ما عند الرب عليَّ غير قليل.. وها هو ذا الويل الواحد يمضي «ويأتي ويلان أيضًا بعد هذا».

* * *

اليوم الجمعة، وأمامي أربعة أيام قبل موعد زيارة الطبيبة. ولا بد لي في هذه الأيام الأربعة أن أكمل الرؤية وأن أفرغ من كل التشكل. لم يعد هناك رموز ولم يعد هناك بحث عن دلالة أو بداية. إنني أسير نحو واحة خضراء سأستريح فيها، ولا بد أن أقطع هذه الصحراء بكل العطش ومرارة الجوف. إن سِفري الصغير يتضخم وأحس كأنني آكله؛ فأنا لم أعد أكتب.

لقد حل الويل الثاني بعد أشهر قليلة من فقدي لدانيال. كانوا جميعًا

Twitter: @ketab_n

يشيرون إليه بأنه قد اختفى وكانت بلاغاتهم للبوليس والمستشفيات وللأقارب هي جميعًا سؤال عن شخص قد اختفى. أما أنا، أنا، فلم أكن إلا أن أكرر لنفسي أنني فقدته. لقد أحسست ذلك لحظة رأيته يصفق الباب ويخرج. أحسسته وأنا جالسة وجسمي عارٍ، وعرفت، كألم السكين في القلب، أنه قد اتخذ قرارًا وأنه سيترك البلد، سيرحل عن مصر وأنني لن أراه مرة أخرى.

هل عرفت القرار الذي لم يقله لي لأنه ابني، أم عرفته من ضيقه وتبرمه المتصاعد قبل منظر البساط، أم عرفته لأنني لم أكن قد خلصت من حبي ولم يكن هناك حل بعد ما حدث إلا أن يسافر؟ ليس أصعب من أن تصل المرأة من جراء حبها إلى هذا القدر من الهوان.

إن دانيال لم يشأ أن يكسر سياج الخفية، لم يشأ أن يصنع الفضيحة وليته فعل. ولكنه ابني. إن عذاب الفقد قد يكون أقل، لو أنني واجهت الفضيحة أو واجهت غضبه. أما هذا الصمت، هذا القرار، فكأنه ظلمة أحاطت بالروح لتجعلها أكثر شرًّا وتجعل ما فيها من رغبة وتمسك بالخطيئة أكثر ضراوة وشراسة. إنني لم أَنُح عليه ولم أبكِ. ولم أناقش من يتحدثون عنه أو من يسألون. صمتُّ، وكأنما هو الذي أخطأ وأن عليَّ أنا أن أنتقم في نفسي منه. كان لا بد أنه استعان بأحد من أهلنا أو من أصدقائنا أو من الكنيسة أو من معارفه هو.. واحد من بين كل هؤلاء الذين يسألون والذين يحاولون العثور عليه جريحًا أو ميتًا، كان شريكًا معه في إعداد السفر وتيسيره له. لقد هرب، وساعده أحد على ذلك. إنه لا يستطيع ذلك بمفرده، ولكنه أوهمني أنه فعل ذلك وحده، يريد أن يجعلني أعتقد ذلك. فلم يقل لي أحد كلمة،

Twitter: @ketab_n

ولم أستطع أن أحدد الكاذب في كل من يسألون. والتوت عيونهم أمامي وأصبحت كلماتهم جميعًا ذات أكثر من معنى ولها أكثر من حمة تلدغ بها في القلب أو في أطراف البدن حتى محارمه الداخلية. لم يكن السفر سهلًا حينذاك وكانت مصر مليئة بصور الناصر والظافر وبأصوات الجيش القوي المستعد وكانت حركات كريم تزداد سرعة وخفية ويزداد ورود اسمه أو صوره على صفحات الجرائد.

إن الظلمة والخفية التي رانت على نفسي وعلى حركاتي، كانت تتأكد وتشتد بكل هذا الضوء والصوت العالي والحركات السريعة الدولية والعربية التي كانت تحدث في مصر في الشهور الخمسة التي سبقت حرب ١٩٦٧.

ولست أدري متى يستطيع أحد أن يكشف بوضوح ماذا كان يحدث في مسارب السلطة تحت كل هذا الضوء والصوت الجهير. لقد ازددت أنا حينذاك، كما لم يحدث من قبل، رغبة في معرفة هذا الداخل الغامض، لا عن حرص على معرفته أو المشاركة فيه على أي نحو من الأنحاء، ولكن لأنني بدأت أحس أنني أسقط من الاجتماعات ولا أُدعى إلى الكثير منها، ولأنني بدأت أجد صعوبة شديدة في الاتصال بكريم.

لقد مرت أيام عديدة وأنا مقيمة في شقة الزمالك. أذهب إلى الجامعة وأعود إليها دون أن أصحب تفيدة معي في انتظار اتصال تلفوني منه بعد اختفاء دانيال. وبدأت ليالي الانتظار في الشقة تتكرر. وبدأت أعرف أنه إن لم يأتِ هذا الاثنين أو هذا الثلاثاء أو هذا الأربعاء فقد يأتي الأسبوع القادم.

Twitter: @ketab_n

كنا نلتقي مرتين في الأسبوع على الأقل، وهي الأيام التي لا أذهب فيها للجامعة في الصباح. كنت أعد نفسي، ملابسي وعطري وشرابي، وأبدأ في الانتظار من العاشرة، حتى إذا انتصف النهار وبدأت الساعة تقترب من الواحدة بدأت أشرب وحدي وأحاول القراءة وإدارة الموسيقى قبل أن أحمل نفسي لأسوق العربة إلى الزيتون لأتغدَّى هناك.

وهنا في الزيتون، في هذه الأشهر الخمسة، بدأت أعرف عينَي تفيدة وأعرف معرفتها، وهي تراني أدور في الغرف وأقترب من التلفون وأحاوله وأتركه أو لا أجد ردًّا أو أسمع هذا الصوت الآخر الذي لا أعرفه الذي يقول لي إنه مشغول أو غير موجود. وأعود مرة أخرى أنتظر الاثنين والأربعاء في الزمالك.

في هذه الأيام، كان الانتظار يبدل الحزن على فقد دانيال إلى رغبة في كريم. وتستحيل رغبتي في رؤية دانيال والبكاء أمامه إلى حريق في قلبي للبكاء في أحضان كريم والموت في لحظات الغرام. ألم تكن هذه هي مهابط العذاب ومهاوي الخطية التي جلبتها على نفسي وعاقبني عليها الرب؟ أليس من العذاب أنني كنت أقول لنفسي حينذاك إنني قد أحتمل فقدان دانيال ولكني لا أحتمل الحرمان من قبلات كريم؟

ماذا يحدث في كيمياء العذاب والهوان لتستحيل المشاعر هكذا ولتصبح هذه الأم المحرومة امرأة كلها رغبة في الفناء فيمن تحب؟ كم أحببته هذا الشهر الذي مضى على فقدان دانيال، كم كنت أريده وكم كنت أتجمل له ليأتي وهو لا يجيء. تلك اللحظات، لحظات الانتظار،

Twitter: @ketab_n

وأنا أبدل ملابسي فأرتدي التايير مرة وأرتدي فستانًا قاتمًا محتشمًا مرة أخرى، وأحيانًا أكاد أوقن أنه قادم فأرتدي روبي الأرجواني وأضع خاتمه ثم أخلعهما بسرعة وكأنما أخشى أن يراني أحد.. في تلك اللحظات أحببته كما لم أحب من قبل واحتجته احتياجًا عاصفًا مريرًا. في تلك اللحظات كنت أشغل نفسي بأن أجمع بقايا حبنا. تلك الورقات الصغيرة التي كان يكتب لي فيها كلمات قليلة بخطه الدقيق المنمق: «أحبك، أراكِ اليوم». «هل نلتقي غدًا؟ عصفورتي الصغيرة».. كلمات قليلة ووريقات أقل. فلم يكن بيننا كتابة. كانت هناك مناديل له. ولكن كنزي الكبير كان ثلاثة أو أربعة أشرطة كاسيت ـ لا أذكر ـ عليها حديثنا في لحظات الغرام وقراءتي له وتعليقاته القليلة الضاحكة وأنا أشرح له قصائد من «إميلي» أو أقرأ له في الكتاب المقدس.. كان هذا هو كل شيء.. كنت أضعه أمامي وأقلب فيه وأحيانًا أدير الشرائط لأسمع بين كل حين وحين صوته أو صوت تنفسنا وقبلاته.. ما أقل ما كان لديَّ منه. ولكنني لم أكن أتصور حياتي من دونه وكأن الأيام المقبلة لم تكن تحمل لي مرة أخرى «تغييرًا في الفصول».

ما كان أكثر سذاجتي وما أحمق القلب عندما يستسلم للشرير. إنني لن أستطيع أن أفهم عقابي وأن أحصل على خلاصي كما أحس الآن إلا وأنا أرى بوضوح، وكأنه في سِفر مكتوب، هذا الحب الضائع الذي صنعته الوحدة المتراكمة والضيعة بين الناس، وسقته الخفية دماء الخطيئة. إنني لم أعد أتحدث بالرمز ولم أعد أختفي وراء التجريد. لقد كان كريم يحيا حياة مختلفة تمامًا عني وكان يعمل في خفاء كخفاء الشر الذي أقامه في قلبي.

Twitter: @ketab_n

كان كل ما يفكر فيه هو أن يحصل على ما يريد وكنت أنا بعض ما أراده في بعض من الزمن. كانت له القوة والسلطة فاستطاع أن يبسط على إرادته الخفاء. وفي الخفاء يولد الشر والقسوة وعقارب العذاب.

كنت أقف في الفصل ألقي محاضرتي يوم الثلاثاء عندما دخل علينا الساعي يحمل مظروفًا كبيرًا رسميًّا كتلك المظاريف التي تعودت تسلمها من كريم ليدعوني إلى اجتماع. وكانت ورقاته الصغيرة التي تجمعت لديَّ خلال عام علاقتنا تأتي أحيانًا مع مثل هذا المظروف. كنت أتلقى الخطابات قبل ذلك في فرح وفي ثقة، ولكنني لم أستطع إلا أن أجلس وأن أضع يدي عليه لأخفيه حتى أكمل المحاضرة. وكانت الورقة الصغيرة بخطه الدقيق هناك. وكانت تحمل الكلمتين «أراكِ غدًا».

في هذا الأربعاء، ولم يعد هناك ما يدعو الآن إلى تذكر لحظة لحظة، قال لي:

ـ دانيال سافر إلى الخارج.

لم أستطع أن أستخرج منه إلا أن هذه «معلوماتهم»، ولم أستطع أن أقترب منه. كان قد جاء وقد قرر أن يبتعد وأن يبتعد بلا مواجهة ولا شرح ولا حتى حزن. كان مضطربًا وكأن هناك أشياء أخرى قد حدثت في عالم آخر غير عالم الشقة التي عشنا فيها لحظاتنا وغير عالم الغرام الذي أحسه في قلبي. كان خائفًا أو جبانًا، أحس في حركاته وكلماته شيئًا جديدًا لم أره من قبل، ولم يكن فيه شيء من ذلك المسؤول الكبير الذي جلس على مكتب الحراسة يومًا. وجدته

Twitter: @ketab_n

يستدرجني وأنا أبكي، لأفهمه، حتى أجمع له كل تلك الأوراق والشرائط، ورأيته وهو يتحرك إلى حوض المطبخ ليحرقها جميعًا في الحوض وهو واقف وظهره لي وكأنما يريد أن ينتهي من مهمة أو يريد أن يطمئنني أنه لم يعد هناك أي شيء يمسكه أو يُمسَك عليه. كنت أقف وراءه أريد أن أفهم، أريد أن أسأل عن ابني ولا أريد أن يقول ما كنت أنتظره.

- لقد تغيرت الظروف.. وأرجو أن تنسي كل شيء تمامًا.. حتى اسمي.. أرجو ألا تذكريه مرة أخرى.

كيف يريدني أن أفعل ذلك؟ كيف أستطيع أن أمنع نفسي من الإحساس بالخوف عليه؟ قلت له ذلك فلم يقل أكثر من كلمات كتلك التي تقولها تفيدة.. شيء مثل: «ربنا يستر».. وشد يديه من يدي. وفي سرعة كسرعة الجند وهم يهربون، خرج، وإن أغلق الباب خلفه بهدوء وكأنما هو متأكد أنني لن أتبعه. رأيته من النافذة يختفي في عربة حمراء صغيرة غير العربة التي عرفتها له، وظللت واقفة حتى اختفت عن ناظريَّ. ولست أدري ما الذي جعلني حينذاك أنصرف إلى الحوض لأغسله وأمسح آثار الرماد المحروق منه وأفتح الشباك لتتبدد رائحة الحريق.

إن هذا الويل الثاني ما زالت له أبواق، وما زال عليَّ أن أرى نفسي بعد أسابيع من خروجه وقد بدأت محاولات التلفون مرة أخرى. ولكني لم أكن أجد حتى الرنين. مجرد صمت تام وكأنني أضرب أرقامًا لا وجود لها على الإطلاق. ما كل هذه القدرة على إزاحة الآثار وحذف الوجود وحرمان الآخرين من السؤال؟ إن الكثيرين

Twitter: @ketab_n

الذين حاولوا الكشف عما حدث في مصر في هذه الأشهر القليلة قبل حرب يونية وبعدها قد يستطيعون أن يفهموا تصرف كريم أو أن يفسروه، بل وقد يرونه متكررًا معادًا. أما أنا فلم يفهم قلبي النزِق، الحريص على خطيئته، المتطلع إلى المتعة، إلا أن يخاف عليه وأن يحس أنه في خطر. كانت مصر كلها في خطر. وأنا لا أكاد أعرف أو أسمع إلا هذه الأصوات العالية التي تعد للحرب وتدفع بالناس جميعًا إلى حماس كحماس الزار. لم أكن أفهم ما حولي تمامًا؛ فقد تقطعت صِلاتي تمامًا بالمسؤولين وبالاجتماعات، ولم تعد هناك إلا تلك الظلمة التي تعيش في داخلي وكأنها بئر الهاوية.

إنني لا أعرف تمامًا كيف لدغني ذلك الجراد الذي له سلطان كسلطان العقارب. ولا أعرف كيف وجدت نفسي أدور حول بيته في ظلمات مايو وفي شوارع الزمالك التي تتردد فيها أصوات الكلاب. كنت أسير بالليل حول البيت الكبير الذي يسكنه وأرى النور في بعض الغرف وأحس أنه وراء بعض هذا النور خائف مرتعد وأن عليَّ أن أصل إليه وأن أحميه. أنا الضائعة في الشوارع بالليل وعربتي مغلقة بعيدة تنتظرني وتنتظر جولتي الحمقاء أسير حول البيت، أدور حوله... وكأنني سأجده فجأة قادمًا إلى بيته في عربته السوداء مرة أخرى، وأنني سأراه، سأراه من بعيد.. هل يمكن للمرأة أن تفعل ذلك؟ هل يمكن أن تسير في الشارع، في الظلمة، محملة، وكأنها حامل، بتلك الرغبة المحمومة لرجل لا يريد أن يراها ولا يريدها أن تذكر اسمه؟ لقد تكفيني تلك العذابات التي كانت تجعلني أطلب الموت فلا أجده وأرغب فيه فيهرب مني.

Twitter: @ketab_n

ثم بوق الملاك السادس.. فانفك الأربعة الملائكة المعدون للساعة واليوم والشهر والسنة لكي يقتلوا ثلث الناس.

* * *

اليوم الأحد. لقد ختمت صلاتي في الفراش وروحي تهفو لقداس كامل. غدًا يحين موعد الطبيبة وقد بدأ الجسد يتهاوى وعرفت نقط الدم التي تتسرب مني وعرفت معناها أيضًا. إن قدرتي على الإمساك بالقلم أو الإمساك بالفكرة تضعف ويكلفني كل سطر جهدًا لا يكاد أن يُحتمل وكأنني أحمل في كل حرف ثقلًا ثقيلًا لا يُرفع.. إن كل الرموز والمعاني والدلالات وأبيات «إميلي» وآيات الكتاب وكلمات دانيال وكريم وتفيدة وفصول حياتي، كل منها أصبح حرفًا ثقيلًا ثقيلًا متصاعد الرقم والحساب.

لقد بُني العقل للحمولة الثقيلة العظيمة

أول الحرف:

سقط أمل كبير...

فالخراب كان بالداخل

يا للحطام الماكر الذي لا يحكي حكاية

ولا يدع أي شاهد أن يدخل فيه

أبيات «إميلي» حروف أخف. والفكرة.. التي

... صعدت إلى ذهني اليوم

والتي كنت قد امتلكتها من قبل

ولكني لم أكملها، ـ في بعض ما من قبل،

فلم أستطع أن أحدد السنة...

Twitter: @ketab_n

ولكنها ثلاث سنوات ونصف السنة.. إنني لم أفتعل الرؤية ولم أصنعها. إنها مسجلة مكتوبة في السفر الذي أكلته سنوات المنفى. سنوات الصحراء. سنوات الوحش وجرحه المميت قد شُفي.

إنه الويل الثالث، هو الفكرة والحرف الثقيل، وعلى العقل أن يحمله. أيام بالعام تنقضي لي. يا فرحتي.. كأيام صعودها إلى مصر. تلك الجالسة على المياه أُعطيت حزنًا لأنها قالت في قلبها أنا جالسة ملكة ولست أرملة ولن أرى حزنًا.

ولقد رأيت الحزن في الحفل. بعد ثلاث سنوات ونصف السنة من غيبة دانيال وأنا في البرية. وعدت لأرى رجوعه أيضًا من السجن والمحاكمة. لم أشهد شيئًا من هذا ولكنني عرفته.. ما أثقل الحروف.

رأيت الحرفين في الحفل على صدر زوجته، الـ«A» والـ«Z» وأيهما كان أولًا. هل للزمردة أهمية الآن؟ إنها حرف ثقيل، ولكنها في الحفل ويل ثالث.. لو أنني أقدر لوصفت الويل أو لاتكأت على حرف خفيف.. إنها جميعًا تختفي.. في النهاية.. البداية.. زمردة حكيم على صدر زوجة كريم وأنا أعرف السبب.. وهو لا يتكلم.

يدي تنقبض على حصاة بيضاء.. وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذي يأخذ.

الحصاة.. الحصاة.. والنجار العطوف يدق فيه المسمار ليغلقه إلى الأبد.. وعلى تلال الأردن يخدع الرياضي الملاك ويغلبه الحرف.. الحرف الثقيل.. هل ستأكل تفيدة.. السِّفر؟ تفيدة تأكل السِّفر.

٩ مساء ـ ١٣ مارس ١٩٧٩ ـ الرياض ـ ليلة خسوف القمر

Twitter: @ketab_n

الهوامش(*)

حرصت على أن أضيف عددًا من الهوامش على النص، في طبعته الثانية، وهي مشكلة أخرى لي. فأنا ضد إعداد هوامش لعمل فني ما، فإن هذه الهوامش بمعنى تبيان مصادره ومراجعه أمر يطول. وثار سؤال ماذا أضع وماذا أترك. وسيظل هذا السؤال مفتوحًا رغم استقراري على هذا العدد الموجز من الهوامش للتعريف بحكاية القديسة دميانة واستشهادها؛ وكذا تحديد مواضع الاقتباس والإشارة إلى الكتاب المقدس بعهديه. وما أكثر حاجتي لهوامش أخرى صارعت نفسي حتى لا أدرجها، حرصًا على النص أو كي لا تخرج الرواية من دائرة العمل الفني إلى البحث التاريخي والأدبي. فقد كنت أود أن أضع هوامش مطولة عن كثير من شخصيات الإنجيل التي جاء ذكرها في «أوراق زمردة أيوب»، والتي لعبت دورًا هامًّا في تشكيل الشخصية وتحديد أبعادها،

(*) أصدر المؤلف «أوراق زمردة أيوب» كرواية مستقلة عام ١٩٩٤ وأضاف هذه الهوامش إلى تلك الطبعة.

Twitter: @ketab_n

مثل: أيوب ودانيال وجومر وهوشع وبولس الرسول وغيرهم. كما اكتفيت بنشر النص الإنجليزي لقصائد «إميلي ديكنسون» التي استُخدمت في الأوراق، رغم أهمية الشاعرة ومركزية دورها في حياة كاتبة الأوراق. فليعذرني القارئ الذي يريد هوامش أكثر، فهذا أمر لا ينتهي. وليعذرني القارئ الذي يفضل إسقاط الهوامش بدعوى أن لا داعي لها. وقد حرصت ألا تضغط الهوامش على القارئ أو على النص. فلم يُشَر إليها بالأصل واكتفيت بوضعها في هذا الملحق المستقل، وبذا أصبح القارئ حرًّا في رجوعه للهوامش أو إسقاطها، حسبما يريد أو يرى، راجيًا أن تظل مرارة وحلاوة «الأوراق» مثيرة للقارئ وجديرة به.

(١) **زمردة**: الاسم قبطي ومستخدم وإن كان غير شائع ولا أعرف مسلمة بهذا الاسم.

(٢) **الوحدة الجديدة**: الإشارة إلى رسائل القديس بولس، ٢ كورنثوس ٥: ١٧، «إذن إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة».

(٣) **دميرة**: Desmayer, Demayer كما تكتب في كتاب «وصف مصر»، وهي بلدة قديمة قريبة من نبروه كان فيها أيام الحملة الفرنسية ستة مصانع لصناعة النوشادر («الخطط التوفيقية» ١١: ٥٧) وكان فيها تفتيش للأمير عمر طوسون.

(٤) **اليد الكاتبة على الحائط المكلس**: سفر دانيال ٥: ٥، «في تلك الساعة ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت بإزاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك والملك ينظر بطرف اليد الكاتبة».

(٥) **وأشد هذه الطرق رعبًا ورعدة**: انظر: أيوب ٤: ١٤، «أصابني رعب ورعدة فرجفت كل عظامي».

(٦) **افرحي يا براكسية. مع لونية وفومية**: من قطعة شعرية تنشد في ١٢ بشنس في تمجيد القديسة دميانة أولها:

عروسة قد هلت   من وادي الزعفران

Twitter: @ketab_n

ويأتي البيت رقم ٤٧ ضمن الأبيات التي تعدد قديسات الكنيسة على النحو التالي:

افرحـــي مـــع بربـــارة — ســـفري مـــع يوليانـــة
لـــك رمـــزًا وإشـــارة — يـــا حـــرة منصانـــة
ادخلـــي مـــع صوفيـــة — سُـــري مـــع اللوريـــا
افرحـــي يـــا براكسيـــة — مـــع لونيـــة وفوميـــة

«سيرة الشهيدة دميانة». القاهرة: مكتبة المحبة القبطية الأرثوذكسية، دون تاريخ، ص ٤٤-٤٧.

(٧) **«هذه هي الصبورة.. العفيفة دميانة»**: من نفس القطعة السابقة سطر ١٩:

عروســـة منقيـــة — خطيبـــة عمانوئيـــل
هـــذه هـــي الصبـــورة — العفيـفـــة دميـانـــة
تابعـــة مجمـــرة وشـــورة — مريـــم فخـــر رجانـــا
هـــذه تدعـــى سوســـنة — وزهـــرة الأوديـــة

(٨) **القدير، لماذا أعاتب القدير**: القدير اسم إلهي قديم يرجع إلى عصر الآباء، وهو ترجمة العبرية El Shaddai والاسم نادر التكرار خارج الكتب الخمسة الأولى فيما عدا أيوب (أول وروده: تكوين ١٧ : ١). أما في أيوب فيتكرر باستمرار. وترجمة «القدير» لا يرضى عنها بُحَّاث الكتاب المقدس المحدثون.

«La traduction commune “Dieu Tout-Puissant” est inexacte. Le sens probable est “Dieu le Montagnard”» (ساكن أعالي الجبال) cf. *La Bible de Jerusalem*, Paris, 1956, p. 23.

ولكن ترجمة «القدير» هي المستخدمة في الترجمة العربية و«أعاتب القدير» تستحضر للقارئ مباشرة سفر أيوب.

(٩) **«السحاب يضحمل ويزول»**: أيوب ٧: ٩.

(١٠) **«ساقية الوديان... جفت من مكانها»**: أيوب ٦: ١٥-١٦.

(١١) **«أبحر أنا... برؤى»**: أيوب ٧: ١٣-١٤.

(١٢) **المجلة**: المقصود «المجلة القبطية».

(١٣) تفتيش عمر طوسون: كان تفتيش دميرة تابعًا للأمير عمر طوسون. وقضية الأب لها أصل تاريخي مأخوذ عن «المجلة القبطية» ٦٣٤-٦٤٤، وكانت شركة البحيرة قد اشترت أرضًا من الحكومة في بداية القرن وبدأت تقسيمها وبيعها. وهنا استغل أحد المطارنة فرصة أثمان الأرض المنخفضة واشترى أرضًا كتبها

Twitter: @ketab_n

باسمه مع أنه كان يدفع ثمنها من مال الأوقاف. تاريخ القصة يرجع إلى سنوات ١٩٠٦-١٩٠٨، وقد عرف عن الأمير عمر طوسون إلى جانب رحلاته وكتبه العلمية اهتمام خاص بحياة ودير القديسة دميانة.

(١٤) القديسة دميانة: «دميانة» أو «جميانة» قديسة مصرية لها سلطان على قلوب المسيحيين والمسلمين في مصر. والأجانب يخلطون بينها وبين القديسة كاترينا (صاحبة الدير في سيناء) وهي تسمى عادة «الست دميانة». ودميانة استشهدت في اضطهاد «دقلديانوس» (أوائل القرن الرابع الميلادي) وقصتها أنها نذرت نفسها منذ أن كانت في حوالي الخامسة عشرة من عمرها للمسيح وطلبت من أبيها أن يبني لها قصرًا (وليس ديرًا كما تقول «بوتشر» أو غيرها) تعيش فيه مع أربعين فتاة من أترابها وكأنهن لخدمتها أو للمشاركة معها في تجربة المسيح. وكان أبوها واليًا من قبل الإمبراطور على «الفرما» شمال فوهة قناة السويس وبقايا الآن بلدة «الطينة» مقابل بورسعيد. وهناك خلاف حول مدى مصرية دميانة وهل كان أبوها مصريًا أم لا. فأقباط مصر يعتبرونها مصرية خالصة هي وأبوها، وهي لا تذكر بالفعل إلا في كتبهم. ولأن الأب كان حاكمًا في عهد الرومان فإن البعض ينفي مصريته باعتبار أن السياسة الرومانية كانت تتجنب وضع أحد أهالي البلد حاكمًا لها وكذلك الجيش لا تستعمله في نفس المنطقة. ويبدو أن الأب كان مقربًا للإمبراطور، دخل في تجربة قاسية طالبه فيها الإمبراطور بالسجود لأوثانه، ويبدو أنه كان قد دخل المسيحية بالفعل. غير أن ابنته أصرت على استدعائه إليها وإقناعه بالصمود، حتى قتله الإمبراطور وأرسل لتعذيبها هي وأترابها أميرًا وجندًا. وبدأت أيام التعذيب التي استمرت حوالي عشرة أيام، وإن كان تاريخ القديسة يقص بالذات عن خمسة أيام فقط، وهي أيام التعذيب الفعلي للتفرقة بينها وبين أيام السجن. وتروي القصة أنه استشهد معها الأربعون من أترابها وأنه قد استشهد معها «من مبدأ عذابها إلى كماله أربعمائة نفس»، وتُروى القصة في مصادر متعددة كلها نابعة من ميمر الشهيدة دميانة.

الميمر كلمة يقال إنها سريانية ويرى البعض أنها مجرد تحوير للكلمة لاتينية الأصل memoria بمعنى سيرة أو قصة وأحيانًا أسطورة.

و«ميمر الشهيدة دميانة» يعرف له أربع نسخ. وقد نشر لأول مرة عام ١٩١٧ ونشرت له طبعة ثانية ١٩٤٨ والطبعة الثانية هي التي صاحبتني أثناء الكتابة.

Twitter: @ketab_n

«ميمر الشهيدة دميانة». مقدمات الميمر وتصحيح الذيل الملحق به بقلم جرجس فيلوثاؤس عوض. الطبعة الثانية؛ القاهرة: مطبعة الشمس الحديثة (منطقة شق الثعبان، كلوت بك)، ١٩٤٨.

والنسخ الأربع للميمر ترجع كلها إلى أصل واحد من وضع يؤنس أسقف البرلس عما وجده بخط «خرسطوذولس» تلميذ يوليوس الأقفهصي (أقفهص في مركز الفشن مديرية المنيا). ويوليوس الأقفهصي أرخ لعدد آخر من القديسين وتاريخه يرجع إلى ما بعد أيام استشهاد دميانة (انظر سنكسار ٢ توت، و٢٥ بابة). أما الدير والكنائس المحيطة به فهي قديمة وقد ذكرها المؤرخون الأقباط كما ذكرها المقريزي. ويشير المقريزي بالذات إلى دير جميانة (٢: ٥٠٨) وإلى دير المغطس (في منية طانة مقابل سمنود). ويروي الميمر أن أول كنيسة بنيت لها كانت في عصر قسطنطين وأن والدته هي التي بنت الكنيسة في الزعفرانة بوادي السيسبان (والزعفرانة ما زالت موجودة من أعمال كفر الشيخ)، وهناك حاليًا كنيسة كبيرة. وكانت هناك خمس كنائس باسم أنطونيوس، والعذارى، وماري، وجرجس، إلى جانب الكنيسة المعلقة التي هي على اسم العذراء.

الاستشهاد والتمجيد: التواريخ المعتمدة بناء على الميمر هي: الاستشهاد ١٣ طوبة، تكريز البيعة ١٢ بشنس، وهي أيام المولد، وتقع في الصيف، وكان بعض الأقباط يذهبون إليه للفسحة (بدلًا من الذهاب إلى الإسكندرية) كما يلاحظ أنه يقع تقريبًا في نفس الوقت الذي يقع فيه مولد السيد أحمد البدوي في طنطا. وقد استفدت كثيرًا من مقدمة الميمر التي كتبها جرجس فيلوثاؤس عوض الذي قص ذكرياته عن الدير والمولد والطريق إليه.

صورة دميانة: هناك صورة قديمة للست دميانة في كنيسة أبي سرجة في مصر القديمة، وتصور في أغلب الكنائس في يدها سعف النخل يحيط بها أربعون من أترابها.

المغطس: كانت المغاطس موجودة عادة في الكنائس القديمة، وهي توجد عادة في الغرب، وما زال في بعضها إلى الآن مغاطس، وإن كانت مغطاة. وهي أحيانًا ـ كما في كنيسة أبي سرجة بمصر القديمة ـ عند الدخول على اليمين من الباب الشمالي لعدم وجود باب غربي. وهي بقية معمارية من التراث الروماني، وكانت المغاطس عادة تمتلئ بماء النيل مع الفيضان.

Twitter: @ketab_n

ويجتمع الشعب القبطي ليلة الغطاس (ليلة الحادي عشر من طوبة) ليقدسوا على المغطس ويغطسوا فيه وقد سبقت الإشارة إلى دير المغطس الوارد ذكره في المقريزي.

قبة الظهور: معجزة ظهور القديسين مألوفة في كثير من كنائس العالم، وظهور الخيالات متكررة وقد عرفت حتى وقت متأخر في دير العريان بالمعصرة (خط حلوان). وأذكر أنني أعرف وأنا طفل احتفالات مولد العريان حيث كان الناس يصيحون: «يا عريان يا ابن التبان اظهر وبان عليك الأمان».. أما قبة الظهور في كنيسة القديسة فقد عرفت منذ تاريخ طويل وهناك وصف مفصل لها ولصيحات الشعب في كتاب أب يسوعي فرنسي زار مصر ثلاث مرات فيما بين ١٧١٢ و١٧١٤م وكتب كتابًا عن «الرحلات الثلاث» (باريس ١٧١٧)، وهو يصف تلون الخيالات بألوان ونسبتها إلى قديسين مختلفين بناء على اللون الذي كانوا يرسمون به في الكنائس عادة. ويروي القصة نفسها تمامًا جرجس فيلوثاؤس عوض في أثناء زيارته للمولد ١٨٩٧ ومرات أخرى بعد ذلك حتى ١٩٤٩. أما زمردة فلم تر قبة الظهور لأنها كانت قد اختفت ضمن ما دخل من تعديلات على معمار الكنائس والدير. انظر أيضًا عن دميانة: بوتشر، «تاريخ الأمة القبطية»، ج١: ١٧٦-١٨٠.

(١٥) **الطريق الضيق**: انظر «الباب الضيق»، متى ٧: ١٣-١٤.

(١٦) **«إلوي إلوي...»**: انظر مرقس ١٥: ٣٤.

(١٧) **بعيدًا في الصيف**:

Emily Dickinson, «Further in the summer»

انظر بعده لنص القصيدة، ملاحظة رقم ٢٩.

(١٨) **صورتها والأربعين**: انظر ملاحظة ١٤.

(١٩) **«أما طاب قلبك يا ستي... التعب كله»**: انظر «ميمر الشهيدة دميانة»، فقرة ٢١، سطر ١٠-١٤، ص ٧٤.

(٢٠) **«الويل لكم إذا قال فيكم الناس...»**: متى ٦: ٢ و١٦، ولوقا ٦: ٦. الجملة مركبة من الموضعين.

(٢١) **«جاءوا بقدوم نجار...»**: «ميمر الشهيدة دميانة»، فقرة ٢١، سطر ١-٤، ص ٧٥.

(٢٢) **«وللوقت نزل طير...»**: «ميمر»، فقرة ٢١، سطر ٨-١٣، ص ٧٥.

Twitter: @ketab_n

(٢٣) أيتها الممتلئة مجدًا: «ميمر»، نفس الموضع.

(٢٤) إبرة التشخيص الأولى: إجراء طبي لتشخيص المرض وهي تؤخذ من العمود الفقري.

(٢٥) وإنني «أرى ناموسًا آخر...»: رومية ٧: ٢٣-٢٤.

(٢٦) «مَن من الناس...»: ١ كورنثوس ٢: ١١.

(٢٧) «هذا كله رأته عيني...»: أيوب ١٣: ١-٥.

(٢٨) «الملكة المنعزلة»: Recluse Queen، اسم أطلقه على «إميلي ديكنسون» Thomas Wentworth Higginson، أول من أرسلت إليه «إميلي» شعرها.

(٢٩) أبعد في الصيف من الطيور: الإشارة إلى قصائد «إميلي» مأخوذة عن:

The Complete Poems of Emily Dickinson, edited by Thomas H. Johnson. Boston: Little, Brown and Company, 1960.

القصيدة رقم ١٠٦٨، كتبت حوالي عام ١٨٦٦، ونشرت لأول مرة عام ١٨٩١، وفيما يلي نصها:

Further in Summer than the Birds
Pathetic from the Grass
A minor Nation celebrates
Its unobtrusive Mass.

No Ordinance be seen
So gradual the Grace
A pensive Custom it becomes
Enlarging Loneliness.

Antiquest felt at Noon
When August burning low
Arise this spectral Canticle
Repose to typify

Twitter: @ketab_n

Remit as yet no Grace

No Furrow on the Glow

Yet a Druidic Difference

Enhances Nature now

علامات الوقف واستخدام الحروف الكبيرة لـ«إميلي»، وكان لها أسلوبها الخاص في ذلك. وقد احتفظنا به في كل النصوص المأخوذة عنها كما اعتمدها ناشر أعمالها الكاملة «توماس هـ. جونسون».

(٣٠) **وكلهم عادوا.. عادوا للسحل**: المعلومات موثقة في: توفيق السويدي. «مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية». بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٩، ص ٥٨٨ وما بعدها.

(٣١) **«ليكن اسم الله مباركًا من الأزل...»**: دانيال ٢: ٢٠-٢٢.

(٣٢) **الآنية المسروقة**: انظر دانيال ١: ١-٣.

(٣٣) **«ليس ما يدخل الفم ينجس...»**: متى ١٥: ١١، مرقس ٧: ١٥.

(٣٤) **أمير الظلام القاسي**: الأمير الذي أرسله «دقلديانوس» لتعذيب دميانة.

(٣٥) **«تنزل سرًّا وتهرب»**: لما جاء الجنود يطلبون دميانة قالت لأترابها: من كانت منكن تريد أخذ الشهادة على اسم المسيح فلتقم هنا ومن لم تطق العذاب فلتنزل سرًّا وتهرب إلى حال سبيلها. «ميمر»، فقرة ١٣، سطر ١٥، ص ٦٧.

(٣٦) **«التعب الأول»**: في صلاة دميانة خلال تعذيب أول يوم: «واقبل مني هذا التعب الأول على اسمك المقدس». «ميمر»، فقرة ١٦، سطر ٩، ص ٦٩.

(٣٧) **لقد جردوا لحمها**: «ميمر»، فقرة ٨، سطر ١٨-٢٢، ص ٧٠.

(٣٨) **ليس لأحد عليَّ - حتى الكنيسة - حق فيه**: اتخذت الكنيسة الأرثوذكسية طوال قرون طويلة موقفًا صلبًا مضادًّا للاعتراف كما تعرفه الكنيسة الكاثوليكية.

(٣٩) **أطلق عصفورًا حيًّا**: لاويين ١٤: ١٦، ١٦: ٢٠ وما بعدها.

(٤٠) **كما قبلت اعتراف اللص وأنت على الصليب**: من كلام القس في القداس الأرثوذكسي. بعد انتهائه من طوافه بالمبخرة بين الشعب، يدخل الهيكل ويقول هذا الدعاء سرًّا.

(٤١) **«رغم التحدي والمصاعب والمحن»**: أغنية شائعة، والحديث والمناسبة من الواقع مباشرة.

(٤٢) **«كل ده تحمله...»**: نص منشور في الجرائد.

Twitter: @ketab_n

(٤٣) «قد سمعت كثيرًا مثل هذا...»: أيوب ١٦: ١-٢.

(٤٤) حماة سمعان: مرقس ١: ٢٩-٣١، «فتقدم وأقامها ماسكًا بيدها فتركتها الحمى حالًا وصارت تخدمهم».

(٤٥) تكتب على الحائط: دانيال ٥: ٥.

(٤٦) «لأنه ليس شيء خفي لا يظهر...»: مرقس ٤: ٢٢.

(٤٧) وكأنها سبقت ودهنت: مرقس ١٤: ١٨، «عملت ما عندها، قد سبقت ودهنت بالطيب جسدي للتكفين».

(٤٨) «خفيات الحكمة»: أيوب ١١: ٦، «ويعلن لك خفيات الحكمة أنها مضاعفة الفهم فتعلم أن الله يغرمك بأقل من إثمك».

(٤٩) «كف عني فأبلج قليلًا»: أيوب ١٠: ٢٠، «أليست أيام قليلة؟ اترك. كف عني فأبلج قليلًا».

(٥٠) أحمل صليبي: لوقا ١٤: ٢٧.

(٥١) خطاياهم «واضحة...»: انظر تيموثاوس ٥: ٢٤.

(٥٢) «لا تقاوموا الشر»: متى ٥: ٣٨، ٥: ٤٤.

(٥٣) علينا لكل لحظة من لحظات النشوة: القصيدة رقم ١٢٥، كتبت حوالي ١٨٥٩ ونشرت لأول مرة ١٨٩١:

For each ecstatic instant
We must an anguish pay
In keen and quivering ratio
To the ecstasy.

For each beloved hour
Sharp pittances of years –
Bitter contested farthings –
And Coffers heaped with Tears!

(٥٤) «يا أبي كيف يخطر ببالك...»: «ميمر»، فقرة ٤، سطر ١٦-١٨، ص ٥٧.

(٥٥) الحضن الإلهي: يوحنا ١: ١٨.

(٥٦) ناره التي «ستمتحن عمل» كل واحدة: ١ كورنثوس ٣: ١٣.

Twitter: @ketab_n

(٥٧) «حزن العالم»: ٢ كورنثوس ٧: ١٠.

(٥٨) «أبناء المعصية»، «سلطان الهواء»: أفسس ٢: ٢.

(٥٩) «نحن جميعًا تصرفنا قبلًا...»: أفسس ٢: ٣.

(٦٠) «هو غني في الرحمة»... «محبته الكثيرة»: أفسس ٢: ٤.

(٦١) تتكلم «إنسانيًّا»: رومية ٦: ٦، «أتكلم إنسانيًّا».

(٦٢) جسدي «مبيع تحت الخطيئة»: رومية ٧: ١٤.

(٦٣) «أعلم أنه ليس ساكنًا فيَّ، أي في جسدي...»: رومية ٧: ١٨.

(٦٤) «والقادر أن يفعل فوق كل شيء...»: أفسس ٣: ٣٠.

(٦٥) أعمال الظلمة، ألبس أسلحة النور: رومية ١٣: ١٢.

(٦٦) أليست تلك هي كلمات «هاردي»: أظن أن كلمات «هاردي» هي شيء كهذا (النص الكامل ضائع مني الآن):

If way to the better there be, it exacts a full look at the worst.

(٦٧) «بليك»:

Proverbs of Hell: «Sooner murder an infant in its cradle than nurse unacted desires».

(٦٨) «هي نيو نو هيست»: القصيدة رقم ٧١٢، كتبت حوالي ١٨٦٣ ونشرت لأول مرة ١٩٥٠:

Because I could not stop for Death –
He kindly stopped for me –
The Carriage held but just Ourselves –
And Immortality.

We slowly drove – He knew no haste
And I had put away
My labor and my leisure too,
For His Civility –

We passed the School, where Children strove
At Recess – in the Ring –

Twitter: @ketab_n

We passed the Fields of Gazing Grain –
We passed the Setting Sun –

Or rather – He passed Us –
The Dews drew quivering and chill –
For only Gossamer, my Gown –
My Tippet – only Tulle –

We paused before a House that seemed
A Swelling of the Ground –
The Roof was scarcely visible –
The Cornice – in the Ground –

Since then – 'tis Centuries – and yet
Feels shorter than the Day
I first surmised the Horses' Heads
Were toward Eternity –

(٦٩) آنية الهوان: إشارة إلى الآية في رومية ٩: ٢١، «أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان».

(٧٠) «إن الدنيا كلها تنقسم...»: «كيركجارد». لم أستطع مراجعة الأصول عند إعداد هذه الهوامش، لكن النص منقول في ملاحظات إعداد الرواية على النحو التالي:
«The whole world can be divided into those who write and those who do not write. Those who write represent despair, and those who read disapprove of it and believe that they have a superior wisdom - and yet, if they were able to write, they would write the same thing. Basically they are all equally despairing, but when one does not have the opportunity to become important with his despair, then it is hardly worth the trouble to despair and show it. Is this what it is to have conquered despair?»

Twitter: @ketab_n

(٧١) قضاتها ذئاب مساء لا يبقون شيئًا إلى الصباح: صفينا ٣: ٣.

(٧٢) روح الزنى: هوشع ٥: ٤، «أفعالهم لا تدعهم يرجعون إلى إلههم لأن روح الزنى في باطنهم وهم لا يعرفون الرب».

(٧٣) «آوودن واي»: القصيدة رقم ٣٤١، كتبت حوالي ١٨٦٢ ونشرت لأول مرة ١٩٢٩:

After great pain, a formal feeling comes –
The Nerves sit ceremonious, like Tombs –
The stiff Heart questions 'was it He, that bore,'
And 'Yesterday, or Centuries before'?

The Feet, mechanical, go round –
Of Ground, or Air, or Ought –
A Wooden way
Regardless grown
A Quartz contentment, like a stone –

This is the Hour of Lead –
Remembered, if outlived,
As Freezing persons, recollect the Snow –
First – Chill – then Stupor – then the letting go –

(٧٤) كصمت «جوتلاند»: الإشارة إلى حياة «كيركجارد» وتجديف والده على الرب في «جوتلاند».

(٧٥) «بيت أون»: هوشع ٤: ١٥ (Beth-aven)، وهي تترجم في إنجيل أورشليم:
«Maison de néant, sobriquet de Bethel (Beth-El, maison de Dieu)».

(٧٦) خوف كالسهم المريش ـ وتباهٍ ـ ودمعة: القصيدة رقم ٨٧، كتبت حوالي ١٨٥٩ ونشرت لأول مرة ١٩٤٥:

A darting fear – a pomp – a tear –
A waking on a morn

Twitter: @ketab_n

To find that what one waked for,

Inhales the different dawn.

(٧٧) أولاد الأفاعي: متى ١٢: ٣٤.

(٧٨) الفجر المختلف الآخر: انظر ملاحظة رقم ٧٦، the different dawn.

(٧٩) جومر... «امرأة زنى»: هوشع ١: ١-٣، وامرأة زنى تعني إما أنها كانت كذلك أو أنها ستصبح زانية.

(٨٠) «والآن اكشف عورتها... حيوان البرية»: هوشع ٢: ١٠-١٢.

(٨١) «أجرتي... »: هوشع ٢: ١٢، «وأخرِّب كرمها وتينها اللذين قالت هما أجرتي التي أعطانيها محبي».

(٨٢) «أيام بعليم»: هوشع ٢: ١٣.

(٨٣) «وأعاقبها...»: هوشع ٢: ١٣.

(٨٤) «هأنذا أتملقها...»: هوشع ٢: ١٤-١٥.

(٨٥) إنني أطلب الرحمة: هوشع ٦: ٦، «إني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات».

(٨٦) فهل النعيم مكان ـ سماء ـ شجرة: القصيدة رقم ٤٨٩، كتبت حوالي ١٨٦٢ ونشرت لأول مرة ١٩٢٩:

We pray – to Heaven

We prate – of Heaven –

Relate – When Neighbors die –

At what o'clock to heaven – they fled –

Who saw them – Wherefore fly?

Is Heaven a Place – a Sky – a Tree?

Location's narrow way is for Ourselves –

Unto the Dead

There's no Geography –

But State – Endowal – Focus –

Where – Ominipresence – fly?

Twitter: @ketab_n

(٨٧) قلق الترقب ـ أعدى من الموت: القصيدة رقم ٧٠٥، كتبت حوالي ١٨٦٣ ونشرت لأول مرة ١٩٢٩:

Suspense – is Hostiler than Death –
Death – tho'soever Broad
Is just Death, and cannot increase –
Suspense – does not conclude –

But perishes – to live anew –
But just anew to die –
Annihilation – plated fresh
With Immortality –

(٨٨) الزانية العظيمة: رؤيا ١٧: ١-١٥. الألوان تذكّر بالآيات: قرمزي ١٧: ٣، أرجوان ١٧: ١٤، كأس من ذهب ١٧: ١٤.

(٨٩) إن ما عند الرب عليَّ غير قليل: إشارة إلى تعبير من الرؤيا ٢: ٢، إلخ. «لكن عندي عليك قليل...».

(٩٠) «الويل الواحد يمضي هو ذا يأتي ويلان أيضًا بعد هذا»: رؤيا ٩: ١١.

(٩١) سفر مكتوب: رؤيا ٥: ١.

(٩٢) عقارب العذاب: رؤيا ٩: ٣-٥، «... من الدخان خرج جراد فأعطى سلطانًا كما لعقارب الأرض سلطان.. وعذابه كعذاب عقرب إذا لدغ إنسانًا».

(٩٣) بئر الهاوية: تعبير إنجيلي متكرر، انظر مثلًا رؤيا ٩: ١.

(٩٤) أبواق: انظر «ثم بوق الملاك»: رؤيا ٩، و١: ١٣، إلخ.

(٩٥) ذلك الجراد: انظر رؤيا ٩: ٣-٥.

(٩٦) ثم بوق الملاك السادس: رؤيا ٩: ١٣-١٥.

(٩٧) متصاعد الرقم والحساب: الإشارة إلى طريقة إعطاء قيم رقمية للحروف والكلمات في الشعر والسحر والأسرار الدينية. انظر رؤيا ١٣: ١٧-١٨: «هنا الحكمة! من له فهم فليحسب عدد الوحش ففيه عدد إنسان. وعدده ست مئة وستة وستون».

(٩٨) لقد بني العقل للحمولة الثقيلة العظيمة: القصيدة رقم ١١٢٣، كتبت حوالي

Twitter: @ketab_n

١٨٦٨ ونشرت لأول مرة في ١٩٤٥، وأبياتها متناثرة فيما بقي من الفصل في الكتاب:

A great Hope fell
You heard no noise
The Ruin was within
Oh cunning wreck that told no tale
And let no Witness in

The mind was built for mighty Freight
For dread occasion planned
How often foundering at Sea
Ostensibly, on Land

A not admitting of the wound
Until it grew so wide
That all my Life had entered it
And there were troughs beside

A closing of the simple lid
That opened to the sun
Until the tender Carpenter
Perpetual nail it down –

(٩٩) التي صعدت إلى ذهني اليوم... والتي كنت... أحدد السنة: القصيدة رقم ٧٠١، كتبت حوالي ١٨٦٣ ونشرت لأول مرة ١٨٩١:

A Thought went up my mind to-day –
That I have had before –
But did not finish – some way back –
I could not fix the Year –

Twitter: @ketab_n

Nor where it went – nor why it came
The second time to me –
Nor definitely, what it was –
Have I the art to say –

But somewhere – in my Soul – I know –
I've met the Thing before –
It just reminded me – 'twas all –
And came my way no more –

(١٠٠) سنوات الوحش وجرحه «الميت قد شفي»: رؤيا ١٣: ٣.

(١٠١) كأيام صعودها إلى مصر: هوشع ٢: ١٦.

(١٠٢) لأنها قالت في قلبها: أنا جالسة... ولن أرى حزنًا: رؤيا ١٨: ٧. وأنا في البرية: رؤيا ١٢: ٦.

(١٠٣) حصاة بيضاء... يأخذ: رؤيا ٢: ١٧.

(١٠٤) النجار العطوف يدق فيه المسمار: انظر ملاحظة ٩٨.

(١٠٥) وعلى تلال الأردن يخدع الرياضي الملاك ويغلبه...: القصيدة رقم ٥٩، كتبت حوالي ١٨٥٩ ونشرت ١٨٩٠:

A little East of Jordan,
Evangelists record,
A Gymnast and an Angel
Did wrestle long and hard –

Till morning touching mountain –
And Jacob, waxing strong,
The Angel begged permission
To Breakfast – to return –

Twitter: @ketab_n

Not so, said cunning Jacob!
"I will not let thee go
Except thou bless me" – Stranger!
The which acceded to –

Light swung the silver fleeces
"Peniel" Hills beyond,
And the bewildered Gymnast
Found he had worsted God!

(١٠٦) تفيدة تأكل السفر: انظر رؤيا ١٠: ٩-١١، «فذهبت إلى الملاك قائلة له: «أعطني السفر الصغير». فقال لي: «خذه وكُلْه فسيجعل جوفك مرًّا، ولكنه في فمك يكون حلوًا كالعسل». فأخذت السفر الصغير من يد الملاك وأكلته فكان في فمي حلوًا كالعسل وبعدما أكلته صار جوفي مرًّا. فقال لي: «يجب أن تتنبأ أيضًا على شعوب وأمم وألسنة وملوك كثيرين»».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مختارات الكرمة

١. مليم الأكبر ـ عادل كامل

٢. الناس في كفر عسكر: أولاد عوف ـ أحمد الشيخ

٣. النزول إلى البحر ـ جميل عطية إبراهيم

٤. دنقلا ـ إدريس علي

٥. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس ـ أحمد حجي

٦. الشبكة ـ شريف حتاتة

٧. ملك من شعاع ـ عادل كامل

٨. إجازة تفرغ ـ بدر الديب

٩. رابعة ثالث ـ علي الشوباشي

١٠. رباعية أيام الطفولة ـ إبراهيم عبد الحليم

١١. حديث شخصي: أربع تنويعات ـ بدر الديب

١٢. الرحلة ـ فكري الخولي

١٣. هوامش الفتح العربي لمصر ـ سناء المصري

١٤. كتاب الطاو: الطريق إلى الفضيلة ـ لو تسو، ترجمة علاء الديب

Twitter: @ketab_n

«بدر الديب هو أكبر مثقف مصري»

أحمد بهاء الدين

«قصص جارحة، كما يكون الصدق جارحًا. فإن كنت قد سئمت الكذب واشتقت إلى عذاب الحقيقة فهذا هو المطهِّر.. روحك سوف تنزف من أول سطر تقرأه.. وستظل (هذه القصص).. قلقًا دائمًا بعد أن تفرغ من قراءتها.. درسًا في الشجاعة»

شكري محمد عياد

«لا أعرف كاتبًا عربيًا يمكن أن نُسميه بكاتب الكُتاب غير بدر الديب.. كتابات بدر الديب تتسم بأنها كتابات طليعية سابقة لحساسية زمنها الفنية»

صبري حافظ

شجع رشدي حمامو زوجته على الهجرة إلى الجزائر للعمل. تنتظر سميحة عبد العظيم تنفيذ حكم الإعدام بحقها بعد أن قتلت زوجها. يودع نصر الشربيني باستياءٍ ابنته المسافرة مع زوجها، ويقضي ليلته منعزلًا في فندق قرب الميناء. تعيش زمردة أيوب الأيام الأخيرة من صراعها مع المرض في غياب ابنها وأحبائها.

في الفسحة المتاحة بين الانفصال والموت، فرصة أخيرة لكل من الرواة الأربعة للبحث، من خلال الكتابة، عن نقطة البداية: بداية لإدراك المعنى، في حديث شخصي عن الحياة والحب والخيانة والفقد.

تكشف هذه التنويعات الأربع براعة بدر الديب الروائية، وقدرته الفريدة على تمييز أدق التفاصيل في المشاعر الإنسانية، وأكثرها خفاء.

بدر الديب (١٩٢٦-٢٠٠٥)، كاتب ومترجم مصري، ولد بـ«جزيرة بدران» في القاهرة، تخرج في جامعة القاهرة، قسم الفلسفة، عام ١٩٤٦، وتابع دروسه في جامعة «السوربون»، ثم في جامعة «كولومبيا». رأس تحرير جريدة «المساء» بين ١٩٦٧ و١٩٨٦، وتبوأ مناصب ثقافية عدة، منها: خبير اليونسكو في التوثيق التربوي، وخبير لدى الأمم المتحدة، وأستاذ غير متفرغ لتدريس تاريخ المسرح والنقد المسرحي بالمعهد العالي للفنون المسرحية. كتب في القصة والرواية والشعر والمسرح. من أهم أعماله: «إجازة تفرغ»، «حديث شخصي»، «حرف الـ ح»، و«لحم الحلم». كما ترجم عديدًا من الأعمال الأدبية العالمية، منها مجلدا مختارات من كلاسيكيات نصوص الهايكو اليابانية، ومسرحيات لشكسبير وساروبان وغيرهم.

9 789776 467170

الكرمة